جائزة غونكور للثانويين ٢٠١٥

ناتالي أزولاي

مآخذ على الحب

رواية

ترجمة: لينا بدر



مكتبة | 596

مآخذ على الحب

الكتاب: مآخذ على الحب
المؤلف: ناتالي أزولاي
الترجمة: لينا بدر
الناشر: دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان
ت: ٣٠١٤٦١(٠١) - فاكس: ٣٠٧٧٧٥(٠١)
ص.ب: ٣١٨١/ ١١ - الرمز البريدي: ٢١٣٠ ١١٠٧
www. dar-alfarabi. com
e-mail: info@dar-alfarabi. com

الطبعة الأولى: تشرين الأول ٢٠١٧

ISBN: 978-614-432-822-4

***

العنوان بلغة الأصل الفرنسية
TITUS N'AIMAIT PAS BÉRÉNICE
Traduit par
Lina BADR
© Éditions P.O.L 2016
ISBN : 9782818036204

[متابعة ترجمة الكتاب وإنتاجه: محترَف القول الجريء بإدارة غازي برّو]

بيروت موبايل: ٧٠٢١٦١٤٠
Atelier. oser. dire1@gmail.com
Réalisation et traduction de l'ouvrage: Atelier oser dire animé par
Ghazi Berro

« Cet ouvrage a bénéficié du soutien des Programmes d'aide à la publication de l'Institut français. »
Et « Cet ouvrage, publié dans le cadre du Programme d'Aide à la Publication Georges SCHEHADE, bénéficie du soutien du Ministère des Affaires Etrangères et du Développement International et du Service de Coopération et d'Action Culturelle de l'Ambassade de France. »

مآخذ على الحب

ناتالي أزولاي

ترجمة: لينا بدر

مكتبة | 596

دار الفارابي

لم يكن تيطُس يحب بيرينيس وهي التي كانت تظن أنه يُحبها.

لم يكـن تيطُـس يحب بيرينيـس في حـين كان الكل يظنّ أنـه هجرها مـن أجل عائلتـه لأنه لا خيـار أمامه.

عـاش تيطُـس إمبراطور رومـا وبيرينيـس ملكة فلسـطين في القرن الأول بعد المسيح وكانا عاشـقين. ومن بين كثيرين غيره، روى راسـين قصّتهما في القـرن السـابع عـشر، ولكـن هـذه القصـة تجـري أحداثهـا الآن: تيطُـس يـترك بيرينيـس في مقهى.

لاحقـاً، قـررت بيرينيـس العـودة إلى المصـدر وقـراءة كل أعـمال راسـين، في محاولة منهـا لفهم ما كان عليه: هو الجنسـيني[1]، البرجوازي في حاشـية الملـك، أنّـى لرجل مثلـه أن يكتب قصـة كهذه؟ مـا بين «بور رويـال» و«ڤيرسـاي» أصبـح راسـين شريكهـا في نقاهتها، لامسـت فيه الحقيقـة الوحيـدة والصحيحـة: إذا كان تيطُـس قد هجرهـا، فذلك لأنه لم يكـن يُحبهـا كما تُحبـه. ولكن كـم سـيطول الوقت ويصعـب للوصول إلى خاتمـة بهذه البسـاطة.

---

(١) جنسينيّ: مذهب ديني مسيحي أتى به جنسينيوس عام ١٦٤٠م وانتشر في فرنسا على يد رهبان وراهبات «بور رويال» ويعني في علم اللاهوت: الإيمان بقضاء الله وقدره منذ الأزل، وينفي حرية الإنسان في اختيار مصيره، ويدعو إلى الالتزام بالفضيلة الصارمة المتقشفة.

تيطس لم يكن يحب بيرينيس

«حينـذاك، أبعد تيطُـس الملكة بيرينيـس عن روما، رغـماً عنه ورغماً عنها.»

سويتون، حياة تيطُس

١

كان جـوع تيطُـس يعكـس الطاقـة التـي تفرضهـا هـذه اللحظة، فهـو كان يـأكل بشـراهة فيمـا بيرينيـس لم تلمـس طعامها، بـل كانت سـاكنة تحـدّق إلـى طبقهـا، ثـم راحـت تبكـي فضمّهـا بيـن ذراعيه. وعندمـا همّـت بالرحيـل أمسـك بهـا. أيّ وحـش أنـا؟ قـال تيطُـس وهـو يمسـح للمـرة الأخيـرة دمـوع تلـك التي لطالمـا عشـقها، لكن قـراره لـم يتغيّـر. تيطُـس يحـب بيرينيـس ثـم يتخلّـى عنهـا. تيطـس هجـر بيرينيـس كي لا يهجـر رومـا زوجتـه الشـرعية وأم أولاده التي لـم يعـد يحبها منذ زمـن طويل لكنهـا امرأة قويـة، شـجاعة، متفهّمة، وحينئـذ وحتـى لا يتغيّـر شـيء ولا يتقـوّض شـيء، تقـدّم تيطُـس نحوهـا قائـلاً: أعيديني إليك. ولأنهـا لا تحتمل أن يهجـر هكذا بيت عمرهمـا، أعادتـه إليها.

وفي ذلـك المسـاء الـذي تركهـا فيـه تيطُـس، لم تعد بيرينيـس تقوى عـلى الوقـوف. فـور وصولهـا إلى البيـت استلقت. ولكـن حتـى في اضطجاعهـا ذاك كانـت تشـعر أنهـا تـزداد طـولاً واضطرابـاً. كل شيء كان يـدور مـن حولهـا، وأحسّـت فجـأة بالغثيان لكنهـا لم تتقيـأ فعادت واستلقت، ليعاودهـا شـعور بالغثيـان أكثـر قـوّة، كان يصعـد مـن أعماقهـا الخفيـة، لا يظهـر عـادة ولا يصـل إلى السـطح. لم تكـن تعـرف أن المِـرارة هي الاسـم الآخـر للصفراء لكنهـا أدركـت أن أعمق نقطتين في الجسـد والـروح تسـكنان في المكان نفسـه. ولقـد شـكّل هجـران

تيطُس لها وصمة عار سوداء فوق جبينها. « **قبل الخطيئة، كان آدم ماسة، وبعدها أصبح قطعة فحم**»، كتب سان سيران[١]، شريك كورنيليوس جَنسين.

(١) سان سيران: كاهن كاثوليكي وعالم لاهوت أدخل مذهب الجنسينية إلى فرنسا.

٢

يقال إنه يلزم عام كامل للشفاء من آلام الحب، ويقال أيضاً الكثير من الأشياء تجعل الحقيقة تضمحلّ في النهاية.

«آلام الحب مثل المرض، لها علاقة بوظائف الأعضاء، وعلى الجسم أن يستعيد عافيته.»

«يوماً ما، لن تذكري سوى اللحظات الجميلة (أسخف شيء سمعته)».

«سوف تخرجين منها أكثر قوة.»

«تقولين إنك لن تحبّي مرة أخرى أبداً، ولكن سوف ترين.»

«تستعيد الحياة دائماً حقها في الحياة».

إلخ...

كانت تصلها تلك العبارات، فتغمرها وتهدهدها. وللحقيقة، كانت تحتاج إلى كل هذا الهذر في مرحلة نقاهتها، وإلى كل تلك الألسنة التي تدمدم حولها بما هو تعاطف وجداني وشمولي وعملي، كانت تشكّل بالنسبة إليها سريراً من ورق الشجر تُلقي عليه جسدها البائس. غير أنها كانت تتوق أحياناً إلى الصمت المطبق، إلى حلقة من المقرّبين تجلس في وسطهم كي ينظروا إليها ويسمعوها دون أن يتفوّهوا بأية كلمة.

ذات يوم سمعت وسط اعتراف أحدهم لها أو ربما ردّاً على شكواها يقول: «يا لحزني الذي ذهب أدراج الرياح!»

كان الصوت خفيضاً والنظرة شاردة والصدر ساكناً. كلام مؤثّر يحرّك الشجون، كلام غريب نسمعه يتردد كالموشّح. راح هذا الصوت يستدعي صوتاً آخر، والآخر يدعو غيره إلى ما لا نهاية. ثم ابتسمت.

ذاك المساء، عندما عادت إلى بيتها، بحثت عن كل مسرحيات راسين الموجودة في مكتبتها. أندروماك، فيدر، بيرينيس. كانت مُشتاقة إليه، كم مسرحية كتب؟ سوف تشتري المسرحيات الأخرى فوراً.

وجدت طريقة للعيش، حياة رتيبة تملؤها بالصوت والحركة. تعدّ فنجاناً من الشاي، تقرأ بصوت عالٍ لساعات. لم تكن تعرف بالضبط كيف تنطق أبيات شعر على الوزن الإسكندراني، لكنها كانت تعكف عليها، تتمتم مقاطع لفظية، تتردّد في كلمات الوصل. ومن كثرة التكرار كانت تتحسّن وترتاح أكثر فأكثر إذ تشعر أن الغرفة تميد بها وتُحمل بعيداً دون أن تتحرّك. عندما كان صوتها يتعب، كانت تعدّ فنجاناً آخر من الشاي وتشربه بجرعات صغيرة، تعود بعدها لتهمس أبيات الشعر؛ فهي أحوج ما تكون إلى أن تصطفق شفتاها باستمرار، تتحرّكا، حيث يتلامس الهواء والبدن. لم تكن عيناها كافيتين، كانت تحتاج أيضاً إلى فمها كي تتمتم.

تغيرت عبارات الهذر لديها. وراحت الأقوال المأثورة تتسلل بعد الآن بين أبيات شعر من اثنتي عشرة تفعيلة، تلك التي حفظتها في المدرسة أو في مكان آخر، أبيات من المسرح الفرنسي متكلّفة وبالية وغريبة، غريبة إلى حد أنها كانت تُثير لديها الرغبة في القيام برحلة وبلوغ تلك البلاد التي يتحدّث فيها الناس هكذا، وأحياناً أخرى تُثير فيها الرغبة في التهكّم، وتضحك منها ضحكات ساخرة، أو تلقيها وهي تغيّر في نبرات صوتها على نحو غليظ يشوّهها، مقاطع

معروفة، تخالف لفظها تماماً وتشوّهه، اللّهم إذا كان للغة مثلها وجود.

تبعاً للأيام كانت تستشهد بـ: أسيرة أنا، كئيبة دوماً، نفسي تضيق من نفسي / هل يُمكن أن يدوم الحقد ويستمر العقاب؟ أو / كل شيء يُضنيني ويُؤذيني ويكون عوناً على إيذائي. أو أيضاً: أهيم على وجهي في قيسارية[١]. كانت تعثر دائمًا على بيت شعر يلائم أحوال مزاجها، الغضب والضياع والخبل... تقول كي تخفف من أثر صرامة تلك الاقتباسات التي كانت تستشهد بها: «راسين سوق كبرى لأحزان الحب».

لم يكتب راسين سوى اثنتي عشرة مسرحية مقارنة بكورنيّ الذي كتب ثلاثاً وثلاثين، وموليير الذي كتب ثلاثين. في ذلك العصر، حتى الشعراء الصغار كانوا وافري الإنتاج. لم يكتب راسين مسرحيتيه الأخيرتين إلا بناء على الطلب، ولولا ذلك لكان توقّف عند المسرحية العاشرة. بدأت التساؤلات. لماذا كان مقلًّا في الكتابة؟ ماذا فعل في بقية سنيّ حياته؟ قال عنه رامبو: النقي، القوي، العظيم.

بفضل راسين استغنت عن أصدقائها موضع سرّها. على كل حال، هل هناك حقاً شخص قادر على تلقّي خيط الماء الفاتر هذا الذي يُدعى الحزن اليومي؟ أقرباؤها تعبوا منها. حتى هي نفسها في الماضي عندما كانت تُصغي إلى شكوى الآخرين لم يكن بوسعها منع نفسها من التفكير أن حكاية الحزن مُضجرة مثل حكاية الحلم سواء بسواء، لا شيء يهمّك منها على الإطلاق. غير أن نسق مسرحيات التراجيديا كان يخيّب أملها: لم تكن الأربع والعشرون ساعة كافية لها،

---

(١) قيسارية: مدينة تاريخية في فلسطين تقع إلى الجنوب من حيفا.

لتزجّ بالشخصيات في حلبة الخيبة الأليمة. باستثناء «أندروماك». كان دأب راسين اتّخاذ نقطة انطلاق تقارب جداً نقطة الوصول بحيث ينحصر الحدث ضمن دائرة صغيرة كما يقول لانسون. راحت تنظر داخل هذه الدائرة الصغيرة التي يتصاعد منها صخب عبارات الإسهاب واللعنات، فتشعر في داخلها كأنها في بيتها؛ صحيح أنها كانت تردّد أبيات شعر كل البطلات التعيسات، إلا أنها لم تكن ترى فيهن صنوات لها.

أسرّ إليها أحد الأصدقاء الممثلين أنّ هذه اللغة لا تمتّ بصلة إلى لغة الكتّاب الكلاسيكيين الآخرين، وهي لغة فريدة لا يعرف تفسيراً لها، لكن جميع الممثلين يشعرون بذلك: هل هذا سببه الموسيقى؟ نعم، ولكنه ليس السبب الوحيد فحسب.

كلما كانت تذكر راسين تتحول فجأة عاشقة لفرنسا، تحفظ إرثها الأدبيّ، تُنشده، تُلقيه في سريرها مساء وهي تبكي، في الليل، في النهار، منذ الفجر، مع آلاف النساء الفرنسيات اللواتي يمكنهن ممارسة الشيء نفسه على غرارها. إنها جوقة عظيمة جداً في وسعها إنشاد حتى الأبيات الخاصة بالرجال، من شعر أنتيوخُس وبيروس وإيبوليت، تبدو لها دائماً وكأنها قيلت من امرأة لأخرى. النهار ليس أكثر صفاء من أعماق قلبي.

كانت تضمّن نصوصها بعضاً من الأبيات، وأسماء أماكن مهيبة وجهة مواعيدها: قيسارية، أوليس[1]، تريزين، على نحو يُذهل بعض محدّثيها، يجعل بعضهم يتابعها مضيفاً مقاطع شعرية كاملة تشعرها بالتقارب وبالبعد في الوقت نفسه. خامرتها الريبة عندئذٍ،

---

(١) أوليس: مدينة يونانية قديمة.

اشمأزت من الإفراط في المسرح ومن طريقة البعض في الاستعراض والتباهي بمعرفته الواسعة لقدرته على حفظ ديوان شعر برمته عن ظهر قلب. يمكن لراسين أن يثير الغرور أيضاً.

أو كانت تطرح أسئلة صعبة. تُرى هل سأعيش الوقت الكافي كي أنساه؟ كانت تُسأل أين قرأت هذا البيت؟ يُلاحظ أنه ليس على الوزن الإسكندراني، فتبدأ عندئذ بالعدّ على أصابعها قائلة إنها تعدّ خطأ، ولا شك أنها نسيت منه مقطعاً مؤكدة أنه بيت شعر لراسين، في حين أنه في الواقع، قول لأورسن ويلز[1] يخاطب به ريتا هيوارث[2] جمعته في مفكرتها الجديدة. على مرّ الأيام، كانت قد جمعت مقتطفات من اللغة التي تُريد أن تتحدّث فيها عن حزنها، لغة تكلمها من سبقها وتريد أن تضمّ صوتها إليهم. كان يُمكنها تكرار لغة دوراس[3]، عبارات باردة كالصقيع عن نساء مطعونات غاضبات، ولغة أمكنة أخرى للمأساة، هيروشيما أو كالكوتا، لكن لم يصل بها الحال إلى هناك. دوراس امرأة من القرن العشرين، رابطة الجأش، مُتماسكة، نظيرتها ظاهرياً. لن تعينها دوراس بشيء.

هذه ليست أواراً في عروقي الخفية/ هذه ڤينوس بكليتها تتمسّك بمفترِسها. أياماً وأياماً راحت تدور حول هذين البيتين كما يحوم النسر فوق الحقل. انتهى الأمر بالطير الجارح أن ذاب في البيتين الشعريين مع احتمال أن يكون قد فهمهما. كانت تريد أن تفهم من أين يأتي كل هذا الغضب وهذه الرغبة المتوحّشة. كان يُردّ عليها

---

(١) أورسن ويلز: فنان أميركي ممثل ومخرج.

(٢) ريتا هيوارث: ممثلة وراقصة أميركية.

(٣) مارغريت دوراس: كاتبة فرنسية (١٩١٤-١٩٩٦).

بأبيات إغريقية، وأخرى لاتينية، وغيرها من الزمن الغابر، الكل كان يكتب هكذا. «لا، ليس بهذه الفرادة»، كانت تقول.

لا يذهب بك الخيال بأشياء عن راسين! كانوا يحذرونها عندما تتساءل عن حقيقة هذا الرجل الذي عرف تماماً وصف عشق النساء. لا شيء، لم تتخيل شيئاً ما عدا أنه كان لديه كل شيء كي لا يختلق بيرينيس، لكنه اختلقها. ولكن من هي بيرينيس؟ لن يصل بك الحال إلى الظن أنك هي؟ احمرّت خجلة، واكتفت بالاعتراف أنها تريد فقط أن تجعل من راسين شقيقاً لآلامها، وأن ذلك سوف يساعدها. كانوا يبتسمون ويتعجبون. انطلقت بشعارها: «كل ما يمكن أن يخفف الحزن يحسن تعلمه». وافقوا على كلامها وشجعوها.

أحصت الصفات التي حصلت عليها من أبحاثها الأولى: راسين جنسينيّ، من حاشية الملك، شاعر مأسوي، أكاديمي، مؤرّخ عصره، برجوازي، طموح، مُحب للملذّات، مسيحي، مغضوب عليه.

ثم حاولت تلخيص حبكات مسرحياته: فيدر تُحب إيبوليت الذي يُحب آريسي. أوريست يُحب إيرميون التي تُحب يبروس الذي بدوره يُحب أندروماك التي تُحب هيكتور. نيرون يُحب جوني التي تُحب بريتانيكوس. روكسان تُحب بيازيد الذي يُحب أتاليد. كان يحدث لها أن تُخطئ وتخلط أدوار البطولة وتحتار. أنتيوخُس يُحبّ بيرينيس التي تُحبّ تيطُس الذي يُحب... انتهى بها المطاف أن وضعت اسم روما، وبيدها إحساس بالموت الحتمي الغامض، يد تتلمّس في العتمة، لا تبلغ شيئاً ولا تُمسك بشيء.

لا يُمكن لـ(س) أن يُحبّ (ع) وتُحبّه بدورها بتاتاً. هذه الضراوة في عدائها للمبادلة كانت ترضيها بضعة أيام وكأن راسين نادى بأن العكس مستحيل وغير منسجم مع الطبيعة البشرية. اتخذت مأساتها

موقعها في موكب عمره آلاف السنين عندما جعلت سعادتها منها استثناء، وحشاً: بيرينيس تحب تيطُس الذي يحب بيرينيس.

انتبهي، توقّفي، لا تقتربي من راسين. تم تحذيرها بجدّية. سوف تحصدين الفشل الذريع. لن تنال يداك الصغيرتان المسكينتان هذا «التمثال» أبداً. راسين ليس ملكاً لك، إنه فرنسا. لكنها كانت تُريد لمسه، وضع يدها عليه فحسب. إنه تحدٍ مِلؤه الشجن. إنه رهان: إذا ما فهمت كيف تمكّن هذا البرجوازي الآتي من الريف أن يكتب أبياتاً تفتت القلب إلى هذا الحد عن عشق النساء، سوف تفهم حينذاك لماذا تركها تيطُس. هذا عبثي وغير منطقي لكنها كانت ترى في راسين الموضع الذي تقارب فيه الذكورة أقرب ما يمكن من الأنوثة، صخرة جبل طارق تصل بين الجنسين. لكنها لا تعترف بذلك. رسمياً، تريد أن تُغادر زمنها، وعصرها وتبني لحزنها موضوعاً بديلاً، وتنحت شكلاً من خلال ستارة دموعها، لذا قررت البدء مع البداية. لنتوقّف برهة، قالت لنفسها.

٣

على مسافة عشرين كيلومتراً من قصر ڤرساي ثمة وادٍ صغير حفرت في أرضه مائة درجة تصل حتى أدنى نقطة فيه، حيث يقع دير «بور رويال». عند دعائمه الخارجية كان هناك قديماً مستودع للغلال ومزرعة وشجيرات صغيرة من الشمشاد وحديقة وأشجار ضخمة. كان هدوء الوادي وتقشّف المكان يمنح القاطنين فيه شعوراً بالعزلة الشافية وكأنهم في ملجأ آمن، قبالة المظهر الأبهى الذي تمخّضت عنه العصور الفرنسية على الإطلاق. أصبح لديها الآن فرضية. تتعلق حياة راسين كلها بالشعور بالتنازع الذي كان يستثيره في داخله تقابل مكانين: القصر وبورروبال.

٤

أُخليت المباني. غادرت الراهبات الدير للإقامة في باريس هرباً من الرطوبة وآثارها الضارّة في صحتهن. كان جان بين الحين والآخر يهرب من المدرسة، ينزل درجات السلم بسرعة منحدراً نحو الوادي، ثم يتسلق السياج قاصداً «صومعته». دائرة من المقاعد مختبئة تحت الأشجار، كان يتخيّل فيها المشاهد والحوارات. كان ذهنه أحياناً يلتقط أصوات الفتيات الصغيرات، يصحن ويقهقهن ملء أشداقهن ظناً منهن أنهن أفلتن من رقابة رئيساتهن. ولكن، ألا يرى الله كل شيء؟ عندما كان يأتي ليلقي قصيدة غنائية ألّفها باللاتينية، تغدو الأشجار رجالاً، تنظر إليه بإعجاب، وتتحول أوراقها إلى أياد تصفق له لتهنئته فتصعد الدموع إلى مقلتيه. وحين كان جرس الدير يدقّ، كان يهرع نحو السياج، يلصق ظهره بأحد الأعمدة الباردة فيهدأ روعه.

عنما كان يعاود الصعود، يخيّل إليه أنهن في الأسفل، وراء ظهره، تخفّ أثوابهن بالحجارة وتدوّي صلواتهن في البعيد. أحياناً كان يعاود النزول بسرعة يلاحظ صمتاً مطبقاً فيغمره شعور بالخيبة بداية ثم يغمض عينيه ويصغي إلى الصمت كمن يتنفس هواء نقياً، وترتسم ابتسامة على شفتيه.

ماتت أمه عندما كان صغيراً جداً، قبيل بلوغه السنتين. ومات أبوه بعدها بقليل. لكن جان لا يذكر عنهما شيئاً. جلّ ما يذكره،

نساء دير لافيرتـه[١] الكثيرات. هـذا الحضن الـذي استقبله واعتنى بـه، وكان يضـع بـين الحـين والحـين نفحـة دافئة على خـدّه. مـن بينهن خالتـه الصغيرة التـي كانـت تطلـب منـه أحيانـاً أن يقـترب ويضـع رأسـه على كتفهـا. كان يحـسّ آنذاك باختلاط شـعرها بشـعره وتصبح اهتـزازات صوتهـا مثل هالـة، عشّ من الأصوات يستطيع أن يتسـلل إليـه دون أن يكـون عليـه واجـب الـكلام فهـي هنـاك تستطيع قـول كل مـا يحتـاج إليـه، كل مـا يريـده، حتـى ذلـك اليـوم الـذي طأطأت فيـه حزينـة. بقيـت صامتـة لكنـه قرأ عـلى شـفتيها أنها راحلة وسـوف تتركـه. ضمّتـه إلى صدرهـا بقـوة أكثـر مـن المـرّات السـابقة، وقفـت ثـم ابتعـدت. ظـنّ في العتمـة أنـه شـاهد شـفتيها تستعيدان حركتهـا الخرسـاء وتُشـكّلان المقطعـين اللفظيين شبه التوأمين لكلمـة «كآبة»، ولكـن كان يُمكنهـا قـول شيء آخر أيضاً. سـوف يسـألها عندمـا يراها ثانيـة، ذلـك لأنهـا مثل أفـراد آخريـن مـن العائلة قبلهـا، جدّتـه، أبناء عمومتـه، تركتـه هـي أيضـاً للمجـيء إلى هنا، إلى بـور رويال ديشـان. ومثلـه هو أيضـاً بعد بضع سـنوات لاحقـة لأن تعليم الشـبان فيه كان ممتـازاً، ذائـع الصيت.

خـاب أملـه عنـد وصولـه وعلمـه أنهـا لم تكـن هنـاك، كانت قد أُرسـلت مـع بقيّـة الراهبـات إلى باريـس، الفـترة اللازمـة لتجفيـف حجراتهـن. لكنهـا سـوف تعـود ويلتقيـان في قلـب الـوادي الصغير، بيتهـا الجديـد. ربـا كان بوسـعه القـول إنـه يقـضي معظـم أيامـه بانتظارهـا لكنـه لم يعد يشـعر بـأي ألم أو فقـدان صبر منذ أن اكتشـف علـم النحو.

---

(١) دير لافيرتيه: يقع في محافظة جورا في فرنسا، منطقة بورغونيّ، كان من أهم الأديرة في القرن الثامن عشر.

أطلـق البشر أسـماء عَلَـم على كل ما يناسـب الأفـكار الفريدة، مثل اسـم سـقراط المناسـب لأحـد الفلاسـفة الـذي يُدعـى سـقراط، اسـم باريـس المناسـب لمدينـة باريـس. وأطلقوا أسـماء عامة أو أسـماء خاصة عـلى الأجنـاس تلـك التـي تعنـي الأفـكار العامـة، كاسـم الإنسـان، المناسـب لـكل البشر عمومـاً، ومثله اسـم الأسـد والكلـب والحصان، قال لانسـلو.

كان جـان يصغـي إلى الـدرس كـشرح هـادئ وبسـيط للعـالم. يـدوّن كل شيء. كان يحب الشـعور بالاحـترام المطلق الـذي توقظه فيه القواعـد. هـذه القواعد تفصـل وتنظّم وتسـمّي. صوت المعلّـم في غاية الرقـة والعطـف، كان علـم النحـو بالنسبة إليـه مثـل عهد بالحـب أكثر عذوبـة وغنـى مـن كل المواعظ.

كان جـان في العـاشرة مـن عمـره حين شـاهد أول خريف لـه في دير «بـور رويـال ديشـان». كان ينظـر مطـولاً إلى الـتراب البنّـي يلمع وسـط الخطـوط الخـضراء. لم يكن قد شـاهد الأرض المحروثة عن كثب. يسـطع الـتراب إلى حـد الاحمـرار تقريبـاً. مـا أروع التناغم بين الأحمـر والأخضر. مشـهد يجـدر برسـام رسـمه، هكـذا خيّـل إليـه هـو الـذي لا يعـرف عن الرسـم سـوى بعض الوجوه الصارمة المرسـومة التي تزيّن قاعـة الطعام. ثمـة شـخص يقـدّر أهمّيـة هـذا الانسـجام في الألـوان، كان يحدّثـه عـن الديناميـة[1] العضويـة للـتراب والبذار ونموهـا وحياة البـشر في الطبيعة. علّمـه هامـون أن للدم أحياناً المظهر الكثيف نفسـه وأنه يغيّر لونه حسـب الموضع الذي نبحث عنه في الجسم.

---

(١) الدينامية: نظرية تفسير الكون بلغة القوى وتفاعلها.

لو كنت رساماً -تجرأ جان وقال- لرسمت هذا التناقض، ولكنت أرسم التراب باللون الأحمر.

الدم أحمر، الأراضي المحروثة بنيّة اللون، أجاب هامون، لا يصحّ تغيير الإدراك الحسّي العام للألوان الذي وهبه الله للبشر، وإلا سيكون هذا مصدر فوضى.

وافقه جان وفكّر كم هذا مُحزن، لو كان رساماً لخاطر برسم الأراضي المحروثة بلون الدم.

كان هامون قد تجاوز الثلاثين، هو طبيب لكنه كان في انتظار صدور التوكيل للشروع في الخدمة في بستان الدير. اسمه جان أيضاً ولكن لم يكن أيّ منهما يدعو الآخر باسمه. كانت اللياقة تقتضي استبدال الاسم الخاص باسم عام، «سيدي». كان جان يودّ أن يكون الأمر غير ذلك، أن يتوجّه إليه ناطقاً باسمه، يتحدّث إليه كمن يتحدّث إلى صورته المنعكسة، أن يرى نفسه، يفهم نفسه من خلالها، يجري هذا الحديث في مرآة. جان، لماذا؟ جان، اسمعني... وسط الأسئلة والاختلافات في الرأي سيكون هناك في كل مرة إشارة موافقة وانسجام.

كلما وجد سبيلاً، كان يذهب للقاء هامون فيراه جاثياً على ركبتيه فوق التراب، فيجثو إلى جانبه. كان يعلم أنه لا يجدر به القيام بذلك، وأن هذه الوضعية الخاصة بالصلاة وأن بإمكانه الاكتفاء بالقرفصة دون أن يلوّث جواربه وبنطاله القصير، لكنه في المساء عندما كان يبدّل ملابسه، كان يحب أن يرى بين ثناياها حبات التراب البنّي التي تشكّلت والتي ما تزال رطبة. كان المعلّم في المهجع يوبّخه أحياناً ويطلب منه أن يلتقط حبات التراب. كان جان يجثو على ركبتيه فوق البلاط الحجري البارد ويعيد ببطء التقاط حبات التراب الجافة ويضعها خفية داخل

كـوب صغـير تحـت سريره ظنـاً منه أنه سـوف يمتلـئ ذات يـوم بما يكفي لنمـو شيء فيه.

لاحقاً كان يستلقي في العتمة، فيما تستحضر ذاكرته الألوان: كثيفة، برّاقـة، الأحمـر والأخـضر يتجاوران، مثـل ختمين. يفكّر جان أن الأشـياء التـي لهـا معنى تترسـخ وترتبـط بعضها ببعض عـلى هذا النحـو. متحاذية ومترافقـة. كان يـودّ لو يستطيع الـكلام بمثل هـذه القوة، ويطـرح كلماته كما توضـع الألـوان قبـل مزجهـا. ذلـك لأن الكلمات شـبيهة بالـتراب، تجـفّ حـين تُقلّـب كثيراً، تفقـد من معناهـا ومـن قوّتها، تحتـاج دائـماً إلى المزيـد مـن الكلـمات فيـما بينهـا كـي تعطـي معناها. تسـاءل كيـف يمكن أن تكـون الكلـمات الرطبة، ثـم تعب من فـرط اضطراب خواطـره، فخبّأ هـذا السـؤال في زاويـة من ذهنـه وغفا.



٥

كانت الأيام متشابهة على نحو كان يروقه. عند الساعة الخامسة صباحاً هي ساعة الاستيقاظ في المهجع. يكون جان والستة الآخرون غارقين في أحلام تُقفل على نفسها عند أشعة الفجر الأولى، أحلام فيها تكوّرات أنثوية، أذرع ناعمة، دفء البيت، دوي صوت الله القوي أو لهيب نيران جهنم. لكن الصبيان كانوا يذعنون صاغرين دون تلكؤ، بعضهم يهوّم قليلاً، ثم ينهضون، يمشّطون شعورهم، يرتدون ملابسهم لمراجعة درس الأمس، يمرّ كل تلميذ بدوره ويعيد استظهار جزء منه. في النهاية، يجمع المعلّم الأجزاء ويُعيد قراءة الدرس بأكمله، حريصاً على تقدير مساهمة كل واحد منهم وقيمتها، مذكّراً أن الجهد الفردي يصب في مصلحة العمل المشترك.

عند الساعة السابعة، يُعاد استظهار الدرس الجديد عند طاولة المعلّم، ثم يتناولون الفطور في الغرفة بصمت. كانوا يتبادلون النظرات، يشربون ويمضغون ببطء، يستريحون قبل أن ينقضّوا على الوليمة الكبرى: الترجمة إلى اللاتينية وموعدها في التاسعة من صباح كل يوم. يختار المعلم في أغلب الأحيان «أوفيد»[١] و«فيرجيل»[٢]

(١) أوفيد: (٤٣ق.م-١٨م) شاعر لاتيني عاش في أول تأسيس الإمبراطورية الرومانية. أهم مؤلفاته: (فن العشق).

(٢) فيرجيل: ٧٠ سنة قبل الميلاد. شاعر لاتيني في بداية حكم الإمبراطور أغسطينوس.

مؤلّفين لم يعرفا الله. صُعق جان على الفور بصور ڤيرجيل، صور غير متوقّعة، بسيطة، متواضعة بقدر ما هي آسرة، وصفه أحد الأولاد ذات مرة بأنه قليل الحياء، علّق المعلم قائلاً: إن الكثير من الكتاب قبل المسيح كانوا قليلي الحياء، لكن ذلك لم يمنع من أن يكونوا عظماء. استطرد قائلاً على الفور: morte futura «pallida» راود جان شعور خاص مثل ذاك الذي أحسّ به أمام الأحمر والأخضر. تعرض الفرنسية مفاصلها كما يكشّر الكلب عن أنيابه، تُظهر متباهية هيكلاً متشابك العظام بينما تُخفي اللاتينية روابطها. وفي هذا الإطار يندفع المعنى ويفوح مثل روائح منبعثة من الأرض الرطبة.

- «شاحباً بسبب الموت الذي يقترب»، قال أحد التلاميذ.
- لا، قال المعلّم.
- «شاحباً من موت وشيك»، قال جان.
- ولكن هذا لا معنى له! لا يصبح المرء شاحباً من شيء ما!
- هذا صحيح، ولكن ترجمة جان تبدو لي صحيحة أكثر.

رمقه رفاقه بنظراتهم، لكنه كان قد انطلق في الترجمة التالية، عجّل، أثار حماسة الصف.

بعد درس الترجمة تعب الأولاد، أصاب جان صداع ودوار خفيف، على الرغم من أن الأستاذ يعرف بأنهم أولاد إلا أنه كان يكره رؤية نظراتهم التائهة تنتقل من غرض إلى آخر ومنفصلة عن فكرهم.

- شيء أخير، قال بصوت عالٍ: لاحظوا الموضع الإعرابي للمفعول غير الصريح، لماذا هو في هذا المكان؟

لم يكن لدى أحد المقدرة على الردّ عليه. كان جان يبحث عن الجواب والمعلّم لا يتعب، يمكنه أن يترجم لساعات، أعطاه جان الجواب الذي يريد سماعه. فارتاح المعلّم.

- ممتاز جان، انتهت الحصّة.

كان الغـداء في قاعـة الطعـام. يتقـدّم أولاد كل مهجـع بصمـت. تتبـع المواكـب الصغيرة المعلّـم حتى الطاولة ويجلسـون بعـده، يتبادلون بعـض النظـرات، ويسـترخون وهم يصغـون بشرود إلى ترتيـل الآيات. أخيراً كانـت تسـترخي الأفـكار، تهدهدهـا التراتيـل، تتكاسـل حتـى سـاعة الاسـتراحة. كانت ترتسـم أثناء الاسـتراحة ابتسـامات سـاذجة عـلى بعـض الوجـوه، ابتسـامات تُغيـظ جـان. كان يرغـب في الهـروب ولكـن كان عليـه أن يكبـح نفـاد صبره، وألا يُظهـر تلـك الرغبـة في التحـرّك التـي تتملـك سـاقيه وتستعجلهما الذهـاب لملاقـاة الطبيـب البستاني.

يتكلـم جـان مـع هامـون دون أن ينظر أحدهمـا إلى الآخـر. يجثوان عـلى الأرض عـلى مسـافة بضعة سـنتمترات بينهـما، كان جـان يفكر أنه لـو فقـد توازنه فسـوف يقـع عـلى الطبيـب جنبـاً إلى جنب، وقـد يحتاج إلى بضـع ثـوان ليعـود ويسـتوي عـلى قدميـه. عـلى الرغم مـن حركاتهما المتوازيـة إلا أنهـما في أعماقهـما كانـا يلتحـمان ويلتقيان في نقطـة أكيدة.

كانـا يتحدثـان عـن أشـياء غـير مرئيـة ومؤكّـدة، مثـل الـدورة الدمويـة. كان جـان يحـب هـذه الازدواجيـة، يمنـح ذاتـه لشـيئين في الوقـت نفسـه، أو الأحرى يفصـل بين الأشـياء والكلمات، تلـك المرئية وتلـك المنطوقـة. يـداه في الأرض السـمراء، عينـاه محدقتـان إلى الجذور والأوراق والعشـب الأخضر وذهنه مُسـتغرق تماماً في لـون أحمر عميق.

كانـا يصنعـان عـشّ كلماتهـما خفيـة وبمنأى عـن الآخريـن. عندما كان يقـترب أحدهـم، يصمـت الطبيـب. لم يكـن يحـقّ لـه أن يحـدّث جـان عـن هـذه الأمـور. كان جـان مذهـولاً مـن قـوة تنظيـم الأشـياء

التي يشرحها له هامون. وكان ينجح في التعبير عن تعجّبه حتى من دون رفع صوته، هذا نوع من التناقض يتعلّمه المرء هنا، الحماسة والانضباط، إنه تناقض نسبيّ تماماً، ذلك لأن الإيمان يمكّن دائماً من تخفيف الدهشة.

- ما من داعٍ للدهشة، لهذا الكمال سبب وحيد: إرادة الله، يقول هامون.

كان جان إزاء هامون الواسع المعرفة يشعر أن جسده بات شفّافاً كالزجاج، من دون غشاوة وأسرار. كانت هذه الشفافية تبلبله، تُثير لديه الرغبة في مضاعفة طبقات ملابسه، لكنه مهما فعل سوف ينكشف دائماً ما يجول في خلده أمام ناظري هامون. لكن مصدر طمأنينة جان يكمن في التفكير في أن لديه روحاً بوسعه الاحتجاب خلفها على غرار ستارة ثخينة. كان يقول لنفسه: أن أضع روحي داخل الله، فهذا أنبل معطف يُمكن أن أمتلكه.

في البستان كان هناك أزهار قليلة والكثير من شجر الشمشاد، وأكثرها هائل الحجم.

في الجهة الأخرى، غابات شجر بلوط قُطعت كي تُستخدم في دار صناعة السفن الحربية الملكية، كان هامون يقول: لنصلِّ كي لا يأتي الملك ويُعرّي حديقتنا.

كان يعرف كل أنواع عجائب الخلق هذه بأسمائها: أشجار الدردار والحور الرجراج. يذكر بالتفصيل الفروق بينها، يشرح خصائصها وأصول أسمائها. كان بوسع جان الإصغاء إليه لساعات. كان يقول له: «للشجرة الدردار وشجرة البتولا الجذر نفسه»، أو: «صُنعت عارضة صليب المسيح من خشب الزان»، أو: «الحور

الرجراج أخذ اسمه من أوراقه التي ترتعش عند أقل نسمة».

- وهل هذا كل شيء؟ يقول جان متعجّباً.
- نعم، الشجرة أقل أهمية من الاسم الذي تحمله.
- هكذا أفضل، فكّر جان وقد طمأنته الفكرة أن الأسماء يمكن أن تكون أعظم من الأشياء.

عندما كان يعبر الحديقة وحيداً، كان يرى الأشجار كأنها حرّاس ترقب بصمت، غابة من الأذرع النحيلة يلتجئ إليها ويحتمي تحتها حين تسفع الشمس أو يهطل المطر بقوّة. كان أحياناً يهمس إليها بالكلمات التي كان يكتبها بالخفاء إلى خالته، إلى أن يأمره أحد الأساتذة بالانضمام إلى المجموعة. غدت أسماء الأشجار مألوفة لديه بحيث كان يحوّلها إلى أسماء علم، شأنها شأن أسماء رفاقه حتى أثناء حصّة القواعد.

- ينحني حور الرجراج تحت سياط ريح الشمال، يقول.
- لا! إذا أردت استخدام الحور أو الدردار أو الزان، هذه أسماء جنس، يقاطع المعلّم! والفرنسية تفرض أن يسبق اسم الجنس أداة تعريف دائماً.
- ليكن، يوافق جان، لكن الأمر منوط بي فقط أستطيع إزالتها وتسمية الكلب «ديراً» أو «عربة».
- لا بالتأكيد! هناك أسماء أخرى تصلح لذلك، صاح الأستاذ مُعنّفاً.

على الرغم من تبرّم الأستاذ، كانت تلحق بجان ملاحظات سخيفة أخرى باستمرار. حين يكون الدرس عن استخدام المفرد والجمع، يظلّ جان صامتاً، كان يتخيّل استعمالات ثالثة، أسماء جمع

بعيـدة عن الواقع تشـوّش نظره للحظـة. لكن المعلّـم، دون أن يحتاج إلى قـول كلمـة واحـدة كان يُعيـده إلى النظام:

- لقواعد اللغة استخدامات عليك أن تتقيّد بها بشدّة.

- بالتأكيـد يـا سـيدي، يجيـب جـان الـذي كان يحـب الشـعور بأنـه مشـدود بحـزام، ويحسّ في جسـده وفمـه بقـوة الأوثاق المفروضـة عليـه.

لكـن هـذا لم يشـكّل عائقـاً. كان الحزام يتراخـى قليلاً أيضـاً عندما تبـدأ حصّـة الشـعر. كان جـان يقـرأ رافعـاً صـدره، فاتحـاً رئتيـه، يلقي الشـعر كـما يتنفّـس، يتّسـع الفضـاء أمامه ويغـدو للهـواء رائحـة الغابة النفّـاذة. لم يكـن المعلّـم يجـرؤ على القـول: إن قـراءات جـان مُختلفة عن الآخريـن، لكنـه حـين كان يُصغي إليه يشـعر كأن رياحاً مـن الزغب قد خطفته.

٦

ذات صباح تحدّث لانسلو عن تشريح النصوص، لم يُردف قائلاً: «كما تُشرّح الأجساد»، لكن هذا ما يفهمه جان بالتأكيد.

- المدارس الأخرى لا تولي أهمية لذلك، لكنك إذا كنت هنا فلهذا السبب أيضاً: أن تكتب وتعيد الكتابة وتفصّل.

في ذلك اليوم سارع جان إلى الطبيب ووضع الكلمة أمامه.

- قلّ لي يا سيدي.

ردّ عليه: إن التحليل الدقيق هو إجراء يعود بالفائدة. لكنه كان يرى من الغرابة بعض الشيء تعليم كل هذا الكمّ من الشعر للسادة الصغار الذين تجدر تنشئتهم بشكل حصري على حب الله والإحسان.

- غير أن بعض القصائد ممنوعة علينا، أردف جان.

- لحسن الحظ، إذا كانت ممنوعة فهذا لخيركم، أجاب هامون، حين نقرأ كتب البشر نمتلئ برذائلهم دون أن نشعر.

- أنت تعلّمني الكثير من الأشياء غير المسموح بها، تجرّأ جان وقال.

- لا شيء يُمكن أن يمسّ عظمة الله.

حين كان يُلقي الشعر فقط، وعند منعطفات الأبيات الشعرية، كانت تهبّ رياح قوية، عصفة ترفعه إلى ما وراء الحديقة، إلى سماء

أخرى غير سماء الله. كان يتكمّش بالكلمات ويتشبّث بها وبلحنها. ويعود مجدداً إلى المقاعد تلميذاً بين رفقائه، لكن ليس لوقت طويل البتة، إذ كان الوحيد الذي يجرؤ على سؤال الأستاذ عن عناوين الكتب الممنوعة عنهم.

- النشيد الرابع من الإنيادة[1] غير مناسبة للأولاد المسيحيين، قال لانسلو.
- مع ذلك، يبدو لي أننا درسنا منها مقطعاً في ذلك اليوم، قال جان متعجّباً.
- هذا صحيح، لأن في هذا النشيد بعض الصور المثالية عن العبقرية اللاتينية كما رأيت، لكن هذا لن يتكرر. فضلاً عن ذلك، سوف تُعيد لي كل الكتب منذ صباح الغد.

في الليلة التالية لم يجد جان للنوم سبيلاً، كانت تدور في المهجع برمّته أنفاس هادئة على عكس أنفاسه المتقطّعة. دون أن يُحدث أي صوت، أشعل شمعة والتقط الكتاب، لو عرف بأنه ممنوع لفتحه في وقت أبكر. كانت يداه ترتجفان. توقّع أشياء رهيبة، لكن لا شيء فيه باستثناء شكوى الملكة ديدون التي تنساب كعسل كثيف. وقعت عيناه فيه مثل حشرتين علقتا في فخ ولم تلتقطا شيئاً. عاد وأغلق الكتاب خائباً، أطفأ الشمعة مستلذاً على نحو غامض التفكير أنه أخرج من تحت سريره نوعاً من الوحوش.

أهدى هامون له مجموعة «حيوات متوازية» لبلوتارك[2].

---

(١) الإنيادة: ملحمة شعرية لكبير شعراء الأدب اللاتيني يوليوس ڤيرجيل.

(٢) بلوتارك (٤٦م-١٢٥م) فيلسوف وكاتب سيرة ومفكر كبير، باحث في علم الأخلاق من روما القديمة، أصله إغريقي.

جاءت هذه الهدية لتعزز تواطؤهما. في البداية كان جان يقرأ ويقلّب الصفحات دون أن يجرؤ على ثني الورقة بين أصابعه، ثم انتهى به المطاف وأحسّ به كأنه بيته، وبأحقيّة وضع يديه وكلماته عليه هو أيضاً. بخطّه الطفولي الكبير، لم يخشَ وضع تعليقاته المتديّنة على هوامش النص غير المسيحي: «نعمة»، «العناية الإلهية»، «ما من إنسان كامل»، على المبدأ القائل: ما يهمّ في كل الكتابة، الطريقة التي تُقرأ بها. يوماً بعد يوم كان يتجرأ على فتح النص أكثر قليلاً، ينبش فيه، ينتزع الجمل كمن يُقشّرها. امتلأت الصفحات بالشروحات. كان شديد الفخر به إلى حد أنه حمل الكتاب بعد ظهر أحد الأيام إلى الحديقة وأراه لهامون.

- كل إنسان يصنع ندوبه الخاصة به، قال ذاك الأخير.

ارتبك جان: كان ينتظر من هامون جملاً بسيطة وواضحة، لكنه كان يرشقه أحياناً بأقوال شديدة الغموض. مع ذلك، في الأيام التالية كلما زاد من تعليقاته على بلوتارك، لاح له أنه كان يفهمه أكثر. ماذا كان يفعل غير فتق النص وإعادة رتق ثناياه؟ إذا كانت القراءة تشريحاً فلا يُمكن أن يكون التعليق سوى ندبة.

بعد أسبوعين وذات صباح، جاءت زمر من الشبان وراحت ترمي الحجارة على تلاميذ الوادي متّهمة إياهم بدعم ملك فرنسا. تدفّقوا من كل حدب وصوب، ولم يتمكّن الأساتذة من أن يتدخلوا. لأول مرة كان جان يشعر بالغضب يجتاح ساقيه وذراعيه. على الرغم من أن الحركات التي قام بها في حياته حتى ذلك الحين كانت محمومة وموتورة أحياناً، إلا أنها لم تكن مسعورة إلى هذا الحد، تحرّكها قوة كهذه، صحيح أنه خاف لكنه لم يكره هذا الإحساس بالقوة.

بعد ساعات قليلة رحل شبّان الحجارة، كان جان قد جُرح في جبينه، لم تتألم روحه في تلك اللحظة إنما جسده، على الرغم من الألم، كان مسروراً لأنه أيقن أن الروح والجسد قادران على أن يحطّما الانطباق الصارم الذي يجمعهما، لكنه كان يشهد على هذا الجسد الذي يثور فجأة دون أن يعرف ماذا يفعل أو ماذا يفكّر. نظّف هامون جرحه، كانت يده لطيفة فوق عيني جان، بصوته الهادئ كان يشرح له ماذا يفعل والمحاليل التي يستخدمها، يردّد قائلاً: إن كل جسم يصنع ندوبه الخاصة به. كأن جان أمام خيار من الأحجار الكريمة، راقه أن يتخيّل ندبته صغيرة وذات بريق صدفي.

- هل أنا على صواب ؟ سأل جان.
- من المُبكر جداً قول ذلك، أجاب هامون، ولكن مهما كان مظهرها سوف تظل علامة على وفائك لملك فرنسا.

لدى سماعه هذه الكلمات تشنّج جسده وانكمش. أليس هناك ندوب الجسد من جهة وندوب الروح من جهة أخرى، قال لنفسه. كل ندبة في الجسم هي ندبة في الروح. ولأنه كان يحب الملك حباً جمّاً، والملك هو الله على الأرض، كان يريد أن يخدم مجده بطريقة أو بأخرى، سوف تلمع ندبته فوق جبينه مثل حسن الطالع أحداث المستقبل كفيلة بأن ترسم من حولها تاجاً. ابتسم عندئذ لامبالياً بألمه. ولكن لماذا كان بعض الشبان يصيحون أثناء الشجار باستنكار اسم هامون؟ أما كانوا يقولون إنه من خاصتهم وهو لا يدافع عن الملك؟ لا بل سمع أحدهم يقول إن رئيس الأساقفة أرسل حرساً لمراقبته.

- وأنت، أين هي علامة وفائك؟ لماذا يُقال إنك غير وفيّ؟ تجرّأ جان وسأل.

اكتفى هامون بالابتسام ودعاه إلى التوقف عن الكلام، لا شك أن قسمات وجهه قد تراخت وأصبح جبينه أملس تماماً.

في اليوم التالي لم يقاوم جان رغبته في التحديق إلى انعكاس صورته في زجاج النافذة. بدأ يخفي جرحه تحت خصلة من شعره، لكنه كان يحب التناظر الذي يتشكّل بين طرف أنفه والعلامة فوق جبينه. بينما كان يردّ خصلة شعره، باغته أحد الأساتذة ووبّخه على غنجه وتعطّله عن العمل. احمرّ وجه جان خجلاً، شدّ فكّيه على الفكرة أنه يرى نفسه وسيماً آملاً أن يطحنها بين أسنانه.

ظهر منهج لاتيني جديد صيغت فيه القواعد بثمان تفعيلات بالفرنسية. كان ثورة بُذلت في سبيلها الجهود لتبدو عادية. عندما كان جان ينام، تُعانقه أنفاس المهجع، كان يسمع مذذاك أبيات الشعر ذات المقاطع اللفظية الثمانية، تنتظم وتتوضّع في داخله. كان هذا التناسق يُغبطه ويهدهده فيمتلئ عالمه فجأة بالموسيقا. سوف يحتفظ من هذه الثورة ولوقت طويل بذكرى لغة راحت بين ليلة وضُحاها تُنشد في الليل. لاحظ الأساتذة تقدّماً سريعاً. كان هذا المنهج نعمة إلهية.

- هل لنا أن نقول إن كل لغة هي موسيقا؟ سأل جان ذات صباح وهو في المهجع.
- لست هنا كي تتعلّم الغناء، قال الأستاذ بلهجة لاذعة.

انطلقت أسئلة أخرى. سأل أحد التلاميذ عرضاً لماذا لا يعطونهم البتّة بحثاً لاتينياً؟

- ماذا ينفعنا إذا استبدلنا لغة حيّة بلغة ميتة؟

كان التعبير قاسياً في نظر جان. كيف يمكن للغة أن تموت؟ كان يودّ أن يغادر على الفور ويذهب إلى هامون كي يسأله رأيه، وحده

كان يعرف الفرق بين الحياة والموت، لكنه لم يتحرّك من مكانه. سكّن روعه ولم يلحظ أي اضطراب لدى الأولاد الآخرين، آملاً أن تكون الكلمات مثل الأرواح، قادرة على الخلود.

- المهم... استأنف الأستاذ، هو أن نستحضر الأقدمين ونستفيد مما يحملونه لنا، وأن نتعرّف إليهم من الداخل وننبش نصوصهم وكأنها مادة. هكذا نتعلّم تشكيل لغتنا. الآن، لنعد إلى هذا المثال المعروف جداً: كانوا يمضون في الليل كظلال قاتمة *Ibant obscuri sola sub nocte per umbram..*

فكّر جان ثم اقترح بصوت جليّ:

- كانوا يمشون قُدماً وحيدين في ليل مظلم.
- لا... هذا ليس صحيحاً، لا يقول ڤيرجيل هذا بالضبط.

أعاد جان القراءة مرة... مرّتين، بصوت عالٍ ثم عشر مرات بينه وبين نفسه. كان يرى ظلالاً تتحرّك... خيالات تنسلّ في قلب الليل.

قال المعلّم:

- كانوا يمشون عبر الظلام دُكُناً في الليل الوحيد.

لم يتمكن جان من تصوّر هذا الليل الوحيد، تخيّل عتمة كالحة تبتلع كل وحدة البشر، لكن الفكرة بقيت مُبهمة وغير واضحة، ثم كي يريح ذهنه أحصى عدد الكلمات، كان هناك إحدى عشرة كلمة، بينما اكتفت اللاتينية بسبع كلمات. لماذا اللغة الفرنسية مُجبرة دوماً على أن تضيف المزيد من الكلمات؟ يجدر به أن يجعلها مثلها متراصّة وموجزة. حاول مجدداً:

- كانوا يمشون يغمرهم الليل الوحيد.

إنها ممتازة، فكّر جان وقد لاحظ أن عدد كلمات جملته سبع بالضبط حتى وإن لم يكن واثقاً جداً أنه فهمها، كما أنه كان محتاراً بين النعوت، كان يردّدها في سرّه دون ملل. إنها جملة قاسية كالجلد، نقية كالماس وليس كالمياه الصافية.

فكّر المعلّم ملياً، أومأ برأسه وابتسم.

- هذا إخلاص.

- لكن هذا لا معنى له بالتحديد، اعترض أحد التلاميذ، ما معنى «الليل الوحيد»؟

لم يحاول جان أن يشرح له أو يُقنعه. أدرك أنه لفهم ذلك، كان عليه هو نفسه أن يتجاوز شيئاً من الإدراك ويعتمد على تناغم الجمل والمقاطع الصوتية فحسب. للترجمة شروطها الكثيرة قال لنفسه، مثل المهندسين حين يُجبرون على إمرار دائرة في أربع نقاط مفترضة لا على التعيين، ولا يتوصّلون إلى إمرارها سوى في ثلاث محاولين الاقتراب من النقطة الرابعة قدر الإمكان. بيد أنه وعد نفسه أن يراعي النقاط الأربع الإلزامية في يوم من الأيام.

اجتاح الصف جوّ من اليأس، حتى إن جان في آخر الدرس همس في أذن لانسلو: إن لغة ميتة حقاً لا يمكن أن تسبب لهم كل هذا السوء وكل هذا الشقاق.

- على العكس تماماً، لأن الفرنسية لغة حيّة فهي تضع عند قدمي اللاتينية كل تلك الاحتمالات. لا تنسوا هذا أبداً. خذوا من اللاتينية ما ترونه مناسباً لكم، لا تكونوا جامدين أبداً، اغرفوا منها، استخدموها.

أفرحت هذه الفكرة جان. كان يجب أن تتحدّث اللغات بعضها إلى بعض سرّاً، وتحوك حوارات لا تُدرك، لا تُرى، ولا تُترجم بحيث

لا نعود نميّز الروافد من النهر. أكثر ما كان يحبه هو هذه الريح الخالية من الرهبة التي ينفثها الأستاذ داخل الصف.

ذات صباح، أُعلنت عودة الراهبات أخيراً إلى الريف. نزل جان بعد الغداء الدرجات المائة بسرعة. بُهر في البداية من كل هذه المعاطف الجوخية البيض التي كانت تحتك بالأرض الحجرية وبالجدران. كانت الأقمشة المثنّاة تختلط مع أعمدة أروقة الدير. قد يكون هذا سراباً ولكن لحسن الحظ، ميّز الصلبان القرمزية المطرّزة على مشالحهن البيض التي تُغطّي أكتافهن. لم يكن يحلم إذاً، إنهن هناك.

لم يرَ خالته. كيف بوسعه التعرّف إليها؟ بعد ساعات قليلة هي التي طلبت رؤيته. تقدّم في صمت البهو بخطوات عصبية، لكنه عندما أدرك أنه لن يحسّ بعد الآن بنعومة شعرهما عندما كانا يختلطان، تشنّج. مع ذلك، لم يتغيّر صوتها، سألته بدقّة عن دراسته، طلبت تفاصيل، وحثّته على الاحترام المطلق لمعلميه. تمنّى في هذا السيل المتواصل أن يخونها صوتها فجأة، أن يختفي وتبقى الأصوات الخرساء على شفتيها، ولكن مثل شعرها، ظلّ حنانها محتجباً. تراجع عن سؤالها لماذا تجهّم وجهها في الماضي عندما ودّعته.

كشف عن ندبته وحكى لها كيف ناضل باسم ملك فرنسا. أجابت: إن الملوك تزول والله وحده الباقي. كانت على حق، لكن جان كان يحب التفكير أن هناك ولداً يكبره بعام واحد يحكم مملكة واسعة الأرجاء. أجابت خالته أن هذه صورة خيالية وأن الملك ليس له من الملكية سوى الاسم، دون أن يخامرها الشك في تأثير الأسماء في جان. صحيح أنها كانت تلقي على جان نظرة عطوفة، غير أنها

نظرة من دون ذراعين ويدين لتلمسه، وبالنسبة إلى جان كان ذلك بمثابة مسمار يدقّ في قلبه.

لا تصعد الراهبات أبداً، والتلاميذ أيضاً لا ينزلون. كانا عالمين منفصلين، إخوة وأخوات ما عادوا يكبرون معاً. سأل جان في إحدى الأمسيات إذا كان لا يزال بالإمكان الحديث عن البنات والصبيان للدلالة على سكان الوادي. تردّد الأستاذ وأجاب: أليست كلماتك في غير محلها؟ إنهم قبل كل شيء أبناء الله.

كان جان يسمع أموراً رهيبة بخصوص الراهبات. قال له هامون مثلاً إنهن ينزفن الدم مثل المسيح، دماء مرئية، خصوصاً مساء الخميس في رتبة ندامة الدم، أو أثناء عمليات الفصد التي يخضعن لها باستمرار. ولكن على الخصوص، دم العذارى الذي يسيل خفية كل شهر. صُدم جان من سماع شيء كهذا. كان يريد أن يتوقّف الطبيب عند ذلك الحد، وألا يضيف شيئاً بعد.

- شرف فتيات بور رويال، أولئك العذراوات الحكيمات، يأتي من دم المسيح، أردف قائلاً.
- لا أفهم، قال جان.
- حَباهن الله هذا النزف الطبيعي الذي لا نفهمه بإدراكنا. يعرفن كل شهر ما معنى أن يفقد المرء الدماء، بعكسنا نحن.

ذُهل جان، هو الذي كان ينظر إليهن ككائنات ضعيفة، صارت نظرته مختلفة تماماً الآن. العلاقة التي تربطهن بالله قوية بحيث لا يمكن لأي صلاة أو أي معرفة أن تعادلها. في كل مرة يرى فيها من البعيد صلبانهن القرمزية تتراقص، سوف يشمّ شلّال الدم هذا.

أبعد عن ذهنه خيال خالته، بتر ساقيها بشكل نهائي ولم يستبقِ سوى وجهها. في الليلة التالية حلم أن هامون كان يقترب منه وبيده مِشرط، بحث في ذراعه وجسّ الشريان، شقّه وهو يبتسم، ثم انفجر ضاحكاً حين رأى أن دم جان أبيض كالحليب.

٧

عشية عيد ميلاد جان الرابع عشر، قرروا إرساله إلى مدرسة بوڤيه التي تبعد ثلاثين كيلومتراً عن الدير بناء على رغبة أقربائه الحريصين على منحه الأفضل. لكن بالنسبة إلى جان، كان الأفضل هو الدير. أذعن والموت يسكن روحه، وخامره الشك في أنهم كانوا يعاقبونه على الجسارة التي يبديها في الصف أو خارجه. شقّ عليه ترك هامون أكثر من ترك خالته، وأدرك أن الكائنات تُستبدل ومعها عناق تلك الكائنات.

في بوڤيه، كانت المباني أقل رطوبة والمهاجع أوسع، لكن جان كان يفتقد كل شيء: أساتذته، أشجاره، خيال هامون، مشالح الراهبات الحمر من بعيد. كي يعزّي نفسه، غاص في ڤيرجيل كما لم يفعل قط. الانضباط هنا أقل صرامة، كان يكفي أن يقول: إنه يدرس نصّه اللاتيني كي يُترك وشأنه. لا بل لم يكن أحد يحاول معرفة على أي نص هو منكبّ.

كان يقرأ بشكل حصري تقريباً النشيد الرابع، لكن تحريم الكتاب كان يُسدل حاجباً بينه وبين النص، إنما يوماً بعد يوم كانت عيناه تعتادان القراءة من خلاله.

تحترق بنار خفية (*carpitur caeco igni*)

«كانت الملكة ديدون تذوب غمّاً في نار عمياء». ليست النار هي

العمياء بل أولئك الذين يجدر بهم رؤيتها ولا يرونها. كي يُترجم كلمة *caeco*، تردّد جان ما بين كلمة «خفي» أو «مُخبأ». كان ڤيرجيل يعشق رؤية النعت يزيح المنعوت.

تحترق بنار خفية. مهما فعل، أينما كان، كانت تعاوده الكلمات الثلاث. كان يراها وكأنها محفورة في الحجر، يردّدها وهو في الممرات الطويلة، وهو مستلق لينام، في الصباح عند يقظته.

تحترق بنار خفية، لماذا يسيل دم الملكة مثل حمم البركان؟ لم يتحدّث إلى أحد عن أفكاره، لكنه كان يُترجم ويُترجم دون توقّف، أحياناً حتى وقت متأخر من الليل. بعد جهد جهيد قهر الصعاب وبلغ قاع النص. وجد فيه خفقاناً، نبضاً، نبض حزن من المستحيل مواساته. راود جان شعور أنه يدخل إلى بلاد، حيث الحروب والمعارك وتشييد المرافئ لا تعادل شيئاً مقابل امرأة تذرف الدموع. فجأة، بدا له هذا الحزن حقيقة، مثله مثل الموت والولادة.

تحترق بنار خفية. في كل مرة كان يغرغر العبارة في فمه ، يزيد إعجابه بخفّة اللاتينية. لو أن الفرنسية تُعطي الحرية نفسها، لو كان بوسعه منحها لواحق نحوية خفية غير مرئية. لكن الفرنسية مسطّحة جداً، لهذا شعر جان باليأس. كان يتسلّى في شقلبة ترتيب كل الجمل بما فيها مواعظ القدّاس. إذا قال الكاهن: «نُدين لله»، كان جان يصحّح «لله نُدين»، وبالعكس. ضمن هذه التعديلات كانت تنفصل ذاته عن ذاته، يفقد تسلسل أفكاره ويحسّ أنه منساق وراء جمل لا بداية لها ولا نهاية، لكنه كان يشعر في داخلها بعصف رياح مُرتحلة جديدة تُسكره. «**نُدين لله في قهر الأفكار التي تخالف أمنياتنا**». كان يضع حينئذ يديه الاثنتين على طرف المقعد أمامه، يهدّئ دواره ويستعيد تسلسل الموعظة. «**نُدين لله قهر أفكار تخالف الأمنيات**».

ولكن بعدها بدقيقة يبدأ من جديد. في هذه الرياضة الغريبة، كانت الكلمات تتمرّن مثل العضلات وتليّن ممانعتها.

في أحد الأيام وبعد قُدّاس طويل بشكل خاص، خرج منه ليس مُنهكاً فحسب بل مذعوراً من التفكير أن ذهنه تبلبل وأصيب بمتلازمة خاصة ربما تمنعه من تبني علم تركيب كلام واضح ومنطقي. سارع إلى الكتابة إلى هامون الذي ردّ عليه أن مرضاً كهذا لا وجود له ودعاه إلى التقليل من قراءة اللاتينية لبعض الوقت. عاد جان وأرسل رسالة ثانية شكره فيها وسأله إضافة إلى ذلك تفاصيل جسدية عن مرض ديدون. *تحترق بنار خفية*. هل هذا ممكن بحسب رأيك؟ سأل. إلى أي درجة يمكن أن ترتفع حرارة دم المرأة؟ ردّ عليه الطبيب أن دم المسيح مثله مثل دم النساء لا علاقة له بالنار، والتفكير في ذلك في ذاته تجديف.

كان في بوفيه دون أن يكون فيها، قلّما كان يتواصل مع غيره، لم يكن يفكّر سوى في نشيد ديدون وفي العودة إلى الدير التي وُعد بها. كان رفاقه ينظرون إليه كسجين يسعى بفارغ الصبر للعودة إلى سجنه. كانوا يعيبون على بور رويال المغالاة في الانضباط الصارم والتشدّد في الإيمان والاضطهادات، لكن جان لم يحاول إقناعهم، فهم لا يعرفون عمّا كان يتحدّث. في المقابل لم يقل لهم شيئاً عن نشيد ديدون. يوماً بعد يوم تكشفت أمام ناظريه وعبر جدار مشاهد فظة وقاسية: أسرّة خالية، وثياب مبللة بالدموع. يغوص في تلافيف الترجمة، يُعيد الصياغة دون توقّف، يغيّر كلمة... صفة، كمن يريد تبريد النص، ولكن على نحو لا مفرّ منه، كان اللهيب نفسه يضجّ كما في قلب عبارات ڤيرجيل.

نحترق بنار خفية

أحياناً كان يردّد بصوت عالٍ مقطعاً من الجملة قبل أن يسمعها بشكل فعليّ، وخصوصاً التعابير المألوفة التي كان يعرّيها كي يصل إلى معنى خفيّ من وراء استخدامها. مثلما كان ڤيرجيل يكتب عن ديدون *resistitque in media voce*... بدأ جان بتدوين ما يأتيه بسهولة، «**توقفت**»، ثم «**بقيت صامتة**»، ولكن هذا ليس جيداً. انتهى به المطاف وكتب: «**وتوقّفت في وسط الكلام**». هذا غريب، ولكن هكذا صاغها ڤيرجيل. توقّفت ديدون عن الكلام لأنها كانت عالقة في وحل كلامها.

عندما غفا جان في تلك الليلة، ظنّ أنه سمع صوت الملكة الأجشّ والمشحون، وسأل نفسه ماذا تشبه أصوات الراهبات حين يصلّين؟ لكنه ذات صباح أثناء حصّة اللاتينية، بينما كان المعلّم يُملي عليهم مقطعاً لسينيك[1]، كتب بقلمه جملة أخرى من جمل ڤيرجيل. رفع رأسه فرأى الآخرين منهمكين، سارع ليدوّن الترجمة، لكنه لم يرَ الأستاذ منحنياً فوق كتفه.

- هل يمكن أن أعرف لماذا تترجم شيئاً آخر غير الذي طلبته؟
- أنا...
- أجب عن سؤالي.

استدارت كل الرؤوس إليه. شعر جان بأسفل ظهره يقسو، شطب كلمات ڤيرجيل وكلماته واحمرّ خجلاً أمام الأستاذ. نظر إليه ذاك الأخير بازدراء وانتزع منه ورقته. راقبه جان يعود غاضباً في الممر وبيده الورقة وقد دعكها مثل كرة. لكنه تذكّر كلماته الأخيرة

(١) سينيك: (٤ق.م-٦٥م) فيلسوف وكاتب مسرحي ورجل دولة في الدولة الرومانية.

وكأنها لا تزال تحت ناظريه. «**الجرح الذي مزّقها يفحّ في صدرها**». لم يكن بيت الشعر هذا يتطلّب أي جهد بقدر ما كان خفيفاً، أكثر سلاسة من كل ما ترجمه من قبل، كان يستحيل نسيانه. راح يردّده مرة بعد مرة. «**الجرح الذي مزّقها يفحّ في صدرها**»، «**الجرح الذي مزّقها يفحّ في صدرها**». فوق منحدر الكنيسة، سار جان للمرة الأولى اثنتي عشرة خطوة. تساءل فيما إذا كان الوزن الإسكندراني يضمن المثالية. لم يكن لديه أي فكرة، ولكن خلال الأيام التي تلت كان يُعيد التجربة، واستنتج أنه إذا كان يتعذّر ترقيم الجمال، فإنه يمكن ترقيم الموسيقا.

٨

بعد سنتين، عاد جان إلى الدير. كان في السادسة عشرة من عمره. كان لهذه العودة طابع الأبّهة، ذلك لأنه كان قد تلقّى هناك تعليم المعلّمين الثلاثة الأكثر شهرة في فرنسا معاً: أنطوان المعلّم، كلود لانسلو، بيير نيكول. فضلاً عن أنهم كانوا أكثر النسّاك عزلة. كانت قد أُنشئت في الحديقة مناسك منفردة كي لا يختلطوا بعضهم مع بعض. كانت خالته حينذاك تُقيم في إحدى قلّايات الدير الجديدة، وعلى الرغم من العذابات، كان يزداد عدد الراهبات باطّراد. هكذا استعاد جان كل عالمه من حوله، باستثناء هامون الذي أصبح الطبيب الرسمي للدير ولم يعد يهتم بالحديقة. لن يكون بوسع جان رؤيته يعمل في الحديقة ولا الحديث معه عن عجائب الطبيعة. سوف يلزمه دائماً حجج وأمراض كي يتمكن من رؤيته مجدّداً ويأخذه من بين الراهبات اللواتي يحتجن إلى العلاج باستمرار بسبب الرطوبة والفاقة والتقشّف في المأكل. لم يسبق لجان أن أخذ حذره مثلما فعل منذ عودته. لم يعرف إذا كانت الظاهرة هي التي تضخّمت أو أنه هو الذي اعتاد في بوفيه العيش المريح أكثر.

كان هامون هو الرجل الوحيد الذي يُسمح له باجتياز حرم الدير. كان جان يحسده. وكما كان يفعل وهو صغير، اعتاد الهروب ونزول السلم بسرعة والاختباء في إحدى الزوايا كي يراقب.

كان بوسعه الانتظار دقائق طويلة قبل أن يرى طيفاً أبيض يجول في الرواق، أو على العكس، لا يعود يعرف إلى أين ينظر. كانت الراهبات يمشين، يتوقّفن، يتبادلن الكلام، ينظرن إلى السماء، تصل أخريات، ينضممن إلى المجموعة، ينفصلن عنها. كان يلتقط إيماءات، تحيات وعناقاً، ونادراً جداً ضحكات. يقال إن عددهن يقارب المائة في الوقت الحالي. كان يسأل نفسه فيما إذا كنّ مثل ديدون، يحدث لهن أن يبكين على شيء فقدنه، حياتهن الماضية، عائلاتهن. لم يكن يجرؤ على تخيّل خسارات أخرى. لكنهن لسن مثل ديدون فهنّ مع الله دائماً. الله يبدّد كل الأحزان مثل أرض اسفنجية قادرة على امتصاص كل شلالات الدموع. ديدون المسكينة التي لم يكن لحزنها إله قط.

- أي داء كانت تُعاني الملكة ديدون؟ سأل خالته ذات يوم.
- ليس لدي أدنى فكرة عمّا تتحدث، أجابت دون تردّد.

صدّقها وأدرك منذ ذلك الحين أن هناك أسئلة غريبة لا تعرف لها جواباً، لذلك كرّر السؤال على هامون.

- أي داء كانت تُعاني الملكة ديدون؟
- داء لا تريد أن تعرف عنه شيئاً ولم يعد له وجود منذ أن تجلّى الرب.

عندئذ روى له الطبيب قصة وقعت أثناء غيابه، قصة الصغيرة مارغريت التي أصيبت بمرض عنيد، ظهرت في زاوية عينها دُمّلة قاسية لها رائحة كريهة، كانت تُسبب لها آلاماً وحُمّى لم يشفها الطب.

«استُحضرت شوكة مُقدّسة أُخذت من تاج المسيح، ووضعها الجرّاحون في القناة الدمعية. بعد ساعات قليلة، اختفى المرض والأوجاع. انتظرنا ثمانية أيام قبل أن نقتنع، لكننا لم نجاهر بالخبر،

كان بوسعنا القيام بذلك، فالصغيرة ليست سوى الابنة الصغرى لأخت باسكال العظيم».

همس جان أنه لم يسمع أحداً في بوفيه يتحدّث عن ذلك.

- كان ذلك ليُغيظ الملك، أردف هامون، لكن الشهادات انتشرت رغم كل شيء.
- أي شهادات؟
- تلك التي تُثبت التدخّل الإلهي.
- أي يد وقّعتها؟
- يد الله.
- ويدك لا دخل لها بذلك؟
- قلت لك إنها يد الله.

ذُهل جان. هناك إذاً ما يشهد على وجود الله الكليّ القدرة، كُتب بريشة على ورق الرقّ. الله موجود. الله يصنع المعجزات. الله يعلو العلم ويستحوذ على كل المعارف. الله يتفوّق على ملك فرنسا. وأكثر من ذلك أيضاً، الله يكتب. كان جان ينفعل تارة ويجمد تارة أخرى. ثمة مُخاطرة في تحريك ريشته فوق الأوراق، إذ كان يشعر برأسها يقسو ويثقب الورقة مثلما تثقب شوكة جلداً شديد الرقّة.

كلما زاد هامون في حديثه عن عجائب الله، ازدادت الإشاعات بخصوصه أكثر. لم يعد بإمكانه اجتياز حرم الدير إلا وترافقه إحدى الراهبات، وصار جان يلمح مراراً بعض الحرس في الحديقة. كان يُخشى أن يحرّض على أعمال ضد الملك. وعندما كان جان يقلق بشأنه كثيراً كان يطلب رؤية خالته. كما هو الحال دائماً، كان يرى وجهها في عتمة قاعة الاستقبال مستديراً مثل قمر مُكتمل ساكن في حب الله. «يحسدوننا على عقولنا الكبيرة» قالت له في أحد

الأيـام. «العـداوة تجاهنـا مخيفـة، عليـك أن تقـدّر حظّـك وتشـكر الله لأنـك هنا، ربـما لن يـدوم ذلـك...».

في ذلـك اليـوم كرههـا جـان لأنهـا زادت مـن مخاوفـه. هـل اسـتاءت منـه أو جلـب لهـا العـار؟ مـن يرغـب إذاً في الإسـاءة إلى الدير هكـذا؟ عندمـا عـاد وصعـد إلى مستودعات الحبـوب، شـعر أن عليـه المـضيّ برفقـة الكآبـة، تتسـلّق كاحليـه وتلتـف حول سـاقيه بأوراقهـا الشـائكة المؤلـمة. بوسـعه إن أراد أن يقـرأ مـا يُمنـع عنـه، هـذا المـكان هـو عائلتـه، قلبـه، حظيرتـه. لعـن نبـوءات خالتـه المشـؤومة ورائحـة جلدهـا حـين كانـت تلصـق وجههـا بالشِبـاك، رائحـة حامضـة وواخـزة، مثـل فتـات خبـز فاسـد.

لحسـن الحـظ دخـل كتـاب جديـد إلى حياتـه وألهـاه عن هواجسـه، كتاب «الإنشـاء الخطـابي» لكينتيليان[1]. فتـح المجلّدات التـي أعاره إياها المعلّـم بحـذر وامتنـان. تأثـر عندمـا فكّـر أنـه يقلّـب الصفحات نفسـها ويُداعب الأوراق نفسـها ويلقـي عليها نظرته التي سـبقتها نظرات كثيرة قبلـه. «يجدر بالقـاضي أن يعـرف كيف يسـتعمل البراهين والاسـتدلال، ولكـن عليـه أن يتعلّـم أيضـاً كيـف يحـرّك مشـاعر الحضـور في قاعـة المحكمة».

في كل نصيحـة يُعطيهـا كينتيليـان، ثمّـة طريقـة لاخـتراق العقـل البـشري، وإخـراج المقاصـد الخفيـة والمـآرب الأخـرى والدوافـع المخبـأة في ثنايـاه. لم يكـن يتوقـع ذلـك، إضافـة إلى البلاغـة، سـوف تعلّمـه دراسـة الحقـوق فـكّ رمـوز النفـس البشريـة. قبـل أن ينعـزل

(١) كينتيليـان: خطيـب ومعلّـم لاتينية من القـرن الأول الميـلادي مؤلف كتاب عـن الخطابة يعلّم فيـه التدريـب على التحـدث أمـام الجمهور.

المعلّم في الريف كان محامياً شهيراً. يقال إن له طموحات كبيرة حيال جان ويريد أن يصنع منه المدافِع عن بور رويال في المستقبل، ويقال أيضاً: إنه يحبه مثل ابنه. كان يعلّم الأولاد كل الصور البلاغية، كل التأثيرات، كان يتحرك، يستقطبهم بحماسة، لا يعدّ الساعات. كان له ميل خاص للقياس[١]، يلقي ثلاث جمل متتالية بطريقة مفخّمة ولاهية في الوقت نفسه. ولع التلاميذ به، قلّدوه، نظّموا مسابقات حتى أوقات متأخرة من الليل، لكن جان كان يؤثر واحدة أخرى من الصور المجازية العزيزة على قلب الأستاذ وهي الوصف المؤثر[٢].

- صور الأشياء حاضرة جداً في الكلام، شرح المعلم، بحيث يظن السامع أنه يراها أكثر مما يسمعها، إذ إن للعين سلطة كاملة على نفوسنا.

من كل الأمثلة التي أعطاها، يتذكّر جان مثال رداء قيصر المدمّى فقط، «يقطر كله بالدّم»، أصرّ المعلّم على أن خط السائل الأحمر هذا يستنهض الرغبة في الانتقام لدى الجمع الروماني أكثر من أي خطاب.

أغمض جان عينيه كي يصيخ السمع أكثر وترك نفسه ينقاد إلى جو غريب، عند أول سدول الليل، في لحظة لا هي من النهار ولا هي من الليل، ليست من النوم ولا من اليقظة، نوع من الهلوسة الهادئة حلّ في ضيافتها، تحتدم فيها الأذهان وتلتهب مثل المشاعل. ليلة ظلماء تتجلى فيها مآسٍ ومذابح وتوهّج جمرات أكثر احمراراً من لوحات كبيرة. يرتفع حينذاك صوت هادئ يحكي عن الذهول

---

(١) القياس: في علم البلاغة، قول مؤلف في مقدمة إذا تحققت لزم عنها نتيجة من النتائج.
(٢) الوصف المؤثر: وصف أمر وصفاً حياً يجعل القارئ يتصوّر الفعل يقع أمام عينيه.

والعار وضراوة البشر فيما بينهم بإيقاع الشعر. كان جان يجبر نفسه أحياناً على شدّ إبهاميه على ظهره كي لا يصفّق لشدة ما كان صوت المعلّم جميلاً، آسراً، قوياً. لهذا ما إن يصبح وحده حتى يبدأ بتقليده. تتحول الكلمات إلى مادة ملموسة، يلتقطها ويعيد تشكيلها. كان يقول لنفسه: «إذا كانت اللغة تتشكّل في الذهن فلا يجدر بها أن تبقى محبوسة فيه، عليها أن تخرج، تنقذف إلى الفراغ وتهتز في الهواء».

شرح المعلّم في أحد الأيام أن كينتيليان يعتبر المسرحيات المأسوية لا غنى عنها لتأهيل الخطيب. دهش جان لأنهم في الدير يكرهون المسرح كثيراً. ارتبك المعلّم للحظة قبل أن يردّ أن هناك سبباً لذلك بالتأكيد. لم يكن كينتيليان يستشهد بالمؤلفين إلا كي ينتقدهم ويتأسف على طريقتهم بالاستسلام لموهبتهم بدلاً من أن يتحكموا فيها.

- اسمعوا إذاً بيت الشعر هذا لأوفيد:

Servare potui, perdere an possim rogas.

ترجم أحد التلاميذ:

- من يمكنه أن يحتفظ بشيء يمكنه أن يفقده، أو: إذا استطعت الاحتفاظ بكَ فسوف أفقدك.

أمسك جان نفسه عن الضحك لشدة ما كانت الترجمة سيئة.

- نعم هذه هي، ولكنك لا تعطي الترجمة الوجيزة، قال المعلّم.
- استطعتُ الحفاظ عليك وسوف أفقدكَ لا محالة، اقترح جان.
- ينقص جزء، احتجّ التلميذ.
- لا، فيها كل شيء، أعطى المعلّم حكمه. هذا شعر وهذا منطق لا يرحم. الشعر بديع لأن فيه منطقاً.

بحث التلميذ عمّن يدعمه من حوله، ولكن لم يجرؤ أحد على الوقوف بوجه الأستاذ.

- من أين استُخرج هذا البيت؟ سأل جان.
- من القصيدة المسرحية الوحيدة التي كتبها أوڤيد.
- هل يُسمح لنا بقراءتها؟
- لا، قال المعلّم، إنها مسرحية ضائعة لم يبقَ منها سوى بيت واحد.

كان كل شيء يحيّر جان: المثال الذي اختاره المعلّم، أعمال شاعر عظيم تضيع هكذا ولا يبقى منها سوى بيت واحد. دوّن تساؤلاته في الدفتر الكبير الذي اعتاد أن يكتب فيه ما يخطر على باله أثناء النهار منذ أن أصبح لديه غرفة خاصة. على هامش تعليقاته الدائمة كان يكتب تعليقات أخرى مفكّكة وفي غير محلّها، لو وقعت أنظار أحد الغرباء عليها بغتة لبدت غير مُحتشمة مثل ملاءات سرير مُخرّبة، ملاحظات لا معنى لها، مقاطع من كينتيليان وكذلك من تاسيت[1] وڤيرجيل وبلوتارك، يعلّق عليهم كأنهم مسيحيون بذكر الله والنعمة الإلهية دون أن يشغل باله إن كانت ملائمة أم لا. علّموه أن يشرّح، ها هو يشرّح، لكنه لم يكن يشرح سوى الأمثال، عبارات توصله إلى أخرى، على غير دراية منه تقريباً.

بين الصفحة والصفحة، كان يغيّر اللغة فينتقل من اليونانية إلى اللاتينية دون حتى أن يعي ذلك. صار منذ ذاك الحين، بفضل لانسلو، يعرف الإسبانية والإيطالية. كان الوحيد الذي يتقن خمس لغات. بفضل هذه اللغات الحيّة كلّها في داخله، كان يبعد الحدود ويخلق جغرافيا جديدة مترامية الأطراف على هواه. في جوار رفاقه التلاميذ، كان صدره يعلو ويغدو أكثر زهواً، غنياً بكل الأصوات التي يتلقّاها، يشكّلها ويُعيد إطلاقها بكل الأصداء. عندما كان

(١) تاسيت: مؤرخ وسيناتور روماني ولد في القرن الأول الميلادي.

يستظهر أو يلقي الشعر، كان يشعر بأضلاعه تتباعد، قفصه الصدري يعلو ويهبط ويهتزّ من غلواء برج بابل المنتصب في داخله دون نشاز. في أغلب الأوقات بعد العشاء، كان التلاميذ يتجمّعون حول خرائط كبيرة ويُشيرون بمساطرهم الخشبية إلى الجبال والمحيطات. وإن كان جان ينضمّ إليهم في بعض الأحيان إلا أنه كان يفضّل فتح دفاتره والارتحال إليها دون رقابة، يقود بمفرده فلك نوح هذا الذي دعا إليه أعظم الكتّاب.

ذات صباح وزّعوا عليهم دون أن يخبروهم ريش أقلام جديدة معدنية رمادية اللون. مرّ المعلّم بين المقاعد وبدأ يشرح:

- إنها أقل مرونة من ريش الطيور، لكنها ستُتيح لكم الكتابة أكثر ولوقت أطول.

نظر التلاميذ بعضهم إلى بعض دون أن يجرؤ أحد منهم على استخدامها باستثناء جان الذي كتب كأنه يسبح. تعلّقت ريشته بسطح الورقة، لكن يده روّضت خشونتها وراحت تمارس سلطاناً يزداد قوّة شيئاً فشيئاً. كان جان قد ملأ أكثر من نصف صفحة عندما قرر الآخرون أن يبدأوا أخيراً. كان القلم بيده مثل جؤجؤ سفينته الحديدي، يشعر معه أنه قادر على شقّ عباب البحار الأكثر خطورة.

نُظّمت مسابقات استظهار لتشجيع وتمرين الذاكرة، على الرغم من سهولتها، لم يكن جان من بين أفضل التلاميذ. كان يبدو أحياناً كأن ذاكرته إسفنجة غير قادرة على العصر بالقدر الذي تمتصّ.

في صباح أحد الأيام، تذرّع بألم شديد في الحنجرة كي يذهب ويفتح قلبه لهامون.

- لا شيء خطيراً في صحّتك، ختم الطبيب قائلاً وهو يعاينه.
- في الحقيقة، كنت أريد أن أقول لك...
- ماذا تريد أن تقول لي؟
- ذاكرتي، كيف يمكنني أن أوسّعها أكثر؟
- احفظ واحفظ، املأ نفسك بالنصوص، مرّنها وكأنها عضلة.
- هل فعلت الشيء نفسه أنت؟
- نعم، قرأت، حفظت، سمعت الكثير. لا يمكنك أن تتخيّل القصص التي يجمعها الطبيب.
- لماذا تريد أن تتذكّرها؟
- لأنها جميعاً تُثبت لي أن الرب يوزّع بركاته ومواهب نعمه على الناس البسطاء.

لدى خروج جان من غرفة المعاينة، انتابه شعور بالثمالة. لا تَهبُ الطبيعة حظوظاً متساوية للبشر. هناك أجزاء من جسده ترتقي فوق أجزاء أخرى وهي التي تصنع الرجال العُظماء. يمكن لذاكرته أن تحمل خاصية الغزو والظفر. وإن كان الجنس أمراً يُمنع الكلام عنه، إلا أن الذاكرة لا تعاني أي مانع. عاد إلى غرفته رشيق الخطى، مبتهجاً. سوف تُصبح ذاكرته إمبراطوريته.

كانت المنافسة في اللعب تخالف أحياناً ذهنية المُعلّمين الجدّية، لكنهم كانوا يتركون الأولاد يفعلون ذلك. لم يكن جان يخفي سروره لأنه كان يلحظ تقدّمه يوماً إثر يوم، و بدأ يدخل، بما لا يقبل الجدل، في حلقة أفضل التلاميذ.

كان لانسلو قد اتّبع منهجاً في اليونانية يستخدم فيه مؤلفين

جـدداً مـن أمثـال سـوفوكليس[١] وأوريبيـد[٢]. يقـال إنه الوحيـد الذي كان عـلى اطّـلاع مباشر عـلى مؤلفاتهما، كـما يُقال أيضـاً إن أعمالهما خطرة لأنهـا تعرض عيـوب البشر وكبرياءهم اللامحـدودة في لغـة خليطة فيها مـن جزالـة الأسـلوب أروعـه، ومـن السـوقية أقواهـا. شـخصياتها الواقعـة في اليـأس تلفـظ رئاتها وأجسـادها ودماءهـا. وهي أكثـر بذاءة مـن قصائـد ڤيرجيـل لأن كلماتهـا مبـاشرة، وتوجّه فوق خشـبة المسرح. في كل مـرة، كان المعلّـم يلطّـف مـن وقعهـا بصوتـه الهـادئ والرزيـن ويقـول: هـذه صـور، تصاويـر، لكـن جـان كان يلحـظ تحتها أجسـاداً مضطربـة وأنفاسـاً حـارة ودمـاء جامحة.

كعادتـه كان يحفـظ ويسـتظهر لوقـت أطـول وأسرع مـن ذي قبل. بـدأ يتفـوّق في كل المناظـرات التـي تنظّـم خـلال الحصـص أو خارجها ، ولكـن بعـد بضعـة أسـابيع أنهكتـه المسـابقات. كان صـوت الآخرين وإلقاؤهـم يزعجانـه ويُثقـلان عليه حين ينفرد بنفسـه ويرغب في سـماع تلـك النصـوص الجديـدة. حتـى أنـه تخلّى عـن تومـاس أفضـل خصم لـه ليذهـب ويغـوص وحيـداً في الغابـة. كان يمـشي حـول البركـة أو يجلـس عنـد ضفتها. كان يقـرأ ويقـرأ ويُعيد التشـكيل بأشـكال مختلفة. العبـارات بسـيطة دون تنميـق لكنهـا مدوّيـة، تثـير العواصـف داخـل رأسـه، سـماوات يخترقهـا عنـف البشر والآلهـة. ناهيـك عـن غضـب النسـاء. بالنسـبة إلى جان الـذي لم يعرف عنهن سـوى بشرتهـن البيضاء وبَرَكاتهـن اللطيفـة وأجسـادهن المدفونة تحت الصرج[٣]، بـدت له كل

---

(١) سـوفوكليس: أحـد أعظـم الكتاب المسرحيـين الإغريـق الثلاثـة، ألّـف ١٢٣ مسرحية وصل منهـا ثـمان مسرحيات.

(٢) أوريبيـد: (٤٨٠ق.م-٤٠٦ ق.م) أحـد أعظـم الكتاب المسرحيـين الإغريق الثلاثـة مع آخيل وسـوفوكليس. تنسـب إليـه ٩٥ مسرحية.

(٣) الصرج: نسيج صوفي رقيق.

من إلكترا وأنتيغون أو جوكاستا أكثر عنفاً من الملكة ديدون. جعلنه يغيّر الجوّ والمكان والنوع. داخل هذا العالم الجديد، حتى الأشجار يمكنها أن تبدأ بالعويل.

كان صديقه توماس يكشف أحياناً مخابئه.

- انظر! كتاب ممنوع. قال بسرعة.

أجفل جان المستند إلى شجرة بلوط، لم يكن لديه الوقت لرفع عينيه إلى وجه توماس إذ لمحتا الغلاف البنّي للكتاب بين يديه.

- أرِني.

خطف الكتاب، تصفّحه وراح يقرأ بصوت عالٍ: «ما إن لمح الشابان أحدهما الآخر حتى وقعا في الحب، وكأن روحيهما عند أول لقاء قد عرفت كل منها توأمها، واندفعت كل واحدة نحو من تستحق أن تكون له».

- توقّف... ليس هكذا بصوت عالٍ! احتجّ توماس.

تابع جان: «وشخصت نظرات كل منهما طويلاً إلى الآخر، كأنهما كانا يبحثان في ذاكرتيهما فيما إذا كانا أحدهما يعرف الآخر من قبل أو التقيا فيما مضى».

تحدّى المراهقان كلاهما الآخر بالنظرات مطوّلاً. أحسّ جان بانقباض في حنجرته لكنه تابع:

«وفي الحال اعتراهما نوع من الخجل مما حدث توّاً واحمرّ وجهاهما، ولكن بعد قليل، حين كان الهوى يجتاح قلبيهما كموجات مديدة على ما يظهر، شحب لونهما فجأة، وخلال بضع لحظات، لاح على وجهيهما ألف لون ولون، وفضحت تلك التغيرات في اللون والانطباع اضطراب روحيهما».

- هذا كفر، قال توماس، لنعُد.

- شحب وجهاهما من الحب، كأنهما شجرتان أصابتهما الصاعقة.
- الأشجار التي تصيبها الصواعق سود.
- تكون بيضاً قبل أن تصبح سوداً.
- لا أظن.
- على كل حال هكذا أراها... ألحّ جان.

على طريق العودة لم يتبادلا الكلام. كانت تدوّي في ذهن جان فكرة جديدة: تتحارب مخلوقات الله فيما بينها، تقتتل في سبيل مدن وممالك، لكن يمكن لها أيضاً أن تتجاذب بشدّة مثل قطع المغناطيس.

عندما وصلا إلى المبنى، قال توماس متسائلاً:

- أنت تشعر بالخجل، أليس كذلك؟
- نعم، أجاب جان كي يُطمئنه.

بعد يومين، اكتشف لانسلو الرواية الممنوعة بين أغراض جان. رواية! رواية! صاح في الممرات. وجده جان سخيفاً، لكنه لم يعترض. صودر منه الكتاب، وُبّخ علناً، قرروا إحراق كتاب «إليودور»، ودُعي كل الأولاد لمشاهدته. كانت وجنتا جان تشتعلان، شعر بندبته تسخن مثل قطعة معدنية على وشك الذوبان وسط جبينه، وكاد وجهه يسيل. كان توماس أمامه بالضبط، يتراقص انعكاس اللهب على وجنتيه العريضتين. كان هذا الحجر البرتقالي الكريم المشتعل أمام جان يلقي في قلبه عذوبة تهدّئه. لن يقرأ بعد اليوم شيئاً ممنوعاً، وسيتقيّد بأنظمة الدير بشدّة، مثل توماس. سوف يعيش من الآن فصاعداً طائعاً حياة هادئة ومكرّسة لحب الله وحده. يستحيل أن يتحدّى أيّاً كان أو أي شيء كان. ولكن في المساء نفسه وقبل أن ينام، انتابته نوبة قيء فظيعة.

من فوق وعاء القيء الذي وضعه هامون على غطائه، كان جان يتحدّث وصوته الواهي يرتدّ على جدران العيادة المطلية بالمينا:

– إن كنت هنا فهذا يُثبت أن انفعالات الروح والجسد تحدث في الوقت نفسه.

– بالتأكيد، خطيئة قراءتك أثّرت فيك إلى أقصى الدرجات.

– كما تحب الشخصيات بعضها بعضاً في الرواية.

– هذه الرواية سخيفة.

– ألا تُؤمن أن وجه المرأة يمكن أن يحمرّ أو يشحب بسبب الحب؟

– بالتأكيد، إن كان الأمر يتعلق بحب الله.

– هل تظن أن وجه خالتي يمكن أن يصبح أحمر مثل زهرة؟

– إذا كانت صلاتها حارّة فسوف يصعد الدم إلى وجنتيها.

– ألا تعتقد أن اثنين من مخلوقات الله يمكن أن يتحابّا بحرارة؟

– هذه الحرارة هي خدعة.

– وحده حبّ الله يستحقّ اسم الحب. لا يمكن لكائنين أن يتحابّا إلا بالله.

أغمض جان عينيه مُنهكاً. بعد لحظة سمع تحرّكات هامون في الغرفة، وصوت الأدوات التي يستخدمها بيديه، بينما كانت عبارات إليودور تتلاشى شيئاً فشيئاً. سوف يمنحه الله القوّة كي ينساها بالتأكيد.

٩

بعد ثمانية أيام لم يكن جان يتذكر تلك الحادثة فحسب، بل شرع يدوّن نوعاً جديداً من الملاحظات في دفاتره، جملاً لم يكن القصد منها أن تُفهم أو تشغل العقل بل أن تصف مناظر وسماوات متحوّلة وشموساً ساطعة تارة ومُحتجبة تارة أخرى. لكن لم يكن لديه جرأة إليودور، لم يجرؤ على ذكر الوجوه ولا الأجساد. ظلّ في حدود تغيرات الطقس.

شيئاً فشيئاً، اكتشف جان في نفسه ميلاً إلى الرواية لا يمتّ إلى الوصف المؤثّر بصلة فهو ميل لا يتعلق بالمعارك ولا بالجرائم، إنما بالوادي العامر بالأزهار وبفاكهة البستان، بالحديقة والطيور والمستنقع.

- إذا بالغت في التباهي بعجائب الطبيعة سوف ينتهي بك المطاف وتستطيب ذلك، نبّهه لانسلو.

ركّز جان عندئذ على الصمت والتأمل وورع الأماكن، لكن معلّميه استمروا في نقد مواضيعه. كانوا يجتمعون، يتشاورون ويُصدرون حكمهم: لم تكن المشكلة تتعلّق بما ينشد إنما بطريقة إنشاده. بعبارات أخرى: بكل بساطة، يُستحسن به تجنّب الشعر. ولإقناعه أكثر، لم يتوانَ لانسلو في إحراجه:

- الشعر ليس موهبتك بتاتاً.

كان جان معتزاً بنفسه، لكنه كان يعرف كيف يكظم غضبه.

- لا يتعلّق الأمر بالشعر إنما بالرسم يا سيدي.
- لا تلعب على الكلمات.
- أنا لا ألعب، وما يُعجبني هو الملاحظة.

لم يكن يظن أنه أحسن القول كثيراً. بعد مرور عدة أيام، رأى في الحديقة ولداً جالساً وعلى ركبتيه كتاب مفتوح، كان الوافد الجديد أكثر وسامة من الآخرين، ظنّ أنه لمحه في أروقة قصر فوموريه حيث كان يقيم منذ بعض الوقت. اقترب منه جان ولاحظ نقوشاً فوق صفحات الكتاب.

- أنا الماركيز ألبير... قال الغريب. هل تعرف اللوحة التي يتحدّثون عنها في كل مكان منذ عام ١٦٤٢م؟
- طبعاً لا.
- هي لوحة لفنان هولندي يقال عنه: إنه يعرف كيف يرسم الليل كما لم يفعل أحد من قبل.

انحنى جان وألقى نظرة، هزّ رأسه أمام فيض الألوان، كان الشخوص فيها يشقّون طريقاً من نور، يتقدّمون، يجذّفون، يكدّون في قلب الليل، كانت عينا جان تحدّقان إلى النقش لكنه لم يكن يفكّر في ما يراه. قال لنفسه: في الخارج، في أقطار أخرى، ثمة أناس يُبدعون إذاً، يكتبون ويرسمون بحرّية...

- يستحسن لك أن تتخلّى عن هذا الكتاب إذا كنت لا تريد المتاعب، قال.
- يمكنني إحضار جميع الكتب التي أريدها... قال الصبيّ متباهياً، وسوف ترى أنه لن يكون هناك متاعب.

تردّد جان، ثم طلب منه نسخة جديدة من رواية «إليودور». كان في صوته شيء من الحرج، ولكن إن كان هذا إحساسه فذلك من

دون شك بسبب التناقضات التي يثيرها معلّموه: لماذا يمنعون عنه ما يعلّمونه إياه؟

في الأيام التي تلت، كان في كل صباح يقطع المسافة التي تفصل القصر عن مدارس الصغار مع التلميذ الجديد الذي كان يحدّثه عن عظمة عائلته وتحالفاتها، وبأي طريقة كانوا يتحدّثون عنه: تلميذ لامع، ذهن مميّز، موهوب للغاية. كان هذا التملّق مدعاة لأخذ الحذر. انتهى المطاف بجان ودعاه في إحدى المرات سرّاً إلى غرفته، ثم مرة أخرى، ثم في كل مساء كي يشاركه في قراءاته وترجماته. كان يعامله كأخ كبير ومعلّم صغير، يُعلّمه أموراً وأسراراً عليه معرفتها كي يترجم على نحو أفضل أقرب ما يمكن.

- لكنك لا تترجم الجملة كلّها أبداً، قال الماركيز.
- بلى، فيها كل شيء.
- يصعب علي أحياناً متابعتك.
- هذا متعمّد، ابتسم جان.

ساد بين الصبيين نوع من المقايضة المُضمرة، بين علم الأول ونبالة الآخر، إذا كانت السنوات السبع التي تفصل بينهما كافية لتفسير فوقية جان، إلا أن تعالي الماركيز لا علاقة له بهذا الفرق الزمني. كان الصبيّ يعرف ذلك، كان ينهل من كلام جان وعلى وجهه باستمرار أمارات السرور واليقين من أن منشأه النبيل هو ما كان يشدّ العبقري إليه.

أحضر له الماركيز الصغير نسخة ثانية من الرواية اليونانية، احتفظ بها جان داخل مخبأ، لكنه كان يعود إليها في كل مرة تتاح

له الفرصة ويحفظ غيباً صفحات، من النص الأصلي أو بالفرنسية، من الترجمات الموجودة، من تلك التي يصحّحها وتلك التي يُعيد كتابتها ويبتكرها. بالنسبة إلى البطلين، التقيا وتحابّا، وكانا واحداً. هل يمكننا أن نُحب بشغف شخصاً نراه في حين أن الله لم يظهر لأحد؟ كان جان يتساءل باستمرار. ما بين تأملاته وتساؤلاته، كان جان يستمتع بشغف وهو يتابع مغامرات الشخصيات ويتخيّل نفسه مكانهم. «حافظ على سموّك وعلى حسّ النقد لديك، لا تدع نفسك تُخدع بالمأساة والسرد»، كان يعيد عليه معلّمه باستمرار، لكن جان كان مستسلماً للإغواء فهو في السادسة عشرة من عمره، وأحداث الرواية ترتكز بشكل خاص على مشاعر صادقة ولا أحد يريد أن يتحدّث عنها كثيراً. حتى إنه بعد عشرة أيام، أثناء إحدى حصص الدراسة، تردّد صوته عدة مرّات مشككاً، آنبه لانسلو بقسوة. عندما رأى المعلّم الاحمرار الذي اعتراه، أمره بالذهاب للاعتراف فوراً.

حكى جان في اعترافه عن استمتاعه بالقراءة وعن خطيئته بالتكبر. اعترف أن القصة أغوته، وأن منع معلّميه لم يكن سوى ليزيد في عناده، لكنه لم يتحدث عن الشيء الأساسيّ، عن إمكانية نوع مختلف من الحب. أحلّ المعرّف خطاياه.

الشعور بالخفّة الذي أحسّ به بعد الاعتراف تبدّد في الحال عندما عاد إلى غرفته ولاحظ أن أغراضه قد فُتّشت مجدّداً. انتهى الأمر بالنسخة الثانية من الرواية مثل الأولى، إلى النار.

تحوّل كبرياء جان إلى سخط. وفور انتهاء العقوبة غمز صديقه الجديد وطلب منه نسخة ثالثة، لكنه لن يُخدع بعد الآن، سوف يذهب بنفسه إلى المعلّم حاملاً معه دليل إدانته.

- متى؟ سأل الماركيز.
- عندما سأحفظها كلها عن ظهر قلب.

سمعه الماركيز الصغير أمسيات طويلة يستظهر صفحات بكاملها. عندما كانت ذاكرة جان تخونه، كان يلكزه، يؤنّبه، يتحدّاه. كان يضحك على أخطائه ونسيانه، ولكن لا شيء كان يمسّ مشاعر جان الذي لم يكن ليحيد عن هدفه مهما كلّف الأمر. عندما انتهى، قال بكل بساطة:

- غداً صباحاً سأذهب لأشيَ بنفسي.
- هل أنت متيقّن.
- لكننا لم نفعل كل ذلك من أجل لا شيء.

كأن جان كان يضع في رده هذا ختماً على صداقتهما، كشف له بشكل جليّ الفرق بين بواطن الأمور وظواهرها، وبينهما وبين الآخرين، بين الشفافية والسرّية.

ما بين المحرقة الأولى والثالثة، كان المعلّم والتلميذ في حالة تحدٍ مستمر. لم يخفض جان نظره، من وراء وجه لانسلو كان يستشفّ مستقبلاً لن يقوى أي اعتراف أو أي غفران على أن يضيّق عليه، لا بالجسد ولا بالروح.

في ذلك المساء، هامون هو الذي جاء إلى غرفته كي يراه، كان متعجباً لأنه لم يره يحضر إلى غرفة العيادة بعد المحنة التي قاساها.

- هل أنت واثق بأنك على ما يرام؟ سأله.
- أنا في أفضل حال.
- هل شعرت بالراحة بعد اعترافك؟
- لا.
- أنا لا أفهم.

- دعني وشأني أنا مُتعب، قال جان.

لم يلحّ المعلّم واستدار على عقبيه عندما استوقفه جان:

- خلق الله كل الكائنات، أليس كذلك؟
- نعم.
- هو الذي وهب لنا أعضاءنا وأحشاءنا.
- بالتأكيد.
- لماذا لا نستطيع أن نكتب عنها شيئاً إذاً؟
- نفعل ذلك في كتبنا الطبية الموجزة.
- ولكن ألا يحق لنا القيام بذلك خارج الكتب الطبّية؟
- سيكون الأمر مُخلًّا بالآداب.
- ڤيرجيل وأشيل فعلا ذلك على الدوام.
- ڤيرجيل وأشيل ليسا مؤلفين مسيحيين كما تعرف.
- لكنهما كاتبان عظيمان، أليس كذلك؟
- بالتأكيد.
- سوف أكتب مثلهما باللاتينية واليونانية.
- ليس هذا ما ننتظره منك، معلّموك يوصون بالفرنسية على الرغم من كل شيء.
- مرّة أخرى أيضاً يعلّمني مُعلّميّ ما يمنعونه عني فيما بعد. هذه المرة دعوني وشأني. أنا مُتعب جداً.

ارتبك الطبيب. انتابته عاطفة لاحت في نظرته لكنها لم تصل حتى ذراعيه.

علّموه ألا يعوّل على المناصب التي يُعطيها العالم، لكن لقب الماركيز وحده كان يطنّ في أذنه باستمرار. داخل ذاك الطنين كان

يلمح احتفالات القصر، عربات جياد البلاط ورنين الثروات. صحيح أنه غامض وبعيد، لكن خلافاً لكل ما كان يسمعه، إنه صوت الحاضر. كان جان يتيماً، وبيته الفعلي هنا. سوف يُعيله أصدقاء العائلة: أبناء العموم والأخوال، ولكن من سيثبّت أقدامه كفاية إن كان يريد الاستقرار خارج هذه الصحراء؟ أو إن كان يريد أن يبني نفسه ويكبر؟ كان جان يريد أن ينمو مثل شجرة من أشجار الحديقة شامخاً... مهيباً... يبلغ السماء دون أن يتخلّى عن الجذور المغروسة عميقاً داخل أرض مملكة فرنسا. قد يتمكّن من نيل منصب محام أو موظّف كبير في الدولة، لكن أيّاً منهما لن يصنع منه أبداً أكثر من برجوازي.

لم يكن يعرف شيئاً عن الملك سوى الإخلاص له، وندبته هي الدليل، لكن حكايا الماركيز الصغير بدأت ترفع أمام ناظريه رايات جديدة.

- يقول أبي: عندما يكون المرء في حضرة الملك يتوهّج.

أو يقول:

- يقول أبي: عندما ينظر إليك الملك، كأنه الشمس تُضيئك.

أو أيضاً:

- ما من مشهد أجمل من رؤية الملك ينزل إلى فناء قصر اللوفر كي ينسّق الجياد المقرونة في عربته.

في المرّات الأولى اكتفى جان بالتلميح إلى أن الملك يكبره بعام واحد، ثم توقّف عن ذكر ذلك. كان كلامه تافهاً جداً مقارنة بعبارات الماركيز التي كانت تضرب الآذان مثل وحي توقف الله فيه عن الوعيد الغاضب والأمر بالتكفير عن الذنوب. كان الصبيان أحياناً يُحاكيان انحناءات تبجيل متتالية، يقطّبان وجهيهما، يقلّدان

تحيّات مغالية تجعلهما يضحكان ملء شدقيهما. في غرفة جان كانا يلهوان بالقوافي الغزليّة، باللاتينية تارة وبالفرنسية تارة أخرى، على مزاجهما. في أغلب الأوقات كان جان هو من يُلقي الشعر أمام الماركيز الذي كان يصفّق له متقافزاً. كان يمر في أشعاره كل شيء: الكلب رابوتان الذي يحرس الفناء... الشتاء... العصافير الصغيرة التي تطير في الحديقة. كان جان وهو يتابع دروس معلّميه الثلاثة ويحترمها، يكتشف حثالة العالم، الضحكات الصفراء على زوايا الشفاه، الوهم الطفيف الذي تُحدثه الكلمات حول الأشياء.

عندما كان يخلد إلى النوم، كان يندم أحياناً من حال الهيجان الذي تُحدثه فيهما ألعابه مع الماركيز، ثم يفكّر في باسكال العظيم الذي يُقال عنه: إنه هو أيضاً كان لديه أوقات يتودّد فيها إلى النساء اللواتي لم يكن يعجبن لانسلو. يمكن لحياة البشر أن تدور مثل الريح، والإثبات هو حين كان يرى نفسه يتغيّر على مرّ الساعات، تارة يكون محموماً وتارة أخرى يكون لطيفاً، يولع بلغة ڤيرجيل الصارمة للحظة، وفي اللحظة التالية بقصائد غنائية تافهة.

كان يحدث له أن يُعاود النهوض، يدون الأقوال المأثورة وهو يشدّ على ريشته الحديدية. في صباح اليوم التالي، كان يرميها في النار. لكن هذا لا يهم، فالكتابة تهدّئه عندما تكون محدّدة. إن كان عليه أن يتعلم شيئاً واحداً فقط من كل سنواته هنا فسوف يكون هذا: الدقّة شيء يدين به البشر لله تعالى. في بعض الأمسيات، كان يُعيد قراءة ما كتبه، وإذ يجد جمله فظّة متكلّفة، كان يرمي قلمه بغضب مسترجعاً ذكرى كلمات لانسلو: «الشعر ليس موهبتك على الإطلاق». ومع ذلك، ما إن ينتهي من صلاة الصباح حتى ينهض بالاندفاع نفسه نحو المهمّة التي تنتظره: يأخذ مقطعاً من اللغة ويقوم بتشذيبه.

أصبح ذلك عادة لديه... تمريناً، كان يحوّله إلى شعر مثلما ينحت بإزميل، باجتهاد وصبر.

حاكى رونسار وشعراء دنيويين آخرين، أفادوه في إنشاد مدائح لهذا المكان المقدّس، الخالي أحياناً، والمحتشد أحياناً أخرى، أطلق عليه كل الأسماء الممكنة كي ينسى أنه لا يعرف أماكن أخرى غيره.

يا مساكن الصمت المقدّسة
هيكل الجمال والمفاتن
ملاذاً تحلّ النعمة والبراءة
في حضنه الآمن.

- فيها شيء من الشجن، قال له رفيقه. اكتب شيئاً آخر.

دُهش جان من هذه القسوة المفاجئة. حتى ذلك الحين، كان الماركيز جمهوره المفضّل، حليفه الأعزّ، ما خلا ابن عمه أنطوان الذي كان يتبادل وإياه الرسائل أكثر فأكثر منذ أن بدأ ذلك الأخير بدراسة الفلسفة في باريس. رسائل كان يقرأها أحياناً وهو يمشي في ممرّات القصر ويردّ عليها بحماسة بينما يجلس الماركيز وراء ظهره، لا بل يكون أحياناً أمامه.

- ماذا تقصد؟

- طيورك... مياهك الرقراقة! رُحماك، اعثر على شيء آخر، ردّد الماركيز.

ولكن جان مهما كان يحاول لم يكن يأتيه إلا ما سبق وقرأه وما كتبته أقلام أخرى، وجوه وصور كان يلتقطها دون أن يشكّلها. كان بوسعه أقلّه أن يتحدّث عمّا يؤثّر فيه فعلاً، روعة هذا البستان الذي كان في الماضي خراباً وجعل منه هامون فتنة للناظرين.

أتصدق عيناي؟ هذه حديقة؟
أتراني في يقظة أم في حلم كاذب
ساقني إلى موضع الجلال هذا؟

ولكن هنا أيضاً، أصغى إليه الماركيز وهو يتثاءب. غير أنه ذات مساء تجرأ وقال له إنه يحتاج أولاً إلى التمرين وهو لا يحاول أن يسلّيه.

- تتمرّن... من أجل ماذا؟ لن توصلك تلك القصائد الغنائية إلى أي مكان!
- لا أعرف، لكنني أحب أن أرى النثر يتحوّل إلى شعر.
- إذا كان الشعر هكذا فأنا لا أجد فيه أية قيمة.

فكّر قليلاً وقد شعر بشيء من الامتعاض.

- ولكن انظر ماذا كتبت أولاً، شرح له، هل هذه الحديقة حلم أم واقع؟ وانظر إلى أين أوصلني هذا!
- فليكن، أجاب الماركيز دون اقتناع.

لم يلحّ جان. في غضون بضعة أيام ألّف ست قصائد غنائية، كل واحدة منها ريفية أكثر من الأخرى. وإن كان لا يُسلّي رفيقه إلا أنه كان يستمتع هو نفسه. مهما فعل، مهما رأى، كانت تأتيه قصيدة وقوافٍ يزيّن بها كل رسائله، حتى الزيارات التي كان يقوم بها إلى خالته، أضحت محادثات على القافية، مُغنّاة تقريباً. كانت تبتسم لكلامه وتطلب منه ألا يغيب عن باله أبداً روح الجدّية وتمجيد الله.

- أستمتع كثيراً بإنشاد مدائح للرب، ردّ جان.
- أنا لا أحدّثك عن الاستمتاع بل عن التمجيد يا ولدي.

لكن الكلمات الجافة والقاسية التي كانت تنطقها من وراء

الشِباك لم تكـن تؤثّر فيه كما في السـابق. وفور مغادرته قاعة الاسـتقبال، كانـت تبـدأ أبيـات الشـعر بالتمايل داخل رأسـه.

في إحـدى الأمسـيات بينـما كان الماركيز يشـعر بالضجـر من إهمال جـان الذي بـدأ يلتفـت إلى ابن عمـه أنطـوان، اختلس إحدى رسـائله. لم يتحـدث فيهـا ابـن العم سـوى عـن باريـس والنزهـات والأهجيات الممنوعـة مضفيـاً عليهـا روح المغامـرة. في سـنّه الصغـيرة تلـك، لم يكن أمـام الماركيـز أي فرصة كـي يكون له التأثير نفسـه في جـان، وكان عليه أن يعثـر عـلى شيء مختلـف كـي يحافظ عـلى اهتمامه.

يمتحـن قدرتـه ويتأهّـب، يجمـع غضبـه في قرنيـه، ينطـح جـذع شـجرة، ينهـال بضرباتـه عـلى الريـح ممهّـداً للمعركـة، يـضرب الرمال فتتطايـر. وبعـد أن يسـتجمع بأسـه ويسـتعيد قـواه، يدخـل المعركـة خافـض الـرأس وينقضّ عـلى عدوّه الـذي يكون قد نسـيه، مثـل موجة بيضـاء ترغي وسـط البحر الهائـج، ثم تتجـوّف وتتجوّف كلـما ابتعدت عـن اللجّـة، تتدحـرج عـلى اليابسـة، تتكسّر فـوق الصخـر صاخبـة وتسـقط مـن عليائهـا، لكـن الموجـة تزبـد حتـى أعـماق البحـر، رافعـة معهـا الرمـل الأسـود.

كان هـذا مقطعـاً مـن «جيورجيـك» لـ«ڤيرجيـل» قـرأه عليهـم لانسـلو في أحـد الصباحـات. سـواد الرمـال أثّـر في جـان كثـيراً.

- ضعوا ثوراً في الحديقة إذاً! اقترح الماركيز متهكماً.
- سيكون هذا في غاية الغرابة، أجاب جان بنبرة قاسية.
- نعم، ولكن أقلّه سوف يكون مضحكاً.
- يجب أن يكون للأبيات معنى، أليس كذلك؟ ما نفع ثور في حديقتنا؟

- بقراتنا تحتاج إليه دائماً على حد علمي.
- هذه حاجة ليس بوسعنا الحديث عنها.
- ڤيرجيل يتحدّث عنها بالطبع...

شرح لهم المعلّم أن لدى ڤيرجيل سبباً وجيهاً، إذ كان يجدر به أن يمتدح عمل الفِلاحة لبثّ الحماسة والهمّة في الرومان. سأل جان نفسه إذا كان عليه أن يأخذ النصح من هذا الفتى الواثق جداً بنفسه. تغيّر مزاجه، اضطرب، ودون سابق إنذار، طلب من الماركيز أن يتركه وحيداً.

- أنا ذاهب ولكن سوف أقرأ قصيدتك عن الثور غداً، أليس كذلك؟ قال ملحّاً.

خلال ساعات، راح جان يمحو، يشطب، يحاول أن يتخيّل مصير حيوان متوحّش ضخم داخل الدير دون أن يبالي بالاستهزاء. لكن لا شيء ملائماً كان يأتيه. في صباح اليوم التالي، بالكاد تجرأ والتقت نظراته نظرات رفيقه. واستمر ذلك ثلاثة أيام متتالية.

بعد أربع ليالٍ بيضاء نجح أخيراً بعض الشيء، أشار إلى الماركيز أن يتبعه بعد ساعة الغداء مباشرة، و بدأ يلقي متردّداً:

تعلق قوائمه السوداء في الوحل
تتلطّخ وتلمع
مثل الدم الغاضب في أعماقه
أحمر... رهيب... هائج.

- هذا مخيف. أظن أنني ما أزال أفضّل عصافيرك الصغيرة... قال الماركيز متعجباً! كن مأسوياً أكثر.
- أنت تتعبني، تنهّد جان، حاول أنت إذاً!
- أتريدني أن أكون شاعراً على مستواك؟

- لا بالطبع.
- ربما كانت حكاية الثور فكرة سيئة، إنها ريفية جداً.

أراحه استنتاج الماركيز، لكنه في مساء اليوم نفسه وقعت عيناه مصادفة على صفحة أخرى من قصائد جورجيك على هذه السطور:

« كل العناصر على الأرض، البشر والبهائم وكذلك عناصر البحار، القطعان والطيور الملونة بألف لون ولون، تتهافت نحو تلك الرغبات وتلك النار: الحب هو نفسه عند الجميع ».

وأدرك جان أن ڤيرجيل ليس ريفياً على الإطلاق. قرر أن يغير طريقته: لن يُري قصائده للماركيز بعد الآن، سوف يحتفظ بها لرسائل ابن عمه، لكن ذلك لن يكون سبباً كي يحرم نفسه من حماسته والنقاش معه ، إذ لم يعد يجيب عن أسئلته فقط، بل كانا يقتسمان الأدوار ويتلاعبان بالكلمات كأنها سهام يمكن أن تجرح دائماً، لكن الطريقة التي كانا يسدّدان بها الكلام ويتراشقانه كانت تجعلها أقل وقعاً من طلقات سلاح. كان أنطوان يذكر مراراً في رسائله أسماء الغزل الظريفة التي تطلق على سيدات باريس، يتحدث عن الميل إلى الكلام اللاذع، عن المسرحيات الرعوية، كيف يلتقي في بعض الأمسيات الرجال والنساء معاً حتى وقت متأخر من الليل، أمسيات تقدّم فيها أطايب الطعام ولا يُذكر اسم الله على الإطلاق، يحكي عن الأزقّة والصالونات والفنادق. كان جان ينهل من هذه الحكايات كي يُغذّي مؤلفاته السريّة، أحياناً كان يشعر بدوار يجبره على مغادرة الصف فجأة.

- ماذا أصابك؟ سأل هامون.
- لا أعرف، أظن أنني أؤلّف الكثير من القوافي، هذا يدوّخني.

- هذا ما أسمعه عنك. عُدْ إلى المزيد من المنطق والحزم، اتبع نصائح معلّميك.

- أودّ الذهاب للعيش في باريس.

أمسكت يد الطبيب بالجدار أمامه.

- إن الضجر من الأماكن يؤدي بنا إلى الضجر من الأشياء، أجاب، عِش في الله.

دنا هامون، ووضع على جبينه خرقة مبللة أضاف فوقها بضع قطرات عطرة.

- أنا نفسي أرغب مراراً في خلوة أبعد، مع مزيد من الندامة، في مكان غير هذا المكان.

بعد هذه الفكرة، اكتأب جان. لم يكن ليحتمل غياب هامون، رأى في ألمه مثالاً عن الألم الذي سببه توّاً لمعلّمه. أغمض عينيه، لكن تبكيت ضميره لم يجعل حركات الطبيب أكثر رقة. للمرة الأولى نظر إليه كرجل عجوز... نحيل... يقتات الماء وخبز النخالة، يتناولها في قصعة كلاب كي يعطي حصته للفقراء. ليذهب إلى «لاتراب»[1]، ليذهب إلى الشيطان، أما هو فسوف يذهب إلى باريس! لم يشعر هامون بغضبه، بقيت يده برهة فوق وجه جان، ترتجف أصابعه المتباعدة قليلاً.

- دعني أحكي لك قصة، قال.

نَفَسه الحامض خنق جان الذي كبت شعوراً بالغثيان.

كنت ولداً صغيراً في بيتي عندما انهار جملون السقف فجأة ومعه كل البيت. لم أكن قد بلغت الخامسة بعد، ومع ذلك، في كل يوم

(١) لاتراب: دير يقع في أورن في فرنسا لايزال يقيم فيه الرهبان حتى اليوم.

تحيط بي صور الكارثة هذه، صور سريري الذي تحطّم تماماً. انهار كل شيء من حولي وكان من المفترض أن أموت. سوف أدين دائماً لله بحياتي بفضل عنايته. ليس بوسعي العيش إلا به. ولكن ليس هذا هو المهم. المهم هو أنني لو متّ في ذلك الصباح لمتّ مُذنباً.

- مذنباً، ولكن بماذا؟
- وقعت تلك المأساة في عيد الملوك، وعشيّة العيد كنت قد أفرطت في ما لذّ وطاب.
- آه... قال جان مذهولاً.

ما كان يحبّه في القصص التي يرويها هامون هي التحوّلات التي تطرأ على البشر. مثلما يحدث في الأساطير: مثلما تحوّل «دانايه» إلى مطر من ذهب. تخيّل جسد هامون النحيل يتغطّى فجأة باللحم المكتنز.

- منحني الله فرصة، بوسعي أن أحكي لك الكثير من القصص الأخرى.
- أعرف... مثل قصة الشوكة المقدّسة، لكن سبق ورويتها لي.
- لا تكن وقحاً إلى هذا الحد.
- سامحني، اعتذر جان.

لا شيء في حياته كلّها كان قريباً من هذه الحقيقة الإلهية، فهو لم يخضع لأي نوع من أنواع التحوّلات، ولم يعثر على الله بعد. كان نظره يحاول التخلّص من تينك الحدقتين السوداوين عندما شاهد عن يساره فجأة لفافة صوف وصنانير خشبية.

- لسنا وحدنا؟ قال جان مضطرباً وهو يتساءل لمن يمكن أن تكون هذه الأغراض.
- ولكن ماذا تقصد؟ تمتم الطبيب.

- شغل الصوف هذا... هناك... هل...؟
- هذا هو الشيء الوحيد الذي وجدته كي أشغل يديّ دون أن أبلبل ذهني. يمكنني هكذا أن أكمل قراءاتي.
- وماذا تفعل بعدئذ بالقطع التي تحوكها؟
- ليس هذا هو الغرض.

أغمض جان عينيه من جديد كي يبعد عن ذهنه هذا الحديث العصيّ عن الفهم. لا يتعلّق الأمر حقيقة بمعرفة كيف يوزّع هامون لاحقاً ما يحوكه على الفقراء، ولكن كان يريد أن يفهم كيف بوسع رجل أن يخبئ كل هذا التناقض في داخله؟ أقلّهُ هو عندما يكتب، كان يشعر أن عينيه ويديه في توافق تام. انطبعت تحت جفنيه بإصرار صورة الطبيب منحنياً على شغله الصوفي، طقطقة الصنانير، الصوف الخشن، العينان الكفيفتان عما تصنعه اليدان. شعر بالغيظ يملأ كل كيانه من هذه الرؤية البائسة، الراهب في لباس مضحك كأنه فلاحة ترمق بعين الشهوة وهي تحلم بالعناية الإلهية. نهض وهرب يجري مسرعاً. في ذلك المساء، عندما جاء الماركيز يقرع باب غرفته، بقي جان ساكناً وصامتاً أكثر من أي وقت مضى، وكأن احتقار العالم برمّته قد حلّ به.

بعد عدة أيام تلقّى زيارة استثنائية من رئيس الدير في بور رويال الذي شرح له أنه بحاجة للابتعاد عن الدير وقتاً قصيراً، لكنه عائد بالتأكيد. حينذاك، طلب من جان أن يسهر على كتبه.

- إنها الممتلكات الوحيدة التي أحرص عليها، أعهد بها إليك، قال مشدّداً، سوف نضعها هنا في القصر كي لا تنالها الرطوبة كثيراً، وأنت شخصياً من سيسهر عليها، أليس كذلك؟ ضع ماء في القصاع كي لا تقرضها الفئران، نظّفها بين الحين والحين.

أومأ جان برأسه.

- ولكن إلى أين أنت ذاهب؟ سأل.

- إلى باريس.

عندما شرح له المعلّم أن المدينة مكان أكثر أماناً لمعتقداته وطمأنينته، زاد جان على كلامه حكايات ابن عمه المرحة. كانت ملامح باريس تختلط في ذهنه، حتى إنه ارتاب لبرهة في المعلّم الذي قد يكون ضاق ذرعاً بالعيش في صحراء ويرغب في إقامة الصلات مع العالم.

- كنت أود أن أسألك منذ زمن طويل يا معلّم... ولكن لم أجرؤ قط...

- نعم؟

- كان بوسعك أن تحصل على أرفع الوظائف في المحاماة، أليس كذلك؟

- صحيح.

- موهبتك بالخطابة، الكل يُجمع عليها...

- نعم.

- يُقال إنك في الأيام التي كنت ترافع فيها، كان ينسحب بقية الخطباء...

- هذه مبالغة.

- وإن الكاردينال دوريشليو كان يعدّ لك مناصب هامّة...

- وسلّمني ختماً.

- لماذا إذاً؟

- لماذا ماذا؟

- لماذا تخلّيت عن كل هذا المجد؟

- لم أكن أرغب في تغيير طموحي فحسب، إنما لم يعد لدي أي طموح قط.
- ولكن هذا مستحيل! صاح جان.
- ما يبدو جنوناً في نظر الناس لا يبدو هكذا في نظر الله يا بنيّ.
- ألم تندم قط على قرارك؟
- لا يا بنيّ، بتاتاً.

راح جان يسترجع في سريره المحادثة وأسئلته الملحّة والجريئة، وطمأنة المعلّم الذي جاء ليبدّد مخاوفه، ولكن على الخصوص تلك الكلمة التي كان يختتم بها عباراته في كل مرة: «يا بنيّ». عمره الآن سبعة عشر عاماً وغفا على هذه الفكرة كطفل يمصّ إبهامه. منذ ذلك الحين وهو مغتبط بعظمة مهمته، صار يعتني بالكتب التي عهد إليه بها. بين الحين والآخر، كان المعلّم يرسل إليه رسائل تُعلمه بإرسالية جديدة: «كتاب للعظيم تاسيت سيسلّم إليك قريباً، لا تنسَ أبداً أنه كان تلميذ كيتيليان كما أنت تلميذي». أو على العكس، كان يطلب منه أن يرسل إليه كتاب شيشرون الورقي خاصته.

بعد رحيله ببضعة أسابيع، جاء ضابط مدني مفوّض من الملك لتفتيش الأماكن وتقدير مخاطر المؤامرة. تم تفتيش ونبش كل شيء، وصلوا حتى صوامع الرهبان. في ذلك النهار، أحسّ جان بمخاوف نهاية العالم، اختبأ طول النهار تحت طاولته متنصّتاً، يسمع أي صوت كأنه تهديد باختطافه، تخيّل الحديقة الكبرى وقد عاث فيها الخراب وتغطّت أرضها بجذور الأشجار المقتلعة ومخازن الغلال سابحة بالدماء. انكبّ على قراءة «تاسيت». يبدو أن الولع بالسلطة يجعل الناس مجانين، عنيفين. على هامش النسخة التي أرسلها إليه معلّمه،

دوّن بيد هادئة: «جنون»، ثم «روما». في المساء، علم أن الضابط المدني قد رحل كما جاء بعد أن وجد مستودعات الغلال فارغة تماماً والرهبان منقطعين إلى الصلاة، فأحسّ بالفرج.

- لحسن الحظ لدينا القصور، أبدى الماركيز الصغير ارتياحه وكأنه لم يشعر بأي جزع. ولكن ما بالك تبدو هكذا؟
- أنا مشغول البال.
- كأنك تغيّرت! لم تعد مضحكاً.
- ليس لديّ طبيعتك المرحة.
- أحمل إليك خبراً.
- ما هو؟
- ليس هنا، دعنا نلتق في المناسك هذا المساء بعد العشاء.
- لا أعرف.
- أقول لك تعال، ختم الماركيز آمراً.

جلس الصبيان أحدهما قبالة الآخر. تحت ضوء قمر في ربعه الأول، كان ظلّاهما المتماثلان في الحجم تقريباً يخفيان فرق السنوات السبع فيما بينهما، لا بل كان طيف الماركيز يبدو أكبر بقليل. كانت الأشجار تبدو من حولهما هائلة الحجم. رفع جان رأسه فانتابه دوار، عاد وخفضه فوراً. تشبّث بالمقعد الحجري وهدأ. لم يلحظ الماركيز اضطرابه.

- سوف أروي لك قصّة «يوم غيشه»[1]، قال له.

---

(١) يوم غيشه: قصة أنجيليك رئيسة دير بور رويال. حدثت في ٢٥ أيلول من عام ١٦٠٩، قررت يومذاك الاحتباس وعدم رؤية الأهل والأقارب تبعاً لقوانين رهبنة ترانت. رفضت رؤية والدها باني الدير وممّوله.

- أعرفها عن ظهر قلب. هل تذكر؟ هذه أول قصّة يحكونها لنا عند وصولنا إلى هنا.
- لا، لا لم يسبق لك أن سمعتها بهذه الطريقة.

بدأ الماركيز يمشي بحركة دائرية وبخطى واسعة.

- الأم أنجيليك، اسمها الحقيقي جاكلين. هي ثالث بنت لعائلة من عشرين ولداً، هي بالذات لم تحظَ بحب والديها. لكن كان جدّ جاكلين يحبها كثيراً، ولأنه كان خائفاً على مستقبلها بين هذا العدد الكبير من الإخوة، وجّهها إلى الدير. في الحادية عشرة من عمرها لبست لباس المبتدئات هنا بالذات، لكنها لم تكن تحب ذلك، كانت نبيهة جداً و... كثيرة الدعابة.
- كيف تجرؤ؟
- هذه كلماتها هي. كانت تمضي وقتها في التنزه خارجاً، تقرأ الروايات والتاريخ الروماني. نُقلت إلى دير «موبوسيون» حيث أصبحت بحماية أنجيليك ديستريه أخت غابرييل الجميلة. عُيّنت جاكلين حينذاك رئيسة لدير بور رويال، لكنها كانت تمقت حياة الدير كثيراً وتكرّس القليل من وقتها للصلاة. بما أنه كان من المستحيل العودة إلى الوراء، سقمت، هزلت، ووقعت فريسة المرض. في سنّ السادسة عشرة عادت جاكلين إلى بيت ذويها لبعض الوقت كي تستعيد قواها، لكنها لم تلقَ سوى العداء والبرود. بينما كانت تذوي في سريرها، كان والدها مشغول البال بدعوتها الربانية وبالثروة التي وضعها في الدير، كان عليه أن يجعلها توقّع من جديد على استمارة. اقترب من جاكلين، أخذ يدها، وساعدها على التوقيع وهي شبه نائمة، بالكاد تستطيع الرؤية.
- أنت تبالغ، أنت تختلق، وكفّ عن تسميتها جاكلين هكذا!

- رحلت جاكلين إلى الدير مجدداً، وعكفت على دعوتها الربانية. كان يمكن الظن بأنها رضخت أخيراً، ولكن لا! بعد خمس سنوات على ذلك حاولت مرة أخرى الهروب إلى «روشيل»، لكنها وقعت فريسة المرض من جديد ولم تنجح في ذلك. كان ذلك في العام١٦٠٧م. قبل يوم غيشه الشهير بسنتين.
- ما القصد؟
- هل ترى إلى أين أريد الوصول؟
- لا... قال جان بجفاء. في عام ١٦٠٨م تأثرت تأثراً شديداً بموعظة راهب كبوشي، وهكذا دخلت في حياة الله بشكل نهائي.
- عندي رواية أخرى عن هذه الموعظة، ولكن لندع هذه. في الخامس والعشرين من أيلول عام ١٦٠٩م عند الساعة الحادية عشرة، كان والدها ووالدتها يقتربان من الدير، كانت الراهبات في غرفة الطعام، سُمع صوت عربة الخيل في الفناء، ولكن منذ الفجر كانت قد رُفعت كل المفاتيح، جاكلين بنفسها هي التي اقتربت من الباب الذي كان والدها يقرعه. فتحت الكوّة، عرضت عليه أن يراها في قاعة الاستقبال الصغيرة من خلال النافذة الصغيرة في الباب المعدني. ثارت ثائرته، صار يقرع أقوى فأقوى، لكن جاكلين لم تضطرب، نعتتها أمها بالجاحدة، ووالدها بقاتلة الوالدَين، كان صراخهما يدوّي في أرجاء الدير، حتى إن الراهبات هرعن مذعورات. سبّهن الوالد واتهمهن بالعار. أسندت جاكلين جبينها إلى الباب كي لا يُغمى عليها. رحل والداها في آخر النهار دون أن يتمكّنا من دخول الدير. هذه هي قصّتها، انتهيت.

عاد الماركيز إلى الجلوس وانتظر.

- ما رأيك إذاً؟

ذُهل جان وصار الهواء من حوله ساكناً على نحو يدعو لليأس. وقف ومشى ضمن الدائرة حزيناً وحائراً.

- قل شيئاً!

- ليس هذا سوى خيال خبيث النيّة ما رووه لك. أنت تعرف تماماً كم يجدر عدم تصديق قصص كهذه، وخصوصاً في هذا الوقت.

- في الحقيقة أنت تكره أن أكون أنا من يخبرك شيئاً ما. لو كان ابن عمّك هو من...

- لم يكن ابن عمي ليجرؤ! لنعُدْ.

- سيكون هذا سراً فيما بيننا إذاً؟

- لنعُدْ.

أثارت حكاية الماركيز أفكاراً متقاربة حاول جان جاهداً أن يحتفظ بها. لكنها كانت تتضخّم رغم ذلك. عاد ليصعد السلّم بدرجاته المائة صامتاً، أسرع من الماركيز الذي كان يعدو خلفه. هل أسّست الأم الرئيسة رهبنتها على أساس من الكآبة المبتذلة؟ وهل الكآبة مبتذلة؟ وهل هناك سبب أقوى من ذلك يمكن أن يُصدّق؟ كانت تبدو كل دعسة من خطواته كأنها توقظ بين الحجارة فحيحاً خفياً وتموجات سمّ يسيل داخل إناء من العسل. تساءل إذا كان الماركيز يسمعها هو أيضاً.

في تلك الليلة لم يغمض له جفن. راح يُمرِّر أصابعه فوق مغلّفات كتب المعلّم، ثم توقّفت عند غلاف أنعم من الأخرى. سحب الكتاب من بين الكومة، كان عبارة عن دفتر مليء بالملاحظات المكتوبة باليد. لا شك أن معلّمه تركها سهواً. تردّد جان، إنها ملاحظات عشوائية، مقاطع لاتينية مترجمة من اليونانية، تعليقات لم يسمعها قط من فم

المعلّم: «الترجمة الحرفية هي جسد بلا روح تماماً، الجسد فيها بلغة والروح بلغة أخرى»، «الكثير من الإخلاص يؤدي إلى الخلط بين رجل ميت ورجل حيّ». كان المعلّم يعبّر عن نفسه بجموح لم يعهده به. كان جان يقرّب شمعته، يقرأ ويقرأ. يتحدّث المعلّم عن اللغات كأنها أشخاص، كائنات معقّدة يلتزم البشر تجاهها. وأكثر من ذلك أيضاً، لم يتوقف عن ذكر ظرافتها وجمالها. راح جان يقلّب الصفحات على مهل أكثر فأكثر. ثم صارت المقاطع أطول إلى أن شكّلت حاشية نص أطول من كل الحواشي السابقة. «إنه نشيد ديدون»، قال جان مذهولاً. كانت الكلمات الفرنسية تتراكب بعضها فوق بعض، تتراصّ من حول التشطيبات. الأبيات نفسها كانت مترجمة مرتين أو ثلاث مرات متعاقبة وكل منها بطريقة مختلفة. راح جان يقرأ بصوت عال، لكن لا شيء كان يعجبه. العبارات طويلة جداً، الفواصل شديدة البروز. أحضر الدفاتر التي ملأها هو نفسه في بوڤيه خبأها في خزانة صغيرة. قارن جمله بجمل المعلّم كلمة كلمة، كان يفضّل جمله. ثم قرأ: «ثلاث مرات اعتدلت في جلستها تستند إلى مرفقها، وبجهد جهيد نهضت قليلاً، ثلاث مرات تقلّبت فوق الفراش، وبعينيها الهائمتين في السماء العالية بحثت عن النور وانتحبت حين رأته». هذا جميل لكنه أسلوب طنّان، فكّر جان، لا نحسّ بحركة الذراع، كأنها لا تنبسط. أمسك عندئذ قلمه ودوّن فوق كلمات المعلّم: «ثلاث مرّات اعتدلت في جلستها، في كلّ مرة كانت تستند وتنهض قليلاً، ثلاث مرات تقلّبت فوق الفراش، بعينيها المجنونتين كانت تبحث في السماء عالياً جداً، تبحث عن النور، وعندما وجدته، مرة واحدة فقط، بكت». لا يحق لي ذلك، قال لنفسه وهو يشطب حانقاً ما كتبه في الحال. رمى قلمه ثم وقع نظره إلى الأسفل قليلاً على ترجمة أخرى.

كان يعرف كل كلمة فيها وكأنه هو من كتبها، لأنه هو من كتبها تحديداً. كان قد عرضها على المعلّم الذي رفضها نهائياً أمام الجميع. وقف جان مضطرباً من كل هذه الإثباتات على عدم تقديره... منه... من المعلّم. راح يجوب غرفته بعصبية وبخطى واسعة. عاد وجلس إلى طاولته، قلّب صفحات أخرى من الدفتر وقرر أن يحفظ منها هذا التعليق الأخير: «الإيجاز في اللاتينية الذي يتفوّق على اليونانية قد يجعل الترجمة غامضة جداً. يمكننا إذاً إطالة الترجمة ولكن يجدر أيضاً العثور على الطول الملائم». أخذ جان قلمه ونقل إلى دفتره بهدوء هذه الملاحظة. نفخ على شمعته وفي داخله شعور أنه تعلّم أقلّه سطراً في السلوك في قلب اضطرابه. في الأساس نحن متفقان، قال لنفسه وهو يغمض عينيه، لكن جفنيه ظلا يرتعشان وقتاً طويلاً من شدة اضطراب أعصابه.

تغيّر شيء ما بينه وبين الماركيز، وكأن الأم أنجيليك لم تعد الصورة المتزمّتة التي كانت تنظر إليهما بازدراء في غرفة الطعام، بل فتاة في السادسة عشرة من عمرها يمكن أن تشاركهما في أحاديثهما. أثناء العشاء، كانت نظراتهما تلتقيان أحياناً فوق اللوحة فيهشّان ابتسامة ليس أكثر.

ذات صباح بينما كان جان يسير في الممر الطويل لمح حقيبة. أخبره الماركيز أنه عائد إلى باريس لأن عائلته قررت ذلك وتوسّل إليه أن يوافيه بأسرع ما يمكن. كان جان يعرف كيف يُظهر وجهاً خالياً من المشاعر لكنه كان يائساً. وعندما شاهد الحقيبة تُرفع إلى العربة، أحسّ بشريان ينقطع في داخله. لم يعد له رغبة في شيء. كان يستلقي في سريره في عزّ النهار، يغيب عن الصف، ينظر إلى السقف

ساعات وهو يفكّر أن الوضع يصبح على هذا الشكل إذاً حين يصبح المرء رجلاً، يبقى يتقلب ساعات مثل خشبة في قلب الأمواج. سأل جان نفسه إذا كانت جاكلين قد شعرت بذلك في الماضي.

لم يعد يأكل ولا يدرس ولا يصلّي. خاف عليه معلّموه وراحوا يتناوبون عند سريره. كان لانسلو يتحدّث مع هامون في زاوية من زوايا الغرفة. لم يكن جان يميّز من همسهما غضباً أو نفاد صبر. أحياناً كان الطبيب يمسك بيده ويتحسّس سلامياته واحدة تلو الأخرى مثل مسبحة صلاته.

عندما جاؤوا يخبرونه أنه هو أيضاً سيذهب إلى باريس فتح عينيه. استلزم لجسده بضعة أيام كي يستوعب الخبر، استعاد نشاطه وابتسامته ومتعة قراءة رسائل ابن عمه ورسائل الماركيز التي كانت قد وصلت منذ وقت قريب. أخيراً ذات صباح، حين استطاع أن يجلس من جديد إلى طاولته، كتب له:

رحيلك مع الأيام، اقتلع من قلبي كل أمل بالعودة
بشّروني بخبر أعاد الشرارة إلى روحي
سوف أغادر هذه الصحراء أخيراً
وأدنو من أرض الله الواسعة
أرض يُحكى عن أشجارها الزاهرة
بظُرف الكلمات وأحلاها
وأغنّي في جوارك
عبر الضواحي، عبر الأحياء
ويعود للّقاء
قلبانا المحبّان
في قلب باريس.

كان قد توقّف عن تأليف الأبيات منذ أسابيع، وبالرغم من أنها كانت رديئة وتافهة، إلا أنه أحسّ بمتعة جديدة كانت تدفعه نحو قاعة الاستقبال كي يخبر خالته برحيله. استقبلته ببرود وأوصته أن يأخذ أقصى درجات الحيطة. بعدها وعلى الفور، ذهب لرؤية هامون. لا هامون ولا خالته فهما نفاد صبره وفرحه، غير أن ذاك الإحساس بالنشاط الذي استعاده لم يفارقه. كان بوسعه أن يرتاب بخبرتهما وحكمتهما، ولكن ماذا سينفعه إذا صلّى ودرس إن كان لا يشعر بالحياة تجري في داخله؟ نظر مطوّلاً إلى الطبيب وتساءل ما الذي يمكن أن يجري حقاً تحت هذا الوجه الشمعي النحيل؟

١٠

عبر نافذة عربة الخيل التي كانت تقلّه إلى باريس، أدرك جان أن بالإمكان عبور الأماكن مثلما تعبرنا الأحاسيس: تتراجع الأشجار المألوفة بينما تدنو أشجار جديدة بأعداد كبيرة. كانت تختلط ذكرياته بآماله دون شك وهو يتخيّل ما لم يره حتى الآن. كان حزيناً وجذلاً في الوقت نفسه، ولكن لم يكن لديه ثروة ولا لقب، لم يكن لديه سوى طموح وحيد: تأليف أبيات شعر تنال الإعجاب وتبقى. عوض الاتكال على النسب أو العناية الإلهية، عليه أن يفكّر من كل بدّ في مهنة. دخل تعبير «نيل الإعجاب» إلى قاموس مفرداته.

جاء الماركيز يستقبله في فناء الفندق. كانا قد صارا متساويين بالطول الآن. كان جان يجهل ما الذي يفرحه أكثر: لقاء صديقه أو العيش بالقرب من النهر.

- لا تبدو مسروراً برؤيتي!
- بالعكس، أنا مسرور جداً!
- ليس بقدر سروري، ولكن لا بأس، أنا معتاد ذلك. أحذّرك من الآن فصاعداً عليك أن تناديني شارل وأنا سأناديك جان.

وافق جان، تعثّر ببلاط الممر فأمسك به شارل. انتهى ما كان في الماضي، فكّر جان، هنا في باريس، هو المعلّم.

في المساء التقى جان ابني عمه اللذين لم يكن يعرفهما حقيقة إلا من خلال رسائل أنطوان. كان نيكولا البكر قد أصبح قهرمان

الدوق والد الماركيز. تهلّل وجه شارل أمام حرجهم، فهم أقرباء بشكل ما دون أن يكون بينهم أي شيء مشترك، بينما كانت العلاقة بينه وبين جان مقرّبة جداً. فهو قد رأى جان في كل حالاته: عندما يستيقظ في الصباح، عندما ينام ويخاف ويتمرّد ويخجل ويضحك. ولكن هذا لم يمنع من أن يتحرك أحد الأخوين ويدنو من جان في كل مرة كان جان يدنو منه، مرة أنطوان ومرة نيكولا الذي لا يكفّ عن كيل المديح.

- ابن عمي موهوب جداً. أشاد معلّموه كثيراً بلغته اليونانية واللاتينية وبإلقائه، يبدو أنه يلقي «إيشيل» كما لم يُلقها أحد مثله.
- إيشيل ليست مسلّية جداً! قالت إحدى النساء تعجّباً.

ابتسم جان، خفض بصره، لم يكن يعرف كيف يسيطر على انفعالاته. لم يسارع شارل إلى نجدته ولا بأي شكل. أراد أن يقول كلمة، أن يردّ، أن يشكر، ولكن لم تسعفه الكلمات. لم يسبق له أن رأى هذا قطّ، كل هذه الوجوه المبتسمة، نار المدفأة الهائلة التي يدأبون في تأجيجها، الكراسي، الأطباق والمشروبات التي تقدّم إليه. وبشكل خاص وجود النساء والرجال معاً في المكان نفسه، يتحدّثون بلغة جديدة. عرض عليه شارل أن يرافقه إلى غرفته. اضطر جان إلى الاستناد إلى الجدران قليلاً وهو يمشي.

- كأن السفر أتعبك؟
- دون شك.
- وكل أولئك الناس أيضاً؟
- لست معتاداً.
- ماذا كان ليقول عن كل هذا أبونا الطيب هامون؟

توقّف جان وعيناه تقدحان غضباً.

- لا تقل لي: إنك بدأت تشعر بالندم منذ الآن؟ سأل شارل.
- لا بالطبع.
- سوف تعتاد، لا يساورنك الخوف. أنت تعرف تعلّم اللغات وسوف تتعلّم هذه.

دخل جان غرفته، استلقى وقد انتابه إحساس بالتخمة. إنها لغة سلسة جداً وشديدة العذوبة، لا وقت للتأمل فيها. نهض كي يتقيأ .

على مرّ الأسابيع بدأ يكوّن عادات جديدة. عوضاً عن أن ينكب على «كينتيليان» أو «تاسيت» منذ استيقاظه تبعاً لنصيحة أنطوان، قرر أن يجوب خارطة تاندر[1]. لم يفهم عمقها كله ، لكنه تعلّم بكل يُسر مجموعة من المفردات يسود في مركزها نهر اسمه «انحناء». انتزع جان هذه الكلمة كما يسلخ اللحم من العظم، وراح يلفظها بكل الطرائق الممكنة مغيّراً النبرة، الإيقاع، طول المقاطع الصوتية، استخدمها في جمل مبتكرة ليراها تنبثق في كل المواضع، تارة اسم جنس وتارة اسم علم. فكّر أن حياته الجديدة سوف تتبع مجرى الأنهار، مجرى نهر الرواية وكذلك مجرى نهر السين الذي يجري على بعد بضعة أمتار منه تقريباً. إن كان في الماضي يتمثّل باستقامة أشجار الوادي، عليه الآن أن يتحوّل إلى انحناءات الحياة المتعرّجة في هذا العالم. كان هذا الانتقال يجعل قلبه أحياناً يصطفق بقسوة تقطع عليه أنفاسه، لكنه كان يهدّئ نفسه: ما يهم هو أن يكون للمرء اتجاه مهما كان هذا الاتجاه. تذكّر رواية إليودور، قصة العاشقين

(١) خارطة تاندر: مصوّر لبلاد متخيّلة تدعى تاندر من القرن السابع عشر، رُسم عليها أشكال قرى وطرقات ونهر. تُنسب إلى فرانسوا شوفو.

الفتيين، وعندما كان يستظهر منها مقاطع، كان يحاول أن يضيف كلمة «انحناء» الشهيرة، وعلى الرغم من ذلك، كان يقول لنفسه في كل مرة: إن الأمر لا يصلح، الكلمة مائعة جداً ورقيقة، لا تصلح في هذا التيار الجارف الذي يدفع الشخصيتين إحداهما نحو الأخرى. في النهاية اعترف لشارل أن أكثر ما يحب في «خارطة تاندر»، هو البحر الخطير والأراضي المجهولة.

- ولكن لا يقال عنها الشيء الكثير، أردف قائلاً.
- العواطف لا تهم أحداً هنا، قاطعه الماركيز.

تعلّم جان بسرعة. بعد أسبوعين لم تعد لغة الصالونات غريبة عنه. كان يفهم منها التعابير والنوادر والإيماءات. كان يستبق بدقّة الضحكات التي تربط بين العبارات شأنها شأن الكلمات تقريباً. وكانت هذه مادة سمعية جديدة. كان يراقب، يحاكي، يصوغ ردوداً سريعة لا ينطق بها البتة، فهو لم يستعد صوته بعد. كأنني مراهق استغلظ صوته. فكّر جان. باستثناء النكات التي كان يتبادلها مع الماركيز، لم يسمع جان أحداً يضحك قط في بور رويال. ربما بعض الراهبات من بعيد، ولكن بين معلّميه وفي مخازن الغلال: لا أحد. أغمض عينيه برهة، بذل جهداً ليتخيّل ضحكة لانسلو أو هامون أو خالته، لم يسمع شيئاً.

في إحدى الأمسيات، عندما صُفّت الأرائك دائرياً من أجل لعبة، تخيّل جان فجأة فوق دائرة الضوء هذه دائرة أخرى من النسّاك. حرارة الأولى تقابلها نداوة الأخرى، والضوء تقابله الظلمة، وسلاسة الكلمات في الأولى يقابلها صمت كئيب. يبدو أن كل الحيوات تحتاج أن تتحلّق حول مركز ما، قال لنفسه.

- بماذا تفكّر؟ كأنك لم تعد معنا... سأله شارل.

- كنت أتذكّر تلك الأمسية في المناسك، عندما رويت لي فيها قصة جاكلين.
- أما زلت حاقداً عليّ؟
- لا، أحاول فقط أن أتخيّل جاكلين في هذا الصالون، الحياة الأخرى التي كان يمكن أن تعيشها.
- هل كانت ستكون أكثر سعادة؟
- أو أكثر تعاسة؟

لم يحاولا أن يصلا إلى جواب، لم يتصادما، وعادا للانخراط في الأحاديث المتبادلة التي كانت تدور في القاعة. كان هناك دائماً ابتسامة على وجه جان. إنه زمن الموسيقا الجديدة، إيقاع جديد لضربات قلبه ينطبع فوق جبينه. لا الصلاة ولا الكتّاب أثاروا في داخله هذه الخفّة مثل زبد البحر التي كانت تدفعه لارتقاء السلالم كل درجتين معاً أو للركض في شوارع باريس. كان يتخيّل زبد الأمواج يستقر هكذا فوق الصخور، إذ إنه داخل كل كائن، هناك صخر وزبد.

١١

- لا شيء يعادل لطفك سيدتي سوى رقّتك.

تلك هي الكلمات التي وجّهها جان إلى زوجة ابن عمه البالغة اللطف والرقّة معه، أول شيء قاله بصوت عالٍ وأمام الجميع.

نظر إليه شارل ذاهلاً بينما كان الجميع يبدون ارتياحهم من هذا النوع من المواهب، وهذه السهولة بالانتقال من بلوتارك إلى المجاملات الأكثر رقّة. لكن شارل لم يعد يطيق صبراً. هل سمعت نفسك ؟

- ألم يعجبك؟

ابتسم شارل.

- جان، لا شك أنك تتعذّب.

- دعني وشأني، أنت تضايقني.

أدرك جان في ذلك المساء أنه يجدر به التخلّص من الماركيز مثلما يتخلّص من شعور دائم بالذنب يكبّله بالرصانة التي يريد الابتعاد عنها. في نهاية المطاف هذا سهل عليه، قال لنفسه، إنه ماركيز، كل شيء ممكن بالنسبة إليه. لم تكن ملاماته سوى أثقال تشدّ به نحو الخلف. إذا كان قد استحضره إلى هنا فهو لن يأخذ به إلى أبعد من ذلك، لذا قرر تجاهله.

سكن الحزن في عيني شارل. ذات صباح قرع باب جان لكنه لم يردّ.

- الأمر هام.
- عُد بعد ساعة.
- جان... هناك شخص مات.
- لم تعد تعرف ماذا تختلق كي تقاطعني.

ذهب جان ليفتح غاضباً. مدّ له الماركيز الرسالة التي تلقّاها والده منذ قليل والتي تخبره بموت أنطوان المعلّم. جلس جان.

- لا يبدأ الحزن بالحزن، قال لشارل بعد برهة. ليس لدي رغبة في البكاء.

كانت أفكاره تتزاحم.

- يلزم وقت لتقدير المسافة التي ستفرّقك عن أحدهم. تكون قريباً جداً منه وفي اليوم التالي يصبح بعيداً، الذهن لا يدرك، عليه أن يتكيّف، المرثاة هي بكاء اليوم الثاني وليس اليوم نفسه، لا تبكِ في اليوم نفسه.
- بالتأكيد، سوف تدهشني دائماً، قال الماركيز خائباً لأنه لم يتمكّن من مواساته.
- عليّ العودة إلى الدرس.

عاد وأمسك قلمه، لكن يده كانت ترتجف. كتب كل عبارات «كينتيليان» التي تذكّرها، وعبارات «تاسيت»، وفكّر في مجلّدات المعلّم كلّها التي سهر عليها طوال أشهر في القصر. سوف أعيش في داخلها، قال لنفسه، لكنني فقدت توّاً آخر إنسان كان يناديني: يا بنيّ.

اندفعت الدموع، دموع أليمة لأنها كانت تخرق ممانعته، مع ذلك أراحته. استعادت عيناه أخيراً قابليتهما للحركة، وتحرّرتا من

ذاك الخبل الأليم الذي جمّدهما به الخبر. بعض الدموع تُذرف في اليوم نفسه إذاً، قال متيقّناً.

عندما عاد إلى حلقة الصالون تحاشى كل النظرات التي كانت تحاول أن تُعبّر له عن تعاطفها، حتى نظرة ابنة عمه. تصرّف كما يفعل كل مساء، على الرغم من أنه كان قد أمضى النهار كله مع لغة كينتليان، إلا أن ألف فكرة كانت تراوده. إنها لغة حكومية، لا يستطيع أناس هنا أن يتكلموا بها. لغة أميرية أراد المعلّم أن يرسّخها في ذهنه منذ طفولته، في حين لم يكن لديه شيء من الأميرية لغة جافة وموجزة لا تبحث عن نيل الإعجاب إنما عن الإقناع، بينما كانت اللغة هنا حمحمة واختيالاً ودلالاً، لا أحد هنا يفرض رأيه، وكل يتحدث بدوره. لا أحد يحاول أن تكون له الكلمة الأخيرة، بل أن ينال الإعجاب، وخصوصاً إعجاب السيدات. في ذلك المساء عاد جان وصعد إلى غرفته منهكاً من سماع تينك النبرتين تتشابكان في داخله، إحداهما مثل صليل السيوف الثقيل، والأخرى مثل رنين ضحكة ابنة عمه البلورية.

- لماذا يريد الجميع نيل إعجاب السيّدات إلى هذا الحد؟ سأل في اليوم التالي ابن عمه نيكولا.
- لنتأمّل يا بنيّ... عندما لا تكون من أصل عريق يبقى لديك الثروة، والثروة مرتبطة بالمصاهرة، لن يكون أمامك خيار آخر.

أومأ جان برأسه وهو يشاهد النظرة الغيورة لدى شارل الذي لم يعد يحاول منذ بضعة أيام حتى أن يقترب منه. نعم، كل هذا السحر الظاهر للعيان، قال لنفسه، كل هذا اللطف ليس سوى حُجُب للتمويه، حُجُب تخفي تحتها الرهان الأساسي: المصلحة. يتظاهرون بالحديث عن الحب فقط، في حين لا يفكّرون سوى في

المـال. يوجـد كل هـذا في لغـة، تلـك المراوغـات، تلـك المباهـاة. لأول وهلـة ذهـل من هـذا الاكتشـاف، لكـن في الأيـام التالية لم يتركـه الحزن مرتاحـا. كان عليـه باسـتمرار أن يوقـف التيّـار الـذي يفعـل فعلـه ضد أفـكاره وأعماله ومشـاريعه. كلمة واحـدة كانت تذكّـره بمعلّمه، حركة يلاحظهـا عنـد أحدهـم، رائحـة ورق أو غبـار. كان يتخبّـط دومـاً كي يحتفـظ بنظـرة عاليـة وواضحـة، ولا يدع المـاضي ينغّص عليـه الحاضر. لم يكـن يبـوح بسـرّه لأحـد، في حـين كان يمكـن أن يشـارك في بعـض الذكريـات مـع الماركيـز الـذي لم يكـن ينتظـر غـير ذلـك، أو حتـى مـع أبنـاء عمـه الذيـن عرفـوا المعلّـم أيضـاً فيـما مـضى، لكنـه لم يكـن يريد، كان يحتفـظ بحـدوده وحواجـزه. هنـاك بـور رويـال وهنـا باريـس، لو بـدأ يخلـط بينهما فسـوف يضيع. حينئـذ قرر أن يكتـب إلى خالتـه. أقلّه، الحـدود معهـا واضحـة تماماً.

«يلقـي بي الحـزن في نهـر صاخـب، إذ إن خفقـات قلبـي تسـعى إلى التذكـير بـشيء مفقـود، ميّـت. يخـال إليّ مـرّات أنـني أبـدّد بذلـك كل قـواي كـي أجـد نفسي في المسـاء ميّتـاً مسـتنزف الدمـاء، غير قـادر على معـاودة الـصراع في اليـوم التـالي. لم تكـن ديـدون تقـول غـير ذلك».

شـطب الجملـة الأخيرة عندمـا فكّر في اسـتنكار خالته. ثم شـطب كل مـا سـبقها إذ إن حـب الله يعـزّي كل الأحـزان. بـدأ برسـالة جديدة عـبّر فيهـا عـن حزنـه، وكتب مقاطـع طويلـة جداً عـن حياتـه الجديدة. كان ردّ خالتـه مؤلمـاً. أدانـت تعطّله عـن العمل وذكّرته أنـه لم يطأ أرض الديـر منذ أشـهر. لم تكـن تفهـم. تخيّل لبرهة وجهها الشـاحب المسـتند إلى الحاجـز الحديـدي الشـبكي لبهـو الديـر، وفكّـر أنـه لن يعـرف بعد الآن كيـف يرسـمه بسـبب وجـوه كل النسـاء الأخريـات التـي تعـرّف إليهـا. ألوانهـن... شـعرهن... وجوههـن. سـيكون كل شيء مـن الآن

فصاعداً معيباً بالنسبة إلى ذاك الوجه الذي لم ينظر إلى نفسه قط، ولن يعرف مرايا أخرى، باستثناء تلك التي ستوضع أمامه عند الحاجة للتحقق أن النَفَس قد توقّف. ندم في الحال وأخذ قلمه من جديد كي يعدَ خالته أنه سيأتي لرؤيتها قريباً. لكن الأسابيع مرّت ولم ينفّذ وعده. كان التودّد إلى النساء يسرّي عن نفس جان كل يوم أكثر فأكثر، فهو يريد أن يواكب عصره، ينال إعجاب السيدات. عجّل في قراءة مؤلفات الكتّاب الذين سمعهم يتحدّثون عنهم: ڤواتور/ ماليرب/ سان آمان. أعاره أنطوان كتباً. عاودته ذكرى التمرينات التي كان ينهمك فيها هو والماركيز خفية في غرفته في القصر. استعاد متعة تأليف أبيات الشعر والقوافي والعمل على اللغة كأنها موسيقى. كان يدوّن المواضيع والأسماء: «جمال سيليمين»، «عمق نهر السين»، «حذاء نرسيس»، وينطلق. يؤلّف نصاً نثرياً طويلاً، يقلّمه، يقصقص منه فيما بعد. قلّما كان يهمّه الموضوع، يحدث له ألا يعود يعرف عمّا يتحدّث فعلاً... اللحن يسيّره، والقافية كالمقصّ بين يديه. كان يمكن أن يمضي ساعات من أجل وضع اللمسات الأخيرة، يحتار ألف مرّة بين كلمتين، يلقيهما بصوت عالٍ إلى أن لا يعود يسمع إلا الصوت الاحتمالي الذي يكون قد فقد المعنى، ذبذبة المقطع الصوتي الصرفة حتى يكاد ينسى الوقت وأصوات المدينة. كان يتمرّن على كل الأشكال التي يراها تحت أقلام الآخرين، غزليّات[١]، موشّحات غنائية شعبية، أبجرامات[٢].

- يمكننا أن نقضي حياة بأكملها في ثرثرة لا معنى لها، ولكن لها وقع موسيقي جميل، قال ذات مساء لابن عمه.

---

(١) غزلية: قصيدة غنائية في القرن السادس عشر في فرنسا لا تلتزم بالقافية أو بالإيقاع.

(٢) أبجرامة: قصيدة ساخرة.

– لديك موهبة القول والغناء في الوقت نفسه، ردّ عليه ابن عمه.

فهم جان هذا المديح كأنه طلب، وبدأ يكتب أنشودة لمناسبة المولود الأول لابن عمه. رأى بطن الزوجة يكبر على مرّ الشهور. لم يسبق له أن رأى شيئاً كهذا من قبل، لا بل لم يكن نظره يذهب إلّا باتجاه تلك القبّة من اللحم تحت أثوابها. في كل مرّة كان يرى وجه المرأة الشابة الناعم لا يسعه منع نظره من الانزلاق ليصطدم بالزائد من جسدها. تحت مظاهر الكياسة، تخيّل مشاهد صامتة أوقعته في خطأ كل الكلمات التي كان يعرفها. كانت هذه فرصة يحلم بها ولكن ليس أمامه سوى بضعة أيام. كان على وشك إنهاء الرباعية الثانية عندما ظهر شخص جديد في الشلّة: رئيس دير... شاب ظريف... روحانيّ... أكبر منهم سنّاً قليلاً.

أصبح فرانسوا روح الصالون وبدأ يعرض كل ما ألّفه. آلة حقيقية لصناعة أبيات الشعر، قال جان لنفسه حاسداً، لكنه كان بادي القلق لإثبات الانسجام الكليّ ما بين نداء الله وحب النساء. أمسية بعد أمسية، كان جان يراه يتقدّم مثل بهلوان، يمشي على الحبال متسائلاً إلى أي جانب سينتهي به المطاف ويقع. بعد ظهر أحد الأيام، عاجل فرانسوا جان قائلاً:

– أنت لا تقول شيئاً أبداً.

– أمهلني بضعة أيام أيضاً، أجاب جان دون أن يرتبك.

كان الماركيز الصغير حاضراً. لاحظ رباطة جأشه. لاحظ أيضاً أن عيني جان كانتا ممغنطتين بعيني الكاهن، ولا تتحركان إلا لاتباعهما، وأنه هو شارل في هذا السباق، لن يكون له مكان أكثر مما كان له في جوار أبناء العم. بعد يومين، أخبروا جان أن شارل قد رحل للنقاهة بعيداً عن باريس فدُهش من الخبر.

- لم تعد تهتم به كفاية، قال ابن العم أنطوان وهو يبتسم هازئاً.
- ماذا تقصد؟ هل أنا سبب مرضه؟
- لا يمكن أن يصل بي الحال إلى قول ذلك...

لم يلحّ جان ولم يقاطع. قد يكون إهماله السبب أو منعه من أن يراه. في الوقت الحالي، كل ما استنتجه من هذا الرحيل المباغت أنه لن يفتقد شارل، وأن الأشخاص في حياته يتوالون ويتعاقبون مثل درجات السلّم، فضلاً عن ذلك، أليس هذا هو حال كل البشر؟ أليست الظروف هي التي تشكّل هذا التسلسل، حتى دون الحاجة إلى أن نقرر ذلك. فيما مضى كان لديه معلّموه، هامون، الماركيز، أبناء عمه، والآن فرانسوا، لكن جان لم يكن وفياً لأحد.

في دائرة الشلّة، كان فرانسوا يثير حماسة الجميع. ارتفع مستوى المرح أكثر من المعتاد، صارت الأصوات تصل أبعد والضحكات أكثر صخباً، كلّ يجلجلها على طريقته. تأخرت صياغة الأنشودة مع جان ذلك لأنه في كل مرة كان يجلس فيها إلى طاولته كان يستغرق وقتاً كي يهدّئ اضطراب أفكاره. كانت الأبيات تهدر في رأسه بعضها مع بعض، تتغلغل باستمرار وتمنعه من التركيز. وحين ولدت طفلة ابن عمه لم يكن جاهزاً.

- لو كنت مكانك لما فوّت مثل هذه الفرصة! قال فرانسوا باستغراب.

اغتاظ جان وراح يعمل بلا انقطاع، لم يغادر غرفته لأيام، كان يكتب ويشطب ويرنّم قراءته، يعلو بأصوات حادة ويهمس بأصوات مجوّفة.

ذات مساء نهض أخيراً وانضمّ إلى الشلّة. استدارت نحوه كل الرؤوس. بدأ بهدوء، ثم عندما وصل إلى البيت الرابع بدأ يمشي.

كانت يده تتحرّك وكأنها يد شخص آخر تخطّ في الهواء خطوطاً، حركات ليست موجّهة إلى شخص في ذاته، تأتي لترسم فقط وتُضفي حجماً على ما ليس له حجم.

- أحسنت! قال ابن عمه بإعجاب عندما انتهى. يا لها من روعة! يا لها من موهبة!

كان جان ينظر إلى يده التي كانت لا تزال ترتجف عندما أثنى عليه فرانسوا وعرض عليه أن يصحبه في اليوم التالي إلى مكان لا يعرفه، لكنه سوف يحبّه.

١٢

إنـه مـكان ضيّـق ومـليء بالطـاولات ينسـكب فيـه النبيـذ مـع الـكلام. لطالمـا شرب جـان باعتـدال في صالـون ابـن عمـه، وفي كـؤوس صغـيرة جـداً أيضـاً. لكنـه كان ينظر إلى فرانسـوا الـذي يعبّ مـن النبيـذ مـلء أباريـق بكاملهـا ويتغـيّر صوته مـن بعدهـا، يضعف، يتلـكأ في الكلـمات، تنكشـف أمامه أثداء النسـاء المضيفات كأنها شـفاه غليظـة ممتلئـة لحـماً أبيـض لم يعـرف جـان لهـا مثيـلاً، تحيطهـا حافـات ورديـة أو صفـراء. أمسـك فرانسـوا بإحـدى الخادمـات مـن ذراعها، سـكب خيطـاً رفيعـاً مـن النبيـذ الأحمـر فـوق صدرهـا ثـم راح يلعـق السـائل عـن جلدهـا مبـاشرة. كان لسـانه يتحـرّك باحثـاً هائجـاً، بينما كان الجسـد المبلـل يهتـزّ ضاحـكاً. ثـم هـدأت الضحـكات. راح يلعق بلسـانه النبيـذ بـين النهديـن وقتـاً طويـلاً دافعـاً أطـراف الثـوب. رفع فرانسـوا رأسـه فجـأة وبدأ يعـضّ شـفتيها. كان يرغي بين الشـفاه نبيذ امتـزج باللعـاب الأبيـض. بينما كان الآخـرون ينظـرون منـذ بعـض الوقـت إلى مشـهد آخـر، لم يسـتطع جـان أن يشـيح بنظـره. وعندمـا اعتـدل فرانسـوا أخـيراً، ابتسـم وقال:

– هذه متعة لا مثيل لها، قال شبه مخبول.

لم يعـرف جـان مـاذا كان يقصـد، لكنه أحسّ بجسـده يقسـو تحت الطاولـة، ويُختـزل إلى تشـنّج في غايـة اللـذة. في العشريـن مـن عمـره، أدرك تـوّاً أن نيـل رضى السـيدات يمكـن أن يفـضي إلى شيء آخـر غـير

الحالـة الميسـورة، إحسـاس باللذة بعيد عـن المصلحة لكنه يغـيّر التفكير في سـاعات الملـل والشـدّة، إحسـاس لم يُحدّثـه عنه أحد قـط حتى الآن. شرب إبريـق النبيـذ الـذي كان أمامـه جرعـة واحدة.

استيقظ مجفـلاً في عـزّ الليـل وقـد جـفّ حلقومـه وثقـل رأسـه. لم يعـرف إن كان بخـير أو أنـه مريـض. جـلّ مـا يعرفـه الآن، منـذ أن ألقـى أنشـودته، أن الأفـق قـد اتّسـع أكثر. لم تعـد الشـلّة كبيرة كفاية. بـدأت تعـبر خاطـره صـور غامضـة، وجـوه نسـاء، أجـزاء أخـرى من أجسـادهن، سـوائل تجـري بتدفّـق. كان عليـه أن ينتظـر بفـارغ الصـبر لقـاء فرانسـوا الليلـة القادمـة.

تغـيّر إيقـاع حياته. كان يعمـل طول النهـار على مؤلفاتـه، يظهر في الصالـون ثـم يتـوارى مع فرانسـوا. لم يعد بحاجـة لإفراغ أباريـق النبيذ دفعـة واحـدة كي يندفـع في الكلام، تعلّم كيف يرتشـف ببـطء ويتذوّق مفعـول النبيـذ عـلى كلماتـه التـي كانـت تتحلّـل، تمتلـئ جـرأة وتهكـماً، تشـدّ الانتبـاه إليه أكثر فأكثر. وسـط جـلّاس المائـدة، كان يلقي حصيلة النهـار دون أن يمتنـع عـن ذكـر ڤيرجيـل وأوڤيـد وهومـيروس. كانـوا يقـدّرون سـعة معرفتـه وانضباطه المثـالي. يتحدّونـه فيبرع. حتـى ردود فرانسـوا السريعـة، كانـت تبدو في جـوار أقرانـه تافهة.

- إنه رجل فكر ذكي بالتأكيد، ولكن رجل الأدب هو أنت، يقولون له.

ذات يـوم، دون علـم مسـبق، كان فرانسـوا يثـير حماسـة جـلّاس الطاولـة وهـو يُلقـي مقطعـاً مُقفّـى مـن الأوديسـة، انتفض جـان. كان فرانسـوا قـد اختـار المقطـع الـذي تحـدّث فيـه الأمـيرة «نوزيـكا» إلى والدهـا الملك «ألسـينوس» وتدعـوه «والدي الحبيب». عـادت الكلمات

اليونانية لتضرب ذهن جان، *pappa phile*، كلمات في غاية البساطة، ملؤها الحنان، آية لن تضاهيها أي عبارة تودّد على الإطلاق. هذا لا يجوز، ردّد بينه وبين نفسه. كظم غيظه، لكنه سرعان ما خرج من الملهى. على الرغم من محاولاته الجادّة وكل تلك السنوات التي مضت، ما زالت روح الرزانة والتشدّد وذاك الغضب المرير يستولي عليه. حتى وإن كانت أبيات فرانسوا غير مناسبة، هل تستحق منه أن يصل إلى هذه الحال؟

هواء الشارع المنعش هدّأ خاطره. بعد أن سار بضعة أمتار قرر العودة. حاول جاهداً أن يبتسم لدى عودته إلى طاولة صديقه، عندما همس له صوت عن يمينه:

– لا يُلقى شعر هوميروس بهذه الطريقة. هذا مُخزٍ، أليس كذلك؟

التفت جان، حدّق إلى الرجل وابتسم له.

بدأ عندئذ نقاش لم يعهده منذ ترك معلّميه. بينما كان فرانسوا يلقي كلامه الجميل، كانا ينظران إلى الأيدي وأباريق النبيذ واللحم المتروك في قعر الأطباق والوجوه المحمرّة. تتعانق العبارات التي يقولانها مع ما يشاهدان. قالا: «لغة هوميروس لا تكتفي بالتنميق أبداً، فهي تلتقط من الحياة الأشياء المبتذلة دون أن تبهت وتبقى طبيعية».

– فضلاً عن ذلك، الغزل الصرف أعمى، أليس كذلك؟

كانا يتحدّثان بلا مراعاة وسط الضحكات والأصوات الضعيفة، دون أن يعبأ إن كانا يبالغان في إظهار عيوب أحاديث الصالونات ومحاسنها. لم يكن المراد أن يقنع أحدهما الآخر أو ينال إعجابه إنما أن يتفاهم معه فحسب. على كل حال، هذا ليس صحيحاً تماماً، فكّر جان، يعجبني هذا الرجل وأود أن أنال إعجابه.

- هل ترى هذا المقطع الذي يعطي فيه كاليبسو لأوليس مثقباً ومسامير؟ سأل الآخر.
- بالتأكيد! وعندما حوّل سيرشيه أوليس ومرافقيه إلى خنازير! أردف جان.
- رجال قذرون، تُترجم عادة بكلمة رجال قذرون...
- وأنا أفضّل قول خنازير، تجرأ جان، وهو يردّد الكلمة عدة مرات. خنازير، خنازير، خنازير.

انفجرا بالضحك هما الاثنان.

- لا أنت ولا أنا، لن نتمكّن أبداً من بلوغ بساطة كهذه.
- لا بد من أن يكون هناك وسيلة... ألحّ جان، سوف نعثر على طريقة.

كان جان مُعتاداً لقاء العقول الذكية، ولكن هنا عقد الصلة توّاً مع رجل كان يبدو مُتضايقاً من التحدّيات نفسها التي تضايقه.

١٣

رحل فرانسوا لتلقي العلاج بالمياه المعدنية بضعة أسابيع. كانا يتراسلان ويحكيان عن يومياتهما ولقاءاتهما، يذكر جان صديقه الجديد لافونتين وحفلات السَكَر وحوادث الملهى ويختم بصورة منتظمة رسائله بهذه العبارة التي كانت تُضحك صديقه: «آه لو أخبرني أحد أن أماكن كهذه موجودة في العالم». أخبره فرانسوا أنه وقع أسير حب فتاة صغيرة في الرابعة عشرة، كان يستفيض بكلام المديح والوساوس. من رسالة إلى أخرى كان يزداد حماسة، وأدرك جان أن الحب هو نبع الشعر الذي لا ينضب. اتخذ منحىً جديداً، اختلق محبوبات، اقترح على أفراد الصالون تسالي باللعب على قافية «مادلون» و«أوريزون» أو «كليمين» و«إينومومين»، قبل أن يذهب لملاقاة نساء الملهى اللواتي لم يكن يسألهن حتى عن أسمائهن.

للمرّة الأولى في حياته كان جان يتسلّى. كتب ذلك لفرانسوا بأحرف كبيرة. كان ينتقل من متعة إلى أخرى، أدبية تارة وجسدية تارة أخرى، اكتشف وجود تشكيلة كاملة من الأحاسيس الوسطى الممتعة والمرهفة، ولاحظ أنه يمكن لهذه الأحاسيس أن تتحكّم في كل الطموحات التي يبتكرها الرجال.

قبل أن يرحل فرانسوا ترك له بحثاً طبيّاً باللاتينية عن وسائل إنجاب أطفال جميلين. راح جان ينهل من الكنايات العلمية، وجد فيها الأجساد الحارّة تلتف بعضها على بعض، تملؤها الأخلاط

والسوائل. في المساء كان يستعير من تلك الكنايات كي يزيّن خطاباته الغرامية الطويلة. كان يحدث له أن يفكّر بذهن هامون الذي يعرف كل هذه التفاصيل والوظائف، لكنه كان يُخبّئها تحت جبال من الصمت. يتخيّل نفسه ممدّداً في غرفة المعاينة بالقرب من الطبيب العجوز وشغله الصوفيّ مُلقى في الجانب. من كنتُ إذاً؟ يسأل نفسه. هل سبق لهامون ولمس جسد امرأة بغير هدف المعاينة؟ لكن تفكيره لم يكن يدوم ويتبخّر مثل الغاز.

بين الحين والآخر، كان يقترح على أصدقائه القيام بنزهات. كان لافونتين يشاطره حب الأشجار. كانا يمشيان، ثم يتوقفان برهة أمام شجرة حور رجراج أو دلب، يصمتان ويعاودان المسير. بعد ظهر أحد الأيام، أحسّ جان بنوع من الوحي: أدرك أن الأشجار لا تتغير أبداً، وإن تغيّر هو تبعاً للمصادفات والظروف، أو غيّر عاداته وأصدقاءه، لكن ما رآه عندما كان طفلاً سوف يبقى كما هو بالتأكيد حتى النهاية مثل قاعدة من الحجر، مثل ضمانة في وجه تقلّبات الزمن.

- يتقلّب مزاجي مثل الأرض، شرح له لافونتين. أقرأ يوماً «ماليرب»، وفي اليوم التالي «بلاتون»، وفي اليوم الذي يليه أقرأ «رابليه».

كما أسرّ له في سياق الحديث: أنه فيما مضى كان لديه زوجة وولد. كان يتحدّث بهدوء دون أن يخفض بصره.

- في حياة أخرى، قال موضّحاً.
- كنت أظن أنني الوحيد الذي لديه حياة أخرى، قال جان.
- عُد إلى رشدك، الحياة ليست ما نظنها حقيقة.

كان جان يحب هذا المثل الذي قاله صديقه، البسيط والطبيعي،

الساذج تقريباً. كان يبدو له غامضاً وواضحاً، آثماً ومعصوماً عن الخطأ في الوقت نفسه.

ظلّ يتلقى الرسائل المزعجة من خالته، لكنه لم يكن يقرأها إلا قراءة سريعة ثم يكدّسها في إحدى الزوايا. كانت تشتكي دون كلل من صمته ومن الإشاعات التي تكبر حول أعماله الآثمة. ثم ذات مساء استقبله ابن عمه وأخبره أن عليه أن يغادر باريس في وقت قريب إلى أوزيس.

- متى؟ سأل جان.

- في وقت قريب.

أخفى جان اضطرابه، لم يكن لديه الإمكانات المادية كي يعارض القرارات التي تتخذ بشأنه فهو دون ثروة. في المساء عينه علم أن الملك سوف يتزوّج. أثار هذا الخبر حماسته. مملكة فرنسا سوف تتوسّع إذاً. قرر أن يكتب قصيدة مديح في قالب غنائي تقليدي، النوع الغنائي الأرفع مرتبة، يتخيّل فيها جسد الملك في لقاء مع أراضٍ أوسع من أي وقت مضى. ينبغي إعطاء كل شيء حقّه، قال لنفسه.

خلال أكثر من عشرين يوماً، لم تطأ قدمه أرض الملهى. بحث عنه أصدقاؤه، ألحّوا عليه، لكنه ردّ على الجميع بأنه مشغول. عزوا عزلته هذه إلى نوع من التكفير. لم يحاول جان أن يجادلهم ولكن في حقيقة الأمر، كان يريد أن يغادر باريس مرفوع الرأس. وضع لنفسه جدولاً محدداً، وأجبر نفسه على نظم عشرين بيت شعر في أقل معدّل في اليوم. بعد ثمانية أيام كان قد أنهكه التعب، لكنه راجع كل ما كتبه، وراح يدقق في كل كلمة، ويصحح دون توقّف. هذا عكس التكفير، قال لنفسه: إن لهذا مفعول الخمر تماماً. في الماضي حين كان يكتب، كان دمه يجري ببطء في عروقه،

صار الآن دفّاقاً سريعاً وهائجاً، أو ربما ببساطة لم يتعرّف بعد إلى إحساس المتعة، ذاك الإحساس الذي يبعث الحميّة في القلب، يلهب أسفل الظهر ليعود وينزل مروراً بالعصب الودّي. تذكّر مرة أخرى شفاه هامون المحمومة تُهجّئ المقاطع الصوتية الثلاثة. كان الطبيب في ذلك النهار مضطرباً بشكل غير طبيعي. قال إن شخصاً إنكليزياً قد نشر منذ بعض الوقت بحثاً ثورياً عن العلاقة اللانهائية بين الذهن والجسد. علم جديد يُسمّى علم الأعصاب سوف يطوّر الطب. عندما كان يصغي إلى الطبيب وهو يشرح له توزّع الأعصاب في الجسد، تخيّل جان العمود الفقري مثل شجرة مليئة بالألياف والعقد، وتخيّل أيضاً كل العقول العظيمة، شعراء، علماء، رسامين، نحاتين، يشقّون الأجسام في كل أصقاع العالم لينبشوا أسراره.

وبصوت واهٍ تجرأ وسأل سؤالاً لا علاقة له بالأمر.

- هل لدى الإنكليز شعراء عظام؟

- لا أستطيع أن أجيبك فأنا لا أقرا سوى للإنكليز الذين يكتبون باللاتينية. غير أنه من الأجدى أن يعبّر الشعراء عن أنفسهم بلغتهم.

كان لدى هامون القدرة على اختراق الآخر حتى اللحظة التي اضطرب فيها إيمانه وأبعده عنه دون لف ودوران.

في اليوم العشرين، قرر جان أخيراً أن يعرض قصيدته الغنائية على أصدقائه ثم على ابن عمه. كان يتمعّن في الوجوه دون خوف، فهو يعرف موهبته. صفّقوا له طويلاً. وعندما عاد فرانسوا أخيراً إلى باريس، أخبره جان بفخر أن قصيدته سوف تُنشر.

- لقد انطلقت إذاً!

كانت هذه هي المرة الأولى التي يخاطبه فيها دون كلفة. سأل جان نفسه فيما إذا كانت هذه المبالغة في التودّد تنازلاً يخفي الغيرة أو فيضاً من المحبة. لم يقاطعه، ابتسم ابتسامة عريضة ودعا فرانسوا للاحتفال معه بالخبر.

حملت له قصيدته بداية التقدير. كان جان في الحادية والعشرين من العمر. في كل صباح عند يقظته، كان يستمتع بصورة تمثاله ويتعلّل بالكلمة نفسها. كان وهو مغمض العينين يلمح داخل الضباب الكثيف تمثالاً نصفيّاً له، وبين الحين والآخر تمثالاً بالطول الكامل يلبس معطفاً طويلاً يخفق على الجانبين. في شبه إغفاءته كان يضيف إلى الصورة غناء النوارس المتصاعد من نهر السين.. كانت أيامه تبدأ على إيقاع خطوات هذا التمثال الذي يشقّ لنفسه طريقاً يخرج فيها اسمه أخيراً من الغفلة إلى العلن.

شارك في سعادته رفاق الملهى الليلي، ناقش معهم أفضل نوع يمكن أن يتبناه لكي يرسّخه. أقرّ لافونتين أنه لم يعرف قط ماذا يختار، وأنه ينتقل باستمرار من نوع إلى آخر: تارة حكاية، وتارة قصة قصيرة أو حكاية خرافية. قال بوالو: إن ورشة الملك قد بدأت أعمالها في ڤيرساي، كان يشيد قصراً مهيباً ومكاناً للعروض واللهو. سوف يكون المسرح أضمن طريقة يتبناها، لكنه قد يختار بين التراجيديا والكوميديا. كان جان يصغي متعطشاً، إذ إن كل الحجج تهمّه. كانت السبل تتحوّل بلمح البصر، لكنه كان يصطدم في كل مرّة بتلك النغمية التي تستولي على طول أبياته، نغمة بطيئة ورقيقة. يشك في مقدرته على كتابة الكوميديا ذات يوم. ردّ عليه فرانسوا: بموهبتك هذه يمكنك أن تفعل كل ما تريد.

- انظر إلى موليير، ليس هناك إنسان أكثر حزناً وأكثر وقاراً منه، مع ذلك، يؤلّف مسرحيات كوميدية ممتازة.
- هل تعرّفني به؟ سأل جان.
- بالتأكيد. سوف تلتقيه حتماً في إحدى تلك السهرات. لا يمكن أن نخطئه، هو لا يشرب سوى الحليب.
- حليب...
- إنه مريض جداً. هكذا أقلّه تعرفه أينما كان.

احتار جان هل يتعاطف معه أم يرتاب فيه أم يزدريه. أن يعيش موليير مثل رضيع، كان هذا يحزنه ويوقع في نفسه، أن تكون كأس الحليب علامة للتباهي، مثلها مثل تسريحة، فهذا يثبت له أن الموهبة لا تستبعد الغطرسة.

لكن الأمسيات كانت تمرّ ولم يلتقِ موليير. كانت لياليه مُتعبة مثل نهاراته، ليس لأنه كان يكتب، إنما لأنه كان يحبك شباكه. كان يقول لنفسه: «إنه عمل قائم في ذاته وليس بإمكان أحد القيام به. يجب أن أعرف كيف أظهر، كيف أنال الإعجاب، كيف أتكلّم بدراية. كم يسهل أن تَزلّ قدمي». صحيح أن أصدقاءه حاذقون، إلا أن لديهم أيضاً إخوة أثرياء، لديهم أعمال أو حلفاء كبار، أما هو فلم يكن لديه شيء. بالتأكيد لديه ابن عم هو نفسه لديه أخ، وسوف يكون جان دائماً في المرتبة الثانية من بعده. لن يكون بوسعه أبداً أن يوفّر جهداً أو حيطة، عليه أن يكتب ويتحرّك ويُبدع ويظهر للعيان ويجتاح كل الأماكن، وعلى الخصوص، ألا يعتمد على أحد. تعلّم كيف يتحدّث عن نفسه بين الناس، من يكون؟ ماذا فعل؟ وماذا ينوي أن يفعل؟ تحت أنظار شلّته المُشجّعة، كان يتكلم بانضباط، يصحّح، يوقّت توقّفاته بعد أن يكون قد فكّر فيها مُطوّلاً وحده

ومع الآخرين، تخلَّ لبعض الوقت عن التصاغر وجرّب التكبّر: الزهوّ يجذب الناس مثل العسل، والنظرة المتعالية التي نخصّ بها أعمالنا تصيب بالعدوى نظرة الآخرين إلينا، ويبدون راضين عن أنفسهم وأكثر فخراً. امتنانهم هو بداية حبّهم. التواضع لا يجدي نفعاً. كان أحياناً يُفاجأ بمن ينمّ عليه، أو يمازحه أحدهم عن طموحه ونكرانه للجميل، وكيف أدار ظهره لكل ما علّمه إياه معلّموه.

- يغارون منك، هذه غيرة خالصة! يقول لافونتين جازماً.

١٤

في الصيف التالي رحل جان إلى أوزيس. كان غارقاً في الديون، إذ إنه كان قد أنفق كل ما معه على الملابس والشراب واللهو. حذّره ابن عمه أنه ربما لن يكون أمامه بعد الآن خيار آخر سوى الاستفادة من أملاك الكنيسة ويصبح كاهناً. كان بإمكانه أن يصبح كاهناً دون أن يتخلّى عن حياته، على طريقة فرانسوا، لكنه كان يخشى أن يكون ورعه أكثر تشدّداً.

لم يسبق له وشعر بالحرّ الشديد هكذا. للمرة الأولى أحسّ بجلده يتعرّق، ورأى القمح يصفرّ حتى يصبح ذهبيّاً. كان هذا اللون الأشقر في بعد ظهيرة بعض الأيام يتّخذ بياضاً معدنياً. بدأ يشتكي في رسائله إلى أصدقائه، لكنه في الحقيقة كان يختبر أحاسيس جديدة وقويّة قد تجعله يفهم على نحو أفضل النصوص التي كُتبت في الحرّ الشديد في روما وأثينا. مسرحيات أشيل وسوفوكليس لا تتلاءم مع المطر ولا مع البرد.

لهذا السبب لم يكن جان يفكر في الذهاب لرؤية البحر. كان يكتفي بتخيّله في البعيد واصلاً حتى اليونان وإيطاليا. كان يحكي في رسائله عن غناء زيز الحصاد الذي يطغى على كل الأصوات الأخرى بما فيها صوته عندما يعيد قراءة ما كتبه. تلك الضوضاء المستمرة اللصيقة به مثل سقف من صفيح. لهذا كان عليه عندما يؤلّف أن يعثر على فضاء جديد تحت هذا الغطاء، وأن يطوّر أذناً

أكثر رهافة لاهتزازات المقاطع الصوتية. على مرّ الأيام لاحظ أن لغته انقسمت إلى نصفين: لغة الأدب الباريسية المهذّبة المليئة بعبارات الكياسة والمفاتن، وأخرى ممطوطة أكثر شفافية تمتد فيها أحرف العلّة، وتطغى باستمرار على طرق الحروف الساكنة، تلك التي كان يسمعها على أفواه أهل المنطقة ويفهمها بفضل ما يعرفه من اللغة الإسبانية والإيطالية. لفت نظر لافونتين إلى الفائدة من عدم إسقاط كل حروف الـ «*e*» الصامتة في بيت الشعر، والموسيقا التي يخلقها التناوب بين النغمات الصوتية والأخرى الصامتة التي لم ينتبه إليها قط بهذا الوضوح: *Songe, Songe, Vole, Vole, Coule, … Coule*، أحرف الـ «*e*» الصامتة رائعة! قال بحماسة. أيّده لافونتين وشجّعه، ولكن عندما كان الخدر وأصوات الزيز يأخذانه بينهما كالملزمة كان جان يرتعب. ليس الأسلوب وحده ما يجدر نحته إنما الصوت، لا سيما عندما يكون المرء بعيداً عن باريس، ضائعاً وسط حقول القمح، ومنسياً.

عند حلول الليل كان يذهب للتنزّه. كان يتأثر أمام أشجار الزيتون، يقطف بضع حبات ويتذوّقها. الأشجار التي كان يحبها في الماضي لا تعطي ثماراً، كانت كالـمَنِّ المرِّ في فمه. وصف الأخضر الفضّي، الأوراق المنمّقة الدقيقة، الانفعال من أثر العيش وسط الأشجار نفسها التي عاش بينها ڤيرجيل أو سوفوكليس. «كان حريّاً بك أن تقول الأشجار التي عاش وسطها ربّنا يسوع»، ردّت عليه خالته. لم يخطر ذلك على بال جان قط. «حسناً، صحيح إذاً أنك اخترت الشعر ضدّ الله؟» كتبت له أيضاً. كان الوادي يمّحي شيئاً فشيئاً من ذاكرته بسبب كل المناظر التي كان يجاورها، وما يرويه البعض هنا وهناك عن المقرّ الملكي الجديد الذي بدأوا ببنائه في

ڤيرساي متباهين باتساعه الذي لم يسبق له مثيل. كان الفضاء، شأنه شأن لغته، ينقسم إلى نصفين هو أيضاً: من جهة كان هناك الله والدير والليل، ومن الجهة الأخرى: الشِعر والنور.

في أوزيس، كانت الوظيفة التي كلّف بها تجبره على إدارة أعمال والإشراف على بنّائين ونجّارين وزجّاجين. كان يستغرب كيف استطاع القيام بذلك. لم يكن بوسعه أن يقول: إنه يحب ذلك، لكنه كان يؤثر السلطة التي يستحصل عليها من جراء هذا العمل، والشعور بأنه مستقر ومتآلف مع بقية العالم، في حين كانت أبيات الشعر تجبره على اختيار الكلمات أكثر من الأشياء. مع ذلك، بمجرد أن يصبح في إحدى ورشات العمل كان يتكلّم عن الجسور والنوافذ، لكنه لا يلوي إلا على الاستعجال للعودة إلى غرفته الباردة ذات الجدران الثخينة، وحفيف قلمه على الأوراق، استعجال إلى الكلمات أكثر من الأشياء. كان يؤلّف سلسلة من الأشعار عن جمال نساء الجنوب اللواتي لم يعاشرهن إلا قليلاً، كان يختلق أسماءً مستنداً إلى تلك التي كان يسمعها في القرى، يكتب رسائل حماسية يشبّه فيها منفاه بمنفى أوڤيد. لكنه كان يشتاق إلى حياته كذئب باريسي. كان يحلم بالملاهي الليلية، بتيارات الهواء وبالظل، ذلك لأن هذه الشمس القوية كانت تُضنيه. لم يكن أصدقاؤه يردّون عليه إلا فيما ندر، فرانسوا بشكل خاص، ولافونتين المنشغل في مكان آخر. وحده بوالو كان يكتب له بانتظام وبشكل مستمر كي يحكي له عمّا يجري فوق خشبات المسارح حيث لم يعد هناك سوى مسرح موليير وبويد وكورنيّ.

في صباح أحد الأيام كي يروّح عن نفسه، قرر الذهاب لرؤية البحر. عدا وقتاً طويلاً وأنظاره مشدودة نحو الأفق.

البحر ثنايا زرق وخضر ترتفع من طرف إلى طرف، بساط لم يمتد فوق التخوم إلا ليركبه البشر، يسافرون، يتقاربون، يتباعدون، أو يتيهون... مثل أوليس. أدرك أمام البحر فكرة الحدود أكثر مما أدركها أمام الغابات والسهول والوديان. قال لنفسه: لا تحلو الحكايات أبداً إلا عندما تمتد من ضفة إلى أخرى، ويكون فيها بحار تفرّق. تتيح المحيطات للخيال ابتكار خواتم مسرحية، يجنح فيها كل فرد إلى ضفّة. كان الأقدمون يعرفون ذلك، إذ ليس هناك مرثاة أو مأساة من دون محضر البِحار. إن قراءة أمر ما شيء، وأما الإحساس به فشيء آخر. في الماضي كانوا لا يرون المرثاة إلا تبعاً للأنهار والسواقي، وفق منحدر، جريان نهر، أو أي تيار حركي. الآن أيضاً، البحر أمامه سهل فسيح يفصل عما يرغب فيه، كتلة تبتلع ما فقده، عيون تذرف الدمع حزناً على الضفّة الأخرى دون أن يتمكّن من بلوغها.

خصص للبحر أبياتاً كثيرة، إلى أن سمع بوالو يقول عنه في إحدى رسائله: «أنت تتحوّل إلى حفرة». كان هذا الصديق لا يتساهل معه أبداً، مثل معلّميه، لكن دون أن يكون قاسياً. ولأسباب وجيهة، لم يفصح في هذه الأبيات إلا عن مفهومه القديم للمرثاة، إذ أعطى انطباعاً بأن قصيدته معلّقة فوق سطح مائل كي تنساب إلى ما لا نهاية. حينئذ قال له بوالو: للحديث عن فراق، يجدر بك استخدام عدة أصوات، وقول «عزيزي نيكولا» منذ الآن فصاعداً بواسطة شخصيات ذات علامات فارقة، ونبرة مختلفة، ، كما يمكن أن يفعل معلّماه هوميروس وكينتيليان.

بعد بضعة أيام كان جان في نُزُل، سمع حديثاً عن فتاة صبية تناولت السمّ لأنها كانت حاملاً وتخشى من غضب والدها. كانت

قصة محلّية أحسّ فيها بنبض المسرحيات المأسوية القديمة. تبيّن فيما بعد أن الميتة لم تكن حاملاً. كتب إلى أصدقائه: لمدينة أوزيس منافعها، إنها مدينة مليئة بالأهواء. هل هناك ما هو أفضل من مأساة للكتابة عنها؟ كان هذا مشروعه الجديد. اقترحوا عليه قصّة أوديب. أعاد قراءة قصصه الإغريقية، فصار الوقت يمضي أسرع. انكبّ أيضاً على مؤلفات عصره فوجدها مليئة بالوقائع والأحداث عديمة النفع، وأقسم بينه وبين نفسه على أن يكتب أقوى منها وأبسط.

وقع اختياره على أوديب. بداية، كان يكتب كل مشهد نثراً، يزنه، يقدّر التوازنات والمسافات، يستكشف حقل العمل المسرحي مثل فيزيائي، يوازن بين القوى. كان يرتاح بضع ساعات، يذهب للنزهة، ثم يعود كي يختصر من هنا ومن هناك. وجد العملية صعبة، أكثر تعقيداً من كل ما كان قد ألّفه في السابق، وبدأ يحلم باللحظة التي لن يعود فيها أمامه سوى وضع المشهد في قالب القصيدة ويستعيد الراحة في الروتين المعتاد. لن يكون أمامه سوى استخلاص المفردات والشخصيات مثلما كان يفعل منذ سنوات، لكن التوفيق بين أفعال الشخصيات والربط بين مشهدين شيء مختلف. في كل مساء، كان يظن أنه سوف يبدأ أخيراً نظم أبيات الشعر في اليوم التالي، لكنه في الصباح كان يعدّل عنصراً يجبره على إعادة كل شيء من جديد. لم يكن بوسع أي من أصدقائه مساعدته فعلياً، ذلك لأنه كان أول من يخوض هذا المضمار. مع ذلك سأل لافونتين إن كان يُحسن العمل إذا ما احتفظ بالمواجهة الكبرى بين جوكاست وأبنائها إلى الفصل الرابع أو تكون متأخرة جداً هكذا؟ ردّ عليه ذاك الأخير أن عليه أن يسبّقها. فكّر جان في ذلك مدة نهارين، لكنه احتفظ بخياره لسببين: سوف يبقى الجمهور هكذا حابس الأنفاس، كما أنه لم يكن يريد أن يحمّل

حدثه الأساسي حوادث عرضية جديدة. مقابل العادة التي اتخذها بتبادل الرسائل حول كل شيء، استرجع فجأة عزلة الدير القاسية. بدأ يكدّس الرسائل التي يتلقّاها ولا يفتحها.

تحسّن مخطّطه، بسطه على الطاولة مثل معماري، وراح يعيد فحصه قطعة قطعة، وعندما وجد أن يده المُدمنة التعديل لم تعد تُعدّل، اعتبره قد صار متيناً. قفز عن كرسيّه وصاح: لقد انتهت مسرحيتي. كان في غاية الانفعال فراح يجوب الغرفة كي يهدأ. من الآن فصاعداً سيكون بوسعه أن يقول إلى أولئك الذين يعتبرون المسرح نشاطاً ترفيهياً تافهاً إنه لم يسبق أن شعر قط بمثل هذا التعب، وإن المسرحية لا علاقة لها بالقصائد الغنائية، وإن ترتيب المشاهد والفصول هو عمل ضخم. عندما أمسك المخطط بيديه اجتاحته أحاسيس رجولية دفعته إلى قضاء الليلة التالية بين أحضان إحدى الفلاحات، وختم الرسالة التي كتبها إلى لافونتين منذ الفجر قائلاً: «ولدينا ليال أروع من نهاراتك». وإن كان البحر الإسكندراني يأتيه بسهولة هكذا، غير أن ذلك لم يدم وقتاً طويلاً. أغلق على نفسه وراح ينمّق أبياته وبه إحساس جديد: أن الأصعب صار وراءه. عن الحالة الكارثية لوضعه المالي التي يذكّره بها ابن عمه، كان يجيب واثقاً وواعداً أنه سوف ينال شرف جهوده كلها ويصبح رجل أدب متمكّناً. أرض أوزيس الجافة ثبتت الأرض تحت قدميه. لمس فيها بإصبعه نابض الحدث في المسرحية وفي الحياة. كان عليه العودة إلى باريس من كل بُدّ.

١٥

عـاد جـان إلى فنـدق لوينز، وإلى أبنـاء عمه والماركيـز الصغير الذي كان قـد عـاد هـو أيضـاً. كان يقال عـن الماركيـز طويل القامة الممشـوق القـدّ، إنـه سيصبح جندياً مثالياً. كان يتحـدّث إلى جـان دون أي أثـر للضغينـة. حـاول مـرّة أو مرّتـين أن يذكّـره بالمـاضي، لكن جـان اكتفى بالابتسـام وغـيّر الموضـوع. عندمـا رآه في المسـاء يذهـب للانضـمام إلى حلقـة المثقّفين، قـال الماركيـز متعالياً:

- قيل لي إنك ألّفت مسرحية، ولكن لو كنت مكانك لما نسيت أن الملك مريض.

لاحـظ جـان في الحال هـذا التعالي في النـبرة التي يتحدّث بهـا دائماً، حتـى عندمـا كانا يتبـادلان الأحاديـث مثـل مغفّلين تحت ضـوء القمر، لكنه تمالك نفسـه.

- سوف أفكّر في ذلك، أجاب.

- سوف أعرّفك بزوجتي، فاجأه الماركيز الموعود بزواج باهر.

اكتفـى جـان بإيـماءة من رأسـه في حـين كان لا يطيق صـبراً كي يردّ عليه: «وأنا سـأعطيك مسرحيتـين تقرأهما».

١٦

عرّفه فرانسوا إلى شلّة جديدة أكبر وواعدة أكثر من شلّة فندق لوينز. التقى فيها بمعارف قدامى من الدير. كانوا يتحدّثون داخل الحلقة عن التهديدات ضد الملك وردود الدفاع والمستقبل غير الواضح. كان جان يشعر بانقباض في صدره عندما يتذكّر خالته، لكن احتدام المحادثات من حوله كان يبعد عنه القلق. كان يصل أحياناً إلى الملهى مُنهكاً، يتهالك أمام الطاولة وهو يسرّ لأصدقائه أن فنّ الحديث يُرهقه شأنه شأن التأليف.

كان صاحب الملهى الجديد الماركيز دوليانكور يملك العديد من اللوحات الفنية الإيطالية، وعرض على ضيوفه أن يروها. للوهلة الأولى انكمش جان، إذ لم يكن لديه شيء ليقوله، فهو لم يرَ في حياته كل هذا الكمّ من الأشكال والألوان المرسومة، لذلك لم يعرف إلى أين ينظر. كانت كل هذه التصاوير تفوق مفرداته، على الرغم من أنه كان يظن حقيقة وهو طفل أن اللغة مثل الرسم، لكن رؤاه حينذاك كانت صارمة، محدودة. إذا كانت مناظر أوزيس قد أضافت القليل، إلا أنها لم تجعله يرى في تلك اللوحات أكثر من التباينات الأساسية للألوان: الأصفر والأزرق دون أي تدرّجات. غير أنه لا يمكن أن يُخاطر بالبقاء صامتاً وقتاً طويلاً أمام اللوحات وكان عليه أن يتعلّم كيف يُناقش حول فنّ الرسم مثل بقية المواضيع. حينئذ طلب من الماركيز زيارات خاصة من

أجل قصيدة غنائية كان يعمل على تأليفها، فوافق ذلك الأخير على طلبه في الحال.

كان ينتقل على مهل من لوحة إلى أخرى ويشعر كأن الوجوه المرسومة تراقبه مكتشفاً الذكاء المهيب المنبعث من تلك الوجوه. توقّف طويلاً أمام لوحة لـفيرونيز[1]، كانت تمثّل مشهداً مليئاً بالأشخاص: «أ» ينظر إلى «ب» الذي ينظر إلى «ج» الذي بدوره ينظر إلى «د»، وهذا ما سوف يدوّنه لاحقاً في دفتره. أدرك هنا حركة أعجبته، آلية ومُعقّدة، مثل التفاوت في الرغبة، وفكّر أنه بوسعه منذ الآن أن يتحدّث عن الرسم كما يتحدّث عن المسرح.

تابع العمل في مسرحيته وأدخل إليها تفاصيل جديدة إلى أن طُلب منه في الصالون أن يُنجز مهمة جديدة على جناح السرعة: الاحتفال بنقاهة الملك. وبما أنه كان قد فوّت ولادة وليّ العهد لأنه كان بعيداً، لن يسمح لنفسه أن تفلت منه هذه الفرصة. «تصرّف كما يحلو لك، أمره ابن عمه، ولكن مستقبلك يتعلّق بهذه المناسبة». أهمل جان مسرحيته والملاهي وانصرف إلى تأليف أكثر من مائة بيت شعر ثماني التفعيلات. كان ما يزال محتفظاً بمهارته ويعرف أين يبحث ويُراجع، ينسخ نصوص «ماليرب» أو أيّ شيء كان، فالأمر يستحقّ العناء. وصلت به الحماسة بحيث وجد لنفسه مَعبَراً شخصياً إلى داخل الموضوع، شيئاً كان يحرّك مشاعره بعمق. كان يفكّر في سنّ الملك الذي يقارب سنّه تقريباً، وتصوّره شاباً يمكن أن يموت هكذا بمنتهى البساطة. كانت هذه الفكرة تؤثّر به إلى حدّ كبير. بعد خمسة عشر يوماً أصبح جاهزاً. كانت قصيدته الغنائية تخلو من العبقرية

---

(١) فيرونيز: باولو فيرونيز، رسام إيطالي من عصر النهضة، رسم لوحات تمثّل النصوص الإنجيلية.

لكنها ناجعة، هكذا قدّرها لافونتين. بعد شهر من ذلك، دخل لائحة رجال الأدب الذين يعملون من أجل عظمة ملك فرنسا: سوف يتلقى في المقابل ستمائة ليرة في العام.

شعر جان بالارتياح، إذا لم يسرف فسوف يتمكّن بمبلغ كهذا من العيش حسب الأصول ولن يعود تابعاً لأحد. احتفل بالحدث مع أبناء عمه وأصدقائه، حتى إنه اقترح على موليير الذي التقاه أخيراً أن يشرب شيئاً آخر غير الحليب. كان الخمر الأحمر الذي سكبه لكليهما مثل دماء أخوّة جديدة. لم يجرؤ أن يسأله عن مبلغ معاشه، لكنه علم أن معاش كورنيّ كان يصل إلى ألفي ليرة سنوياً. ضحك أصدقاؤه من التجهّم الذي علا قسمات وجهه.

ألزمه منصبه بمتابعة الجهد وتأليف قصائد المديح الواحدة تلو الأخرى. بعد ثلاثة أشهر، قدّم تمثيلية تعرض كل مزايا الملك بالتفصيل، أتاحت له الفرصة كي يكون حاضراً ساعة نهوض الملك من الفراش في قصر سان جيرمان أون لاي.

لم يسبق أن أثار الله فيه مثل هذا الانفعال. كان يتمعّن في كل حركة يلمحها من خلال غابة الرؤوس التي تسبقه، يصيخ السمع إلى أقلّ حفيف يصدر عن الأقمشة، أقل همسة. كانت تصله عبارات، كلمات مديح، أفكار. فكّر في الماركيز الصغير الذي ربما سيخفف من تعاليه أخيراً لو رآه هنا، وفكّر في خالته التي كانت لتبدّد أوهامه بخبث. كان الملك يصلّي، يرتدي ثيابه، يسرّحون شعره، يشرب الحساء مثل أي رجل، ومع ذلك كان جان مفتوناً به. لم يكن يرى رجلاً يتحرّك ويتصرّف، كان يرى وطناً يتكوّن تحت الأنظار. قدّر عمر الملك ونظر إليه كشقيقه التوأم، ذاك الشقيق الذي سيسطع في جواره ويسمو. سوف يكون جان لسان هذا الوطن.

لم يلمحه الملك بين عشرات الأشخاص، ولم يوجّه إطراء سوى إلى موليير. في اليوم التالي، أسرّ إليه ذاك الأخير بالمشقّة التي عاناها كي يجذب إليه النعم الملكية، ولم يخفِ البغض والغيظ اللذين كان يحاول أن يغرقهما في جرعات حليبه، مرضه الحقيقي. إن الكوميديا تجعلك أكثر مرارة من التراجيديا. لدى مغادرة الملهى، كان جان أكثر إصراراً من أي وقت مضى على مراجعة مسرحيته.

- هل ستساعدني على إيصال مشروعي؟ سأل جان نيكولا.
- أنت لا تحتاج إليّ. أنت الانضباط بعينه.

لكن جان كان يحتاج إليه فعلاً. ذهبا معاً يجوبان المسارح. كان طموح جان يُلهب وداعة نيكولا حماسة. في معظم الأوقات، لم يكن ينضمّ إليهما أحد، واعترف جان في النهاية أن الحياة منحته صديقاً حقيقياً جديداً. شاهد الكثير من المسرحيات ولاحظ أن مسرحيات موليير تتفوّق على الأخريات لأنها حقيقية وطبيعية، ولكن كل هذا الوابل من الأحداث كان يسبب له الكثير من الضجر والتعب. لهذا كان يركّز على الصالة والجمهور. كان الناس يقهقهون دون حياء أو تحفّظ. برأي نيكولا إن جمهور المسرحيات المأسوية أرفع مستوى بالتأكيد بسبب المراجع الثقافية اللازمة، وبسبب اللغة أيضاً، هذا التفخيم في نهاياته الصامتة، وذاك التركيز الذي يتطلبه الوزن الإسكندراني حتى وإن كان لكنتيليان. كانا يريان بعض الأشخاص ينتقلون من إعلان إلى آخر حتى صارا يلقيان التحية عليهم. كانت فترة غنيّة، شعر فيها جان أنه كان يجمع مادة ثمينة وأحاسيس وآراء سوف يستفيد منها في دعم مشروعه. غير أنه خرج ذات مساء من أحد عروض كورنيّ أكثر كآبة ومشغول البال.

- لا أرى حقاً ما الذي يحزنك إلى هذا الحد، قال نيكولا. أنت صغير السن وهو عجوز، كل شيء ممكن.

جان نفسه لم يكن أمامه إلا أن يثبت ذلك، ويعرف أن هناك ثلاثة مسارح فقط تحتكر العروض، ومسرحية التراجيديا لا تُعرض أكثر من عشرين مرة أبداً، والإعلان يدفع الذي قبله، كما يجدر أن تمثّل بإحكام، وكم يسهل الفشل.

- في هذه الحالة، اكتب المسرحيات الكوميدية؟
- لغتي لا تصلح لذلك.
- يمكنك أن توظّفها في هذا الاتجاه.
- توظيفها ليس كل شيء.

أردف جان أنه لا يريد أن ينتهي مثل موليير، مُهرّجاً لاذعاً. ما يحبه في التراجيديا هو بالضبط: الحصر، «السور» وعندما كان يلفظ هذه الكلمة كان يتوقف برهة وقد انقبض صدره من الذكرى.

- هل تتخيّل مسرحية موقّعة باسمي تجعل الناس يقهقهون بصخب؟
- لا، ولكن انظر إلى موليير. إنه رجل شديد الكآبة لكنه يكتب أشياء مضحكة.
- اسمع هذه: تخون حبي وطيبتي وحناني، مع ذلك، أحبّها بعد فعلتها الدنيئة إلى حد لا أستطيع فيه التخلّي عن هذا الحب... إلى حد لا أستطيع فيه التخلّي عن هذا الحب... هذا ليس مُضحكاً أبداً!
- لن يكون قادراً على كتابة شيء آخر غير المسرحيات الهزلية، أقول لك: لقد فات الأوان.
- على كل حال، لا خيار لديّ.

عاد إلى تعليمه الصارم والصامت، ساعات العزلة التي لا يعرف عنها نيكولا شيئاً، تلك الطبيعة الخالية من الأزهار. تجنّب هذه المرة كلمة «السور» وتحدّث عن حالات انضباط في اللغة يفضّلها ولا تُرى في المسرحية الهزلية.

- حالات في اللغة! أنت تتحدّث مثل كيميائي.
- نعم، هذا بالضبط ما أتحدّث عنه، يبدو لي أن المسرحية المأسوية تضع اللغة تحت تأثير حرارة شديدة قادرة على تغيير الطبيعة.

شعر بتلك الحرارة تتسرّب وتصعد إلى رأسه، ومعها تأثير الخمر والملهى واحتفظ ببقيّة أفكاره لنفسه. وحدها الانفعالات الحزينة التي نخلقها لدى الآخرين تجلب لك احترامهم الحقيقي، وليست الضحكات داخل صالة. كان نيكولا أمامه قد غفا.

استحوذ على تفكيره الأخوان كورنيّ حتى وصل به الظن أنه لهذا السبب وضع إخوة في مسرحيته الأولى، فقد كان يحلم برمي الشقاق بين هذين الأخوين مثلما يشقّ حجر. كان أكبرهما بيير وليس توماس. مهما فعل، أينما كان، كان يتردّد اسم كورنيّ مثل مرجع، مرجع سيجب عليه اقتلاعه ليحلّ مكانه. على كل حال، ألم يكتب سوفوكليس ضد أشيل، وباسكال ضد مونتينيّ، لطالما كان الكتّاب العظام فريسة مبارزة فيما بينهم. ولأن المرء لا يتطاول إلّا على ما يبرع فيه، عمل كما علّموه، قام بتشريح أعمال كورنيّ.

بدأ بدفتر جديد، دوّن أبيات الشعر وأدواراً كاملة. رفع أعمدة من الكلمات، صنع جداول، مخططات، لاحظ أن كورنيّ يجد صعوبة في مراعاة قاعدة الوحدات الثلاث، يسترق دائماً ويأذن لنفسه بالكثير. كان هناك شيء من الميوعة في أسلوبه، على الرغم من أنه كان يحسن

استخدام الهندسة، وميله إلى التناظر، وتلك الحاجة للإشارة دوماً إلى طريقين: طريق الربح وطريق الخسارة، لينتهيا بالتعادل والعودة إلى نقطة البداية، لهذا السبب كان مولعاً بالتضاد، فكّر جان، لكن يبقى لدى كورنيّ وجه دون روح ودون عمق. أطلع نيكولا الذي لم يفهم قصده على ملاحظته. بعد أن أعطاه عدّة أمثلة، ختم قائلاً:

- نحتاج إلى التضاد لحاجتنا إلى التناظر، ولكنني أحلم بتضاد جوهري، يعبّر عن قلب البشر وليس فقط الخيار الذي يجدر بهم القيام به في لحظة من اللحظات، الصليب الذي يعبرهم، الصراع، طبيعتهم الأصلية.
- أنت تعيد الصلة بالأفكار السوداوية، أجاب نيكولا. ولكن أنا أوافقك في الرأي، قصص حب كورنيّ فيها الكثير من المباهاة.

لم يكن يتوقع أن يُفهم، كان ينتظر فقط أن يُجابه بجدار ممانع يصقل عليه أسلحته ويكتب مثله العليا بما فيها الحب. ماذا بوسعه أن يقول عن الحب، هو الذي لم يعرف سوى حب الله؟ هل سيتمكّن من أن يصوغ حبكات عن شعور لم يعرف عنه سوى ما قرأ؟ مسرحيات كاملة حين لا ترتكز عليها حياة أي إنسان حقيقيّ بشكل كامل، حين لا يوليها أي إنسان الكثير من الاهتمام؟ لا هو ولا أحد من أصدقائه، لا ملك ولا أمير. ولكن بعد جهد جهيد، مثل ڤيرجيل أو أوڤيد، رجع إلى عادته، إلى الحب المركزي. أكّد له نيكولا أن قراءاته لا بد من أن تكون كافية، وافقه جان وهو يفكّر أن بعض الأحاسيس الواقعية قد تُحدث فرقاً، سواء هو من شعر بها أو لاحظها لدى شخص آخر.

- هل تريدني أن أساعدك على الوقوع في الحب؟ قال نيكولا متهكماً.

دوّن جان في دفتره: أبيات كورنيّ فيها الكثير من الحشو، أو على العكس، غير مترابطة. لذلك أعاد كتابتها وهو على اقتناع أن كل التمرينات سوف تعود عليه بالفائدة. بين الحين والحين كان يستسلم، لا يلمس شيئاً، يدوّن إعجابه على الهامش. لو استطاع أن يعتبر كورنيّ مثل أخيه البكر، لجنّب نفسه بالتأكيد مشاعر الغيرة والمتاعب. لقد ترعرع في كنف معلّمين أدّبوه وقَولبوه، لكنه يتذكّر أيضاً تلك الأوقات التي كان يتحرّق فيها لإقصائهم. ومنذ أن غادر الدير، كان هناك دائماً هو وطموحه والآخرون في جهة، وكل خصومه في الجهة الأخرى.

في إحدى الأمسيات، عرض عليهم فرانسوا الذهاب لمشاهدة مسرحية يعرف ممثّلتها الأساسية. كان جان ينظر إليها تمشي على خشبة المسرح وهو يفكّر أنه ربما سيتمكّن من أن يتقرّب منها، لا بل أن يلمسها بعد العرض. بينما كانت تُلقي الأبيات، تخيّلها وهي تحفظ خطبه الطويلة، تبتلع أبياته الإسكندرانية مثلما تبتلع أي مادة أخرى وتُعيدها من لحم ودم مضمّخة بالعواطف. أثناء الفصل الأخير تملكّه حلم: أن يشهد هذه الظاهرة، يطلب ابتلاع الأبيات، ثمّ يعدّل المُراجعات.

كانت الممثّلة في غرفتها محاطة بالكثيرين. اكتفى جان بالتحديق إليها والإصغاء إلى كلمات الإطراء المتضاربة، راقب البراعة التي يُظهرها فرانسوا كي يتميّز. ودون أن ينطق بحرف، مدّ يده ولمس ذراع الممثلة. رفعت رأسها وابتسمت. وبينما كان يحدّق إلى وجهها، اضطربت وراحت تبحث عن الكلمات. قال لنفسه: إذا استطعت أن أجعلها تتلعثم، فسوف أجعلها تلقي الشعر أيضاً.

عاد إلى العمل على مسرحيته بجدّ، اكتشف فيها الكثير من

حركة السيوف، أعادها إلى أغمادها، واقتطع مائتي بيت. ما بين التأليف والإغواء، استشفّ تشابهات: يمكن لحركة واحدة، أو صمت واحد، أن يؤثر أكثر بكثير من مائة إيماءة. كان وجه الممثلة الجميل يعبر دائماً خاطره. اختصر مخطّطه أيضاً لأن قاعدة الوحدات الثلاث مقدّسة. كان أرسطو يعرف عمّا يتكلّم: يجدر بالمسرح الذي يريد أن يكون روح الوطن أن يثبت بأسه. كان كورنيّ يبالغ باستمرار، خصوصاً في مسرحية *Le cid* مثل طفل أو أسوأ، أو كمن لا يستطيع ضبط نفسه. كان جان يريد أن يخطّ خطوطاً واضحة، جليّة، لا تنثني، أن يرسم حدوداً، خارطة لأرض.

عاد والتقى الممثّلة مع أصدقائه في البداية، ثم وحدها. كان يأخذ حذره وهي بين ذراعيه، لاحظ أنها نحيلة أكثر مما توقّع. ولكن هذا لا يمنع، إنها جميلة ولها صدر جميل. كان يتخيّل شيئاً شبيهاً بالدارة الخيالية، يهمس أشعاره في أذنها لتخرج مرتعشة من فمها. يحدّثها عن مسرحيته وهي سوف تساعده. كان طموحه يلتفّ حول جسد هذه المرأة فتختلط عليه أحاسيس ليلة المتعة برؤيته لمستقبل مجيد. لم يكن يفرّق بينهما.

من المؤكد أن بعض أخبار معاشراته الجديدة كانت قد وصلت إلى مسامع خالته. كان يتساءل أحياناً كيف تصل الأخبار بهذه السرعة حتى الوادي وهو العارف أن الصالونات تعجّ بالإشاعات. استصرخت الجحيم واللعنات. كانت تصلّي وتبكي. كانت هذه الطريقة بالتصرّف من أجل خلاص الآخرين تُغيظ جان إلى أبعد الحدود. ردّ عليها دون مراعاة: «عليكِ أن تلتفتي إلى تنظيم الصفوف هناك وإياك أن تتدخلي بما يحدث هنا. لأنك تركتِ هذا العالم هنا منذ وقت طويل»، كان مُدركاً أنه استقرّ فيه بكلّيته، ووضع فيه يديه

ورجليه وفمه بكل نهم. لم يكن لديها أية فكرة عمّا يعيشه، وماذا يعوّض. يجدر الذهاب إلى الحياة كي يكتب عن الحياة وإلاّ لن يكتب سوى أبحاث متقنة عن الشعر، مثل نيكولا.

نجحت طريقته: سوف تُمثّل مسرحيته على مسرح فندق بورجونيّ، ملك المسارح. حتى إنه لم يجرؤ على تخيّل كرب خالته عندما ستعلم بالخبر. كان يستمتع بفرحه، وأحسّ بالامتنان الشديد تجاه تلك التي تدخّلت لمصلحته. منحت نفسها دور أنتيغون، تباهت بعبقريته، لكنه كان يعلم أنها في كل مرة يتركها كانت تذهب إلى أحضان أخرى، وتمنح نفسها لرجال آخرين، لمؤلفين آخرين، تقول لهم ما يحبون سماعه. ليست سوى ممثلة. كانت الغيرة تحرق أحشاءه، إذ إن الجسد لا يحب المشاركة. بالطريقة نفسها التي كان يريد أن يصنع فيها مجده، كان عليه أن يطوّر قدرته على بسط سلطانه على الأذهان والأجساد التي تخدمه. عمل مع فرقة الممثلين، درّب على الأدوار، أطلق أوامره هادراً. لكنه كان صغير السنّ ولا خبرة لديه، يستسلم لمطالب الآخرين هنا وهناك. يعرض عليهم فصول المسرحية الواحد بعد الآخر، ويذهب كي يعدّل الكثير يرافقه أحياناً شعور أنه يكتبها تحت إملاءاتهم.

تم تأجيل عرض مسرحيته أول مرة بسبب كل التعديلات التي عليه القيام بها. عندما وصل إلى الفصل الخامس، شعر بالفخر على الخصوص بمقاطعه الشعرية، تلك التي ألّفها لجميلته أنتيغون. كانت تُلقيها بتفخيم، وعلى الرغم من أن أبياتها تستعيد على نحو كبير عبارات مبتذلة إلا أنه كان يتأثّر. ولكن في اليوم التالي كانوا يخبرونه أن مقاطعه الشعرية فات عليها الزمن وعليه أن يتخلّى عنها. كان يذعن ولا يترك منها سوى ثلاثة، سوف يستخدم المقاطع الأخرى فيما بعد.

على الرغم من تساهله تأجّل عرض مسرحيته مرة أخرى. راح يشكو يأسه أمام الممثلة، لاطفها كما لم يفعل من قبل، لكنها ذكّرته باستبداد الممثلين، وقالت بلهجة المرأة المسكينة: ليس بيدي حيلة. اشتكى جان إلى فرانسوا ونيكولا اللذين حضّاه على الصبر، ولكن على مرّ الأيام، كشف جان الدسائس والمؤامرات التي كانت تُحاك ضدّه، فتح قلبه لموليير الذي أكّد له أن الأخوين كورنيّ لا يحتملان المنافسة. زِد على ذلك، أنت ابن بور رويال وهذا يثير العصبية. أقنعته هذه الحجّة الأخيرة بأن مسرحيته يجب أن تُمثل في القصر الملكي، فليذهب فندق بورغونيّ إلى الجحيم. لامه أصدقاؤه، فرقة موليير لا تعدو أكثر من فرقة هزلية، لكنه كان يصرّ على القول: ليس المهم أن تُمثّل المسرحية في المسرح المناسب بل أن تُمثّل مهما حصل. كل شيء في أوانه.

استأنف عمله مع الممثلين. كان هؤلاء أقل غطرسة من الأولين، لذلك لم يكن يتردّد في أن يفسّر بالتفصيل خطبه الطويلة أمامهم ويُريهم كيف تُمثّل. استمتع حتى النخاع بتصرّفه على هذا النحو إذ كان مدركاً أنه هو الذي يقوّم لهجة هنا، انفعالاً هناك، انطباع وجه أحدهم إلى أعلى درجات الدقّة. في كل مساء، عندما يعود إلى بيته كان يرغب في أن يأتي الغد بأسرع ما يمكن كي يستأنف جَبْل روح الممثلين ويعركها كما يمكن لمعلّميه أن يفعلوا، ومثلما فعل الله كما يُقال. هذا لا يشبه شيئاً مما عرفه من قبل: فوق خشبة المسرح عندما كان يتابع الممثلين في أدقّ التفاصيل، يحاصرهم، يتعقّبهم، كان يخترقهم كمن يُدخل إلى أجسادهم نفحات روح جديدة مُتغيّرة. مرة روح رجل، ومرة روح امرأة، ومرة أمير، ومرة أخرى خادمة، كل شيء.

عندما جاء يوم العرض الأول، كان أصدقاؤه هناك، أبناء عمّه،

الماركيز الصغير، ولكن خُيّل إليه أيضاً أنه تعرّف إلى وجوه أخرى، وجه هامون، أنيس، والمعلّم بهيئته الشامخة ونظرته الحادّة. عندما صفّق جمهور الصالة، لم تتحرّك أياديهم لكن رموشهم كانت ترفّ بسرعة كبيرة. اقترب، وتبدّدت رؤياه. لم يشعر بمثل هذه السعادة في حياته قط.

١٧

لم تحقّق مسرحيته «طيبة»[1] أي نجاح. لم تكن تمتلئ الصالة في كل مرّة إلّا إلى نصفها. موليير دعم المسرحية، سعى بيديه ورجليه كي يروّج لجان كأنه كورنيّ المستقبل، ونهاه عن التأسّف لأنه ترك فندق بورغونيّ، لكن جان وقع فريسة اليأس. لم يعد يخرج ولا يكتب ورفض الزيارات. اكتفى وهو في سريره بقراءة رسائل خالته التي كانت تزداد شراسة. حتى إنه فكّر في الذهاب لرؤيتها. سوف يدنو وجهها الأدكن من شِباك غرفة الاستقبال وعليه أمارات اللعنة المتوقّعة وذاك الأسى الذي لن يحتمل أمامه سوى أن يعترف بغطرسته وعجرفته اللا رادع لها وغروره البائس، ولكن ما إن يبدأ الكلام حتى تعاوده ذكرى بشرة الممثلات الحليبية، مساحيق تجميلهن، صدورهن المكشوفة. عندئذ سوف تتحول توبته إلى صمت آثم وكاذب. من غير المجدي الذهاب إليها إذاً، فكّر جان الذي اعتاد على مر السنين ألا يُلزم نفسه إلا بما يمكن أن يخفف من غمّه. أبعد وجه خالته ومربعات حاجز غرفة الاستقبال، وتخيّل نفسه يمشي الهوينا في الحديقة بين ممرات شجر الشمشاد أثناء حصص الدرس. عندما كان طفلاً، كانت كل واحدة من هذه الخطوات تثير فيه الرغبة في الاندفاع نحو السماء كي يصبح شجرة أكثر سموّاً وأكثر قوّة من الأشجار الأخرى. كان جان الراقد على سريره قد بدأت

---

(١) طيبة: أول مسرحية لراسين ١٦٦٤.

قدماه وساقاه وأطراف أصابعه تتحرّك ثانية وكأن نسغ بور رويال عاد ليجري فيها. لا حاجة إليه للذهاب إلى هناك إذاً طالما يحسّ بأنه يجري في عروقه. حينئذ غادره الخمول وعاد ليفكّر بتعقّل: كيف يمكن لمسرحية أن تنجح دون تملّق أو أحداث اجتماعية؟ ضحك على سذاجته. سوف يجازف ويجعل المسرحية القادمة عن عظمة الملك بشكل كامل، وكذلك كل المسرحيات التي من بعدها.

لم يعد موليير يُحدّثه سوى عن الإيرادات والإعلانات وعدد المشاهدين. المسرح هو أيضاً تجارة بالنسبة للآخرين، فكّر جان الذي لم يعد يرى في ذلك أي حرج بل ضماناً للحياة الواقعية. أليس موليير هو البرهان الحيّ على أن النجاح يعود أقلّه إلى سببين متعادلين: الموهبة والاجتهاد؟ كان يحتاج إلى مسرحية من أجل فرقته، وعلى الرغم من أنها كانت قد أُلغيت من الإعلان، أذن له بعد بضعة أشهر أن تُقدّم مسرحية «طيبة» أمام الحاشية في فونتينبلو. ابتهج جان، وعلى الرغم من دخله الهزيل لم يبخل على ملابسه، كان يطلب أن تُخاط له أجمل الملابس. أمضى الأسابيع التالية مُرتاح البال، وعندما جاء اليوم الموعود أحسّ بقواطع رخامية حادّة تنبت وتخترق لحمه.

داخل الصالة، كان عليه أن يقرص نفسه عدّة مرّات: ملك فرنسا هناك يُصغي إلى أشعاره الإسكندرانية. كان جان سارح الفكر: يعاين أبّهة المكان واتساعه، بِركة الحديقة الجديدة، الأنوار التي كانت تضفي الفخامة على أي شيء مهما كان تافهاً، كان يردّد بينه وبين نفسه: مسرحيتي هي التي تُعرض هنا، أمام حاشية بلاط فرنسا. لكن عينيه كانتا تعودان باستمرار لتمعنا النظر في وجه الملك. عندما كان يبتسم، لم يكن يعرف بالتحديد إن كانت هذه ابتسامة رضى أو استهزاء، كان

يروقه عدم اليقين هذا، «لا يجدر بالدولة أن تكشف بسهولة عمّا تضمره»، همس في أذن نيكولا.

بعد المسرحية، قدّمه موليير. سمع جان نفسه يقول بصوت ضعيف وهو خافض الجبين: «سوف أكون صوتك يا مولاي». هذه المرة أقلّه رآه الملك. وربما يكون قد سمعه أيضاً. وجّه إليه ابتسامة خاطفة. إن ذلك يحدث ببطء، فكّر جان، لكنه يحدث.

بعد عدة أيام حصل له موليير على إذن بنشر مسرحية طيبة. لم تعد الأمور كما كانت من قبل. عندما أمسك الكتاب بين يديه ورأى اسمه مطبوعاً عليه، حمله إلى الملهى الليلي، شرب نخبه وقرع الأقداح بحبور. كانت النظرة الطويلة التي تبادلها مع نيكولا جسراً امتد بينهما فوق الآخرين. أعلن وسط الجلبة اسم البطل الذي اختاره لمسرحيته الثانية. باختياره لشخصية الإسكندر الأكبر، سوف تكون كل الحظوظ إلى جانبه. خلال عشر سنوات، جاب الإسكندر الأكبر العالم غازياً، أسس سبعين مدينة، كان يتحدّث الإغريقية، وكان لديه معلّم اسمه أرسطو، كما قرأ كل أشعار هوميروس.

- لو أنه يعود بيننا قال جان، لتحدثنا معه، نفهمه ويفهمنا.

- لا تصنع منه رجلاً بالغ الشهامة، نبّهه نيكولا.

كان جان يحب أن يشعر لدى صديقه بتلك اللهجة الأبوية اللاذعة كي يخفي على نحو أفضل عظمة المهمة الموكلة إليه. كل الرجال الذين تعلّق بهم حتى الآن كانوا ينظرون إليه بازدراء من علياء الإيمان أو النسب، رغم إعجابهم به أو بسببه. كان لديهم دائماً سبب كي يتكبّروا عليه ويكرهوه ويقلّلوا من قدره. ولكن ليس نيكولا الذي كان، يوماً بعد يوم، وإن فعل فذلك حرصاً على موهبته ومجده وتفوّقه كشاعر.

سيكون بطله قدوة للملك، إضافة إلى أن الموضوع حر. انكبّ جان كالمعتاد على النصوص القديمة، ولكن بحريّة جديدة كانت تُلهب أطراف أصابعه: كان يلملم ما يناسبه، يغيّر الأحداث، وصل به الحال إلى اختلاق ملكة. لم يعد يشعر بالتبجيل والوقار نفسه حيال المؤلفين، هو معهم على المستوى نفسه مثل ندّ. ثم وضع مخططات، بنى حدثاً أراده أبسط ما يمكن، وزّع الحمل والوزن على طول المشاهد. حبٌّ في المركز، مزاحمة بين أمراء، خيانات، وعلى الخصوص رأفة. أولى اهتماماً أقل بالمعارك والوقائع العسكرية، ذلك لأن الملك اليافع لم يكن قد خاض أي حرب بعد. لم يحتفظ من انتقادات نيكولا إلّا بتلك التي يمكن أن تدفعه إلى الأمام. كان صديقه ينظر إليه دون أن ينبس ببنت شفة، مشدوهاً بإرادته الحديدية، حينذاك، كي يُغيظه، كان يعيب عليه ميله المفرط إلى عبارات التملّق، لكن جان كان يردّ عليه بأنه يعطي كل شيء حقّه وهو غير قلق، سوف يرى ما هو الأنسب. ولكن وراء هذه الغضاضة في أسلوب الصالونات، كان جان يخفي مشاعر أخرى عندما يؤلّف، بين جعبة الأبيات الغزلية التي كانت تأتيه معاً، كانت الآلة تتباطأ أحياناً فاسحة المجال لعبور بيت على الوزن الإسكندراني، بيت فريد حرّ، مثل أصلع في مهبّ الريح.

بعيداً عنك تسقم روحي وحيدة.

كان يلقي هذا البيت باستمرار مبتهجاً، مدهوشاً، وكأن أحداً غيره هو الذي كتبه. عن هذه الإشراقات لم يكن يتحدّث إلى أحد قط، ولا حتى إلى نيكولا. كما أنه لم يقل إنه كان يعطي فكرة الحب المركزي تلك أهمية أبعد بكثير من تماشيها مع العصر، وإن كان لا يفعل فذلك لأنه كان ما يزال يفتقر إلى الكلمات والجرأة والاعتياد،

كان لديه حدسه فحسب. فكّر جان: إنه نظام عصبي، مسألة نظر، كيف نرى الرجال الواقعين في الحب، نحدّد الدافع، نفهم المسبب الفعلي لتصرفاتهم. ثم ذات صباح، بينما كان وحيداً أمام دفاتره الكبيرة، رسم مخططاً قسّمه إلى ثلاثة مستويات:

أولاً، القاعدة:

كان دير بور رويال قد غرس فيه مثل لقاح رؤية عن الروح سوداء كالليل، دون أمل بالخلاص أو بالنعمة، لكنه كان يحاول منذ سنوات أن يدفن نفسه تحت عبء الأعمال والأيام كي يجعل حياته أكثر متعة. لكنه حاضر هنا، مثل ظلّ يختلط فيه وجه خالته وجسم هامون النحيل، ليصل به إلى خيال الماركيز الصغير تحت ضوء القمر.

في الطبقة الثانية، يتراجع كل ما قرأه وتبرز صورة ديدون التي تنحني متفجّعة. رغماً عن هوميروس، ورغماً عن العشاق، الحب يضني قلوب الرجال ولا يمنحهم سوى سعادة خادعة.

وفوق هذا، ماذا يوجد أيضاً؟ فكّر.

كان يشير كالأخرس أمام نيكولا، محاولاً أن يشرح له، نادراً، في آخر الليل فقط، بعد أن يكون قد شرب كثيراً. يحاول أن يقول له بماذا يشعر، عمّ يبحث، الأفكار السوداوية التي تحكمه، تدفعه وتقرع مثل الطبول دون أن يفهمها بوضوح. لكنه كان يبقى أبكم في أغلب الأوقات، ينتهي به المطاف ويتنهد:

- أنّى لي أن أكتب عن شيء لم أعشه في حياتي؟
- كاتب جدير بهذا الاسم ليس لديه هذا النوع من الوساوس، يردّ عليه نيكولا: منذ متى يتغذّى الشعر بالحياة؟

يوافقه جان في الرأي، ويهدأ موقّتاً، ثم يرى بناءه ذا الطوابق الثلاثة يبتعد مثل سفينة في عرض البحر، دون أن يفلح مع ذلك في

نـزع نظـره عـن ذاك الطابـق الثالـث المعتـم والخـالي. لذلك رسـمه على الورقـة مسـتطيلاً طويـلاً أبيض.

مـع ذلـك، اتّبـع نصائـح صديقـه، أنهـى مسرحيـة «الإسـكندر» مُسـتبعداً فكـرة النظـام المركـزي، ممتثـلاً للأعـراف والتقاليـد.

بلاد كثيرة وبحار كثيرة سوف تفرّق بيننا

لن تترك لنا سوى الرغبة في الموت...

سوف تحرمني من ذكراك...

ثم يصحّح: سوف تمّحي قريباً ذكراك.

هـذه صـور، لا شيء غـير الصـور، ردّد بينه وبين نفسـه. صور أكثر حزنـاً وأكثر عظمـة من صور الآخريـن، علامة فارقة، هـذا كل شيء.

كان يطـوف بفصـول مسرحيتـه في الصالونـات، في الأزقّـة، يتابـع قراءاتـه مسـاءً بعـد مسـاء. مـا إن يبـدأ حتـى يلحـظ النظـرات تخمـد، الأحاديـث تتوقّـف، وكأنـه حـين يلقيهـا، كان يبسـط شراعـاً ممـدوداً منوّماً.

- في الحقيقة لقد فهمت، شرح له نيكولا، لديك موهبة الاحتفال.

خـلال أربعـة أيـام علـى التوالـي، حققـت فرقـة موليير إيـرادات هائلـة. كان جـان موجـوداً هناك يحصي الـرؤوس، يتفحّـص الوجوه، يبتسـم، ولكـن منذ اليـوم الأول راوده شـعور بالضيق. كانـت أبياته في أفـواه الممثليـن تـدور مثل عبارات جاهـزة، اصطلاحـات صرفة تافهة وفارغـة، فـي حيـن كان بحاجـة إلـى صـدور قويـة وأصـوات تحمـل الصرخـات والنحيـب مثـل أصـوات المحاميـن. وافقه نيكـولا قائلاً: إن التمثيـل الطبيعـي لا ينفـع. لكنـه كالعـادة، أمـره بالصبـر والامتنـان تجـاه موليـر. فـي الأمسـية الثانيـة تعـرّف إلـى كورنـيّ عنـد خروجه

من المسرح. اقترب منه متلعثماً، جزعاً كما لم يتصوّر نفسه قط. مع ذلك، اكتشف تحت عجرفة الكاتب الكبير تهيّج الخوف الذي تُبديه الحيوانات المهدَّدة. لهذا السبب كان كل ما يريده هو أن يكون مكانه. كان يحسده في كل ساعة من النهار، حتى في أحلامه التي كان يخرج منها وهو يعارك ويشجب ويتصبب عرقاً. في جلبة المسرح ظن أنه سمعه يقول عنه: «إنه أكثر موهبة في الشعر منه في المسرح». ارتجفت ذقن العجوز عندما قال ذلك، لكن إلى الأعلى، أوحت عيناه بتفوقه على راسين بسنوات. حتى وإن كان هذا الحكم غير مؤكّد، لم يعد يغيب عن فكر جان. في الأيام التي تلت، كانت كلمات كورنيّ تلتف حول حركاته وأفكاره منذرة بوقوع خطر مُحتمل. ولأنه كان هدفاً لكل التهديدات، شعر جان أنه هشّ وقوي العزيمة في الوقت نفسه.

بعد أيام قليلة وبمفاجأة الجميع، مثّلت فرقة أوتيل بورغونيّ مسرحية الإسكندر أمام الملك. هذه المرّة، حدّق إليه الملك من رأسه حتى أخمص قدميه. كانت النظرة التي تبادلاها تثبت توافقاً، توافق جسم مع انعكاسه في المرآة. أحس جان بشعور حارق أسفل ظهره عندما سئل إذا كان على صواب أو على خطأ في أن يحوك دسيسة ضد موليير، كان يعرف الجواب، على الرغم من استهجان نيكولا الذي كان يُذكّره بأن إيرادات القصر الملكي تتدهور أمسية بعد أمسية. راح جان يشرب أكثر من ذي قبل، لا يمسّه أي شيء يمكن أن يخفّف من سروره. لم يعد يذهب إلى مسرح موليير، ورفض أن يتصور أشعاره تُشوّه في صالة نصفها فارغ. جلّ ما كان يتمناه هو أن تهبط الإيرادات إلى القاع كي تتوقّف الفرقة نهائياً عن أداء المسرحية. صار لاسمه نفوذ، سلطة مخيفة، زادها حسّ الخيانة لديه.

- هل اقتنعت الآن؟ سأل جان نيكولا. كان الملك يحتاج إلى كاتب تراجيديا بارع كي يتعرّف إلى ذاته.
- ظاهرياً.
- الأداء العفوي لا يناسب التراجيديا.
- أنت الذي كنت تحب هذه العفوية عند موليير...
- لهذه العفوية حدود.
- حدود الملك؟
- لا، حدود الاحتفال. أنت الذي قلت لي ذلك.

ألحّ نيكولا في التدخّل لمصلحته لدى موليير، لكن جان لم يكن يأمل أي صفح. كان على كل حال قد اعتاد اللعنات المدوّية. حذّره نيكولا من تكتّل العداوات، أيّ التحالف المحتمل بين كورنيّ وموليير، هذا غير الإشاعات التي كان يسمعها هنا وهناك بأنه كان يدفع الحب إلى الواجهة بشيء من المبالغة، وأنه لم يقدّم في مسرحيته «الإسكندر» سوى عاشق رقيق مرهف متخم بأبيات الشعر لم يفلح في الحرب. كان هذا الانتقاد أعنف من ضرب العصابات، وجرحه في رجولته. لهذا راح يقضي ليالي الغرام ليلة بعد ليلة. محاولاً وهو بين أحضان النساء أن يُقنع نفسه، أن يتلقّح بنوع من السموم والعقاقير، أن يتزوّد بطاقة جديدة، ولكن مهما فعل لم تكن إرادته تفضي إلى شيء. في كل مرة، كان يستولي على جسده الخوف، في كل مرة كان جسده ينسى، يلقي أسلحته، ثم يترك فريسته دون ندم أو أسف. بقي جان يتساءل عن طبيعة العلاقة بين الشعر والحياة.

- هل يجدر بنا أن نشعر كي نكتب أو بالعكس؟
- أنت حسّاس تجاه تفاصيل صغيرة تافهة! غضب نيكولا. بدأت تظهر لديك عقلية اليسوعيّ!

هناك ثلاثة خيالات: رجلان وامرأة يجولون. يتحرّك من حولهم جمع غفير. يمشي جان على إيقاع الرجلين بينما كانت المرأة تترنّح، أمسك جان بذراعها وتعرّف إليها، إنها ملكة طفولته، ديدون المحزونة المخزية. كانت قد وُبّخت من كلّ حدب وصوب. ربما كان لها ملامح أنييس عندما كانت أصغر سناً وتُلصق جبينها بجبينه. حدّق إلى وجه الرجلين: موليير وكورنيّ. عجوزان، تعبان، أضناهما المرض بشكل واضح للعيان. تئنّ الملكة أكثر مما تتكلّم. جسدها ثقيل، نظرتها تائهة. تمدّدت فوق سرير وبدأت تبكي. كانت دموعها فصيحة أكثر من كلماتها، تجري متواترة بشكل واضح مع تقطيع الشعر، وبشيء من العجلة. يشيح الكاتبان العجوزان وجهيهما عنها، لكن جان جلس عند رأسها. شحب لونها من موت مقبل. تقول الملكة إنها فقدت شيئاً ما. تحكي عن حبها لـ»إينه»، عن رغبتها في الموت. لا شيء في شكواها مصطنعاً، بل على العكس، لم يسبق لجان أن سمع صوتاً خفيضاً وقوياً مثله. عند الصباح تبدّدت كل الظلال، لكن الهواء كان ما يزال يهتزّ بالنحيب.

في الأيام التي تلت، كان جان يُغمض عينيه وهو وسط حديث، يستجمع أفكاره كي يستعيد شذرات من سكرة الموت الموزونة تلك، من ذاك الصوت الخفيض الرائع، كل ما عليه القيام به هو ألّا يتركه يهرب، وأن يبقى ملازماً للملكة.

أثار إعلان مسرحية «الإسكندر» سورة غضب بور رويال. لم يُلفظ اسم جان قط، مع ذلك كان الكل يستهدفه، حتى إنه اتُّهم بارتكاب مجزرة روحية. في كل مرة كانت تصله الأخبار، كان

يبتلـع ريقـه طويـلاً، ونظرتـه مشـدودة إلى أضلاعـه التي كانـت تقتلع منـه مـن الجانبيـن. لحسـن حظّـه، عندمـا كانـت تعلـو التهديـدات بالحُـرم الكامـل والبسـيط، كان ابـن عمـه الوفـيّ يحميـه. الشـيء الوحيـد الـذي كان يُهدّئـه، حيـن يتحقـق مـن أن هـذا التشـدّد الـذي ينصـبّ عليـه هـو التشـدّد نفسـه الـذي كان يدفـع الدير إلـى رفـض أي تسـوية مـع الملـك أو مـع البابـا، وليـس مُوجهـاً إليه وحـده فقط. «سـوف ينتهـي بهـم المطـاف إلى المـوت غمّاً مـن جرّاء ذلـك»، قال لنفسـه. حينـذاك، كان نكـران الجميـل يعـود ليعذّبـه، ويطغـى عليـه علـى الفـور هـذا الانبهار السـاطع الذي بـدأ عنـد مدخل أيـام حياته. هـل يمكـن الحديـث عـن المجـد دون أن يكـون المـرء فـي معسـكر الطموحيـن والمغرورين؟ كيف يفسّـر هذا الانشـراح عنـد التفكير أنه لـن يعـود ذات يوم إنسـاناً فقـط إنما اسـماً؟ اسـماً على قيـاس وطن. مثـل هوميـروس، مثـل ڤيرجيـل. أحيانـاً، عندمـا كان الليـل يرخـي سـدوله، كان جـان يشـعر بالإنهـاك مـن هـذه الدائـرة مـن الأخسـفة التـي تبـدأ منـذ الفجـر، من هـذا التعاقب فـي الأطـواق المتباينـة التي عليـه أن يُدخـل فيهـا روحه، تكـون واسـعة ومريحـة أحيانـاً، وضيّقة حـدّ الاختنـاق أحيانـاً أُخـر. مُضيئـة تارة وتـارة مُظلمـة. المجـد يليه الجحـود، المجـد وراءه الجحـود، وهكـذا إلـى أن يشـعر بالغثيان...

١٨

دوبارك، دوبارك، دوبارك

كان يـردّد اسـمها باسـتمرار لأنـه يحب فيـه هذا السـجع الذكوري والقـاسي الـذي كان يصرعـه مـع ابتسـامتها وحلاوتهـا. إنهـا هنـاك، تتدلّـل، فاتنـة، حـرّة، ممثّلـة بـارزة. منحهـا مجد جـان الجديـد الرغبة في الإصغـاء إليـه وتمثيـل مسرحياتـه. لم يكـن جـان يقاوم.

في البـدء افتُتِـن بهـا قليـلاً، ولكـن بعـد بضعـة أيـام صار يسـتيقظ ليـلاً، لا ليكتـب ولا ليقـرأ، بـل لأن بطنـه كان يوقظـه، وترتمـي فيـه كل أفـكاره التـي تقسـو عـلى الفـور كالحجـارة وكأنهـا ترتمـي في بحـر. كان يضـع يـده عـلى معدتـه، يضغط، دون أن يشـعر بـأي ارتيـاح. كان ينهـض في قلـب العتمـة، يجـوب غرفته ويتسـاءل مـاذا تفعـل؟ هل هي وحيـدة أم في أحضـان شـخص آخـر؟ ويتسـاءل إذا كان عـلى وشـك الجنـون والحماقـة. في الصبـاح، كان يسـارع إليهـا، يطرح عليها أسـئلته قلقـاً، يتأسـف لأنـه عاجلهـا منـذ الصبـاح الباكر، يقـول لهـا في النهاية وهـو يضمّهـا بـين ذراعيه إنـه يبالغ، لكنـه يحبّها كثيراً. ولكـن في الليلة التاليـة كان يبـدأ من جديد. لم يكن يعرف إن كان ذلك بسـبب سـمعتها في الغوايـة أو بسـبب هـذا التمنّـع الواهـي الـذي يحسّ بـه عندمـا كان يعانقهـا، كانـت تستسـلم لـه، تضغـط بثدييهـا عـلى صـدره، تقـدّم لـه شـفتيها، مـع ذلك، في هـذا الفيض مـن الحـركات والاندفاعـات، كان يحسّ بشيء مـن التحفّـظ، وبأنها قد تتخلّـص منه إلى الأبـد. عندما كان

يتجرأ ويحدّثها عن ذلك، كانت تطمئنه تماماً، فيشعر بالعار ويعترف لها بأن مخاوفه ليست سوى توسّلات لأننا نخاف دائماً فقدان من نحب .

- ولكن من يحدّثك عن الفقدان؟ صاحت ضاحكة.

أيقن من هذه الضحكة أنها كانت تستمتع بألمه ومخاوفه: من طريقتها تلك كلّما التقيا، كيف كانت تُقلقه من فكرة غيابها وكأنها تناكد هرّاً. صار سجين دائرة لم يعد فيها للأخلاق مكان، يتعاقب فيها سؤالان بانتظام، كان يريد أن يعرف: هل كانت مثله تُسرُّ بلقائه؟ وهل ترغب فيه كما يرغب فيها؟ أضحى هذا التعادل هوساً، سعياً لا يرتوي، غاية كل أيامه. كان يلفي نفسه ينظر إلى قلمه عوض استخدامه ، يبقى حالماً، يخربش رسالة صغيرة، ينهض، يثور غضباً عند التفكير أنه سينتظر الردّ طويلاً، فيرتدي ملابسه، يذهب لملاقاتها، ثم يتراجع. صار يغيب عن أصدقائه وينسى للحظات وجود الملك نفسه، ألحق الضرر بنيكولا الذي لم يكن يفهم شيئاً من شكواه الجديدة. يقول وهو ينظر إلى أصابعه: «لا يمكن ملء فراغ الغياب، يمكنك فقط تحريك يديك في الهواء دون أن تلمس سوى لحم أصابعك. للأفكار أيدٍ تشقّ طريقها، تتسابق فيما بينها، الذهن خاضع للإيماءات والحركات المضطربة، يريدها أكثر انضباطاً خوفاً من أن يتعرّض القلب للجزع، لكنه أضحى حيواناً متوحشاً يثور على إيعازات العقل». كان نيكولا يشعر أحياناً بالقلق فيتجرّأ على تخفيف حماسته تجاه دوبارك، لكن جان كان يجيب على الفور «لديها مفاتن لا مثيل لها، سحر، بشرة رائعة». كان نيكولا يتوقّف عن الكلام ويتركه يُتابع، لكن جان لم يكن يتمكن من إكمال كلامه. كانت تعبر خاطره رؤيا، حركة، موقف،

ديكـور، ذكـرى شيء قالتـه. لم يكـن يعـترف أن ذهنه كان يغـرق مراراً خـلال النهار هكـذا في ظلمات وتخمينـات ورهانات لا يكـون فيها هو حبيبهـا، بـل يكـون مقصيّـاً، لأنهـا لم تعـد تريد أن تـراه، ولم يعـد لديها تلـك اللهفـة التـي يحس بهـا تخفـق في عروقـه، إلخ. لشـدّة مـا عانى، بـدأ يحقـد عليهـا، تمنّـى أن تمـوت بـدلاً مـن أن تهـرب منـه، أو أن تقع فريسـة مـرض خبيـث، أن تعلق بـين مخالب كما هـو واقع بـين مخالبها. العاطفـة ليسـت سـوى خرافـة في نظـر تلـك الكمّاشـة التي تمسـك به بكليّتـه. «ما نسـمّيه حُبّـاً ليس رقـة ولا عذوبة، لا شيء أقـرب إليه من الكراهيـة»، يقـول متنهـداً: لم يسـمع أغبـى مـن أولئك الذيـن يقولون في الحـب: إنهـم يريدون السـعادة لمن يُحبـون. «إنه داء أعانيـه»، أردف. هـزّ نيكولا رأسـه مُشـفقاً.

عمـل معهـا عـلى مسرحيتـه الجديـدة، جعلهـا تُعيـد البيـت نفسـه عـشر مـرّات، عشريـن مـرة دون أن تبـدي أي ملامـة، ولا حتـى نظـرة انزعـاج. لـو كانت تُحبّه لمـا تحمّلت قلّـة المراعاة هـذه. كان يثـور غضباً، يعاتبهـا على لا مبالاتها، تسـتنكر للمرة المائة وتقـول إن لا علاقة للحب بذلـك، فهـذا عمـل، وهـو سـيصنع منها أكـبر نجمـة لأنه الأكـبر. كان يستسـلم وينتشي بهذا التـوازن، الثنائـي الرائع الذي يشـكّلانه: الكاتب الكبـير وممثّلتـه. بعـد كل تمريـن، كان يعيـد كتابـة أبياتـه، وينغمـس في قصيـدة ڤيرجيـل القصـيرة التـي ألهمتـه، يعيـد صـوغ ترجمته سـاعات، قبـل أن يتوصـل إلى رسـالة صغـيرة خاصـة. الحـب ليـس نـاراً تُحبس داخـل الـروح. كل شيء يخدعنا، الصـوت، الصمت، العينـان... وتُجيبه أنهـا لم يسـبق لهـا أن قرأت شـيئاً بهـذه الروعة.

بمـرور الوقـت صـارا يظهـران في العلـن، في الصالونـات، وفي شـوارع المدينـة حيـث كان جـان يختـال لأنـه يمسـك بـذراع امـرأة

مُشتهاة، كانوا يهمسون هنا وهناك بأنها ستكون له وحده، وربما مخلصة أخيراً.

في عيد الفصح، تركت دوبارك فرقة موليير وانضمت إلى فرقة أوتيل دوبورغونيّ كي تمثّل مسرحيته. طار جان فرحاً. هكذا أدرك أن الحياة يمكن أن تُعاش على مستويين: على السطح أو في العمق. يكفي نجاح واحد، غرور واحد. يمكن للمرء أن يختار الطبقات السطحية التي لن تمنع الألم ولا الفشل بالتأكيد، لكنها يمكن أن تحمي من الأسوأ. صعُبَ عليه تسمية هذا الأسوأ بدقّة، لكنه وضعه في مسرحيته، ألقاه فيها، تبعاً للأيام، كتلة واحدة أو منساباً، وفكّر أن لا أحد قبله وضعه بهذه الطريقة. بين الحين والحين كانت تلفت نظره إلى أن المرأة الأخرى إرميون، يمكن أن تُمثّل بشكل أجمل وأعظم، لكنه لم يتراجع عن رأيه، سوف تكون أندروماك.

- ولكن لماذا؟ قالت بإلحاح. فهي لا تقول شيئاً تقريباً...
- لأن الأخرى تتطلب شيئاً ليس موجوداً لديك.
- آه هكذا! وما هو هذا الشيء... هل تشكّ في موهبتي؟
- لا، ليس لموهبتك علاقة بذلك. لسوء الحظ، لم تختبري بعد ما اختبرته.
- أنت مخطئ.
- أثبتي لي ذلك.

كان جان وقحاً وهو يعرف ذلك. الممثلة التي ستلعب دور إرميون ليست أكثر براعة، لكنه كان يستخدم كل الوسائل للوصول إلى غايته، لم يكن يلبّي رغباتها، ويرغمها على أن تستجديه. لذلك راحت تظهر ملاطفاتها الخبيرة فيها، ولكن وبعد أن انتهيا من

العتاب وسمعها تستعيد صوتها اللعوب، وقف، أصلح هندامه واكتفى بالقول بلهجة قاطعة:

- عليكِ أن تضيفي إلى حبيبتي أندروماك الفاضلة بعض النشوة، سيكون ذلك حسناً! إنها مراوغة وقاتلة أطفال. وسط بكائها الشديد، أريد أن أسمع طعنات السكّين.

وهنا أيضاً، بينما كانت دوبارك تتطلّع إليه بحيرة، راوده الشك إذا كانت تفهم كل العنف القادر عليه، العنف القادر عليه كل الناس.

- على كل حال، بطلتك إرميون ليست سوى فتاة مراهقة متعالية ووقحة! من يمكن أن يريدها؟ قالت هازئة.

أثناء أحد التدريبات، كانا يعودان دون ملل إلى شطرين لم تتمكّن من نطقهما كما يرغب جان.

هنا أو حتى هناك يعدني القدر.. سعيداً في بلواه، هل تسمعين؟ سعيداً في بلواه، شدّدي، ارفعي هنا صوتك، كي نسمع ونرى كيف يمكن لأندروماك النقيّة أن تخون هي أيضاً، كيف لا ينجو من الخيانة أحد، كيف تكون مستعدة للوقوع بين أحضان العدو...

- ولكن هذا بسبب أشعارك الإسكندرانية! فهي تُخفي كل النبرات.

- هذا أفضل، لقد صيغت لهذا الغرض! عليك مهمّة التسلل إلى داخلها كي تُخرجي منها المعنى!

- أريد أن أراكَ في داخلها.

- ولكن سيّدتي، أنت الممثلة الكبيرة. أكبر من الكل، أليس كذلك؟ هيا، أعيدي...

أخذت نفساً عميقاً، اجتهدت، لكنه عبس مرة أخرى وغضّن أنفه.

- اسمعي، إذا كان هذا يفيدك، فكّري في النهاية، عندما سيموت بيروس، سوف تعترف لإرميون بأنها لم تكن لا مبالية تجاهه. حارق المدن هذا، العدو اللدّود، نعم، كانت تُحبّه! من الآن، أريد سماع ذلك، ذلك التحوّل، لا تعطيني أندروماك نقية ناصعة، لوثيها قليلاً.

- ولكن هذا مستحيل...

- أقول لك غُرّر بها، أندروماك تحب بيروس. يتسلل الحب إلى أي مكان، يُفسد كل الأمور الطاهرة.

- وكيف تعرف ذلك؟

رأى جان الحيرة والخوف يلتمعان في عينيها، تساءل عن الرهان الحقيقي في كل هذه التدريبات. في الدقائق التالية استأنفت، وازنت بشكل أصحّ، بدأت تغوص في عمق الأبيات أكثر، وتُسمِع النغمات الخفية فيها. كانت تتعرّق، تُظهر الكثير من الحركات، غير أن جان كان يكره الحركات. إذا رفعت يداً، دنا منها، أمسكها بعنف، أوقف حركتها. للمرّة المائة يقول: إن كل شيء موجود في التنفّس، في الإلقاء، التراجيديا لا تعرض كائنات عادية إنما أبطالاً، وكل هذه الإيماءات التي تشكل حياة البشر غير مجدية. كان يحلم بجسم صرف، مكثّف، يكون قادراً على أن يتحرّك بكليّته، بإيقاع ودون حركات.

- لو قمتِ بدور إرميون، لجعلت منها مريضة بالصرع، ختم قائلاً.

١٩

أراد الملك أن يحتلّ «لافلاندر»[١]. جنّد ما بين خمسين ألفاً إلى اثنين وثمانين ألف رجل ووضعهم تحت إمرة القائد دوكونده. لم يذهب إلى الجبهة بعد ولكن كان هذا وشيكاً. كان يصعب على جان أحياناً أن يتخيّل هذا الفتى الذي يرقص ويحب الشعر يمكن أن يغطيه الوحل والدم في يوم من الأيام. على كل حال، لكل واحد مسرح عملياته. إذا تقدّمنا معاً، فكّر جان، سوف تُقدّم مسرحياتي في كل مكان بينما يغزو هو بلاداً جديدة، أنا سأكون سيداً على العقول، في الوقت الذي سيسود هو على الأجساد. كان يمكن لجان أن يشعر بأنه الخاسر في هذه القسمة، ولكن على العكس تماماً: كانت المقارنة تجلد أفكاره بضربات شديدة بحيث أنه لم يعد يميّز التفاصيل ولا يماحك فقد كان مهووساً بفكرة التناظر في ذاتها، بتعادل أفعال الملك مع أفعاله.

- سأجعل الدموع تنسكب فيما هو يريق الدماء، قال سرّاً لدوبارك.

ابتسمت، اقتربت، قدّمت نفسها دون تحفّظ أو استهتار. التواضع لا ينفع شيئاً فكّر جان.

كان الحديث في كل مكان عن ذاك الحدث الجديد «أندروماك»، عن الأسلوب والعظمة والشخصيات العميقة، وذاك الخداع من عبقري اعتمد على إظهار كلٍ من أندروماك وبيروس بطلين، بينما

(١) لافلاندر: القسم من بلجيكا الواقع في هولندا.

لا يهتز فوق خشبة المسرح سوى أداء إرميون وأوريست. أثنوا على نَوح أندروماك وحبها الراسخ، بدأ الناس يتحدّثون عن لغة فريدة. نقل إليه نيكولا أيضاً عبارات قلّ فيها المديح: لم يسبق للجمهور أن رأى عاشقة كريهة مثل بطلته إرميون، وذهناً مريضاً مثل أوريست. رغم ذلك، هما بطلان عظيمان، نُعتا بالبائسين.

– مع ذلك الناس متأثرة، أليس كذلك؟ قال جان بانزعاج.

– نعم، النساء بشكل خاص. حتى إنه يقال إن في داخلك امرأة.

نِعمَ الأمر. إنه الإثبات على أن طابقه الثالث صار مسكوناً، وديدون لن تتيه فيه وحدها، وأن هناك خيالاً آخر يروح ويجيء فيه، أحياناً خياله، وأحياناً خيال آخر. كان يعرف أن مطالعاته ومُثُله وطموحاته قد بدأت تدخل إلى مسرحه، وأهم من ذلك، بدأ يدخل الجسد: الجسد البشري الحقيقي، المجروح، الراضي، النافد الصبر.

لكن جان لم يُعلّق. اكتفى بشكر نيكولا على دعمه المستمر الذي يُقدّمه، واستمر في الاختباء منه وهو صابر على بلواه، يتآكله التفكير بأنها مع شخص آخر ولن تعود، وأنها ستكذب أيضاً وأيضاً. كان يقول الترّهات: إنه مريض، يشعر بالغثيان، يعاني صداع الشقيقة. لم يكن يريد أن يرى أحداً سواها، لكنها لم تكن تأتي. لا شيء كان يهدّئه، لا أوفيد ولا سينيك، ولا المجلّات التي تتملّق أشعاره الإسكندرانية. ماذا ينفعه أن يكون عظيماً إن كان تعيساً؟ مرات عديدة تمنّى أن تفقد ذراعيها وساقيها كي لا تمنح مداعباتها لشخص غيره، تلك الفاجرة التافهة. كان بخياله يفرك جلدها بقماش خشن. نجح في أن يُظهر على خشبة المسرح هذا الإنهاك في الروح الذي يتفجّر بالوعيد، والذي يجعل الإلقاء مثل التعرّي. أصبح على يقين أن الحب يمكن أن يؤدّي إلى الجنون وإلى اضطراب عقلي كامل... إلى الهلوسة، كانت آلاف

الأفاعـي تنفـث داخـل رأسـه كـما تقـول أوريسـت. كان ينظـر إلى هذه النهايـة كـشيء مُحتمل، مثل سـاحل ضائـع في قلب الضبـاب، بعيد لكنه قريـب، في طرِيـق آلامـه المسـتقيم التي كانـت تخنقـه مائة مـرّة في اليوم. كان يقـول لنفسـه: «يكفـي أن ألمـح مـن بعيد كي أفهـم وأتخيّل صـوّراً، لا أن أعـبر مـن ضفـة إلى أخـرى، يكفـي أن ألمـح فقـط، وأحـسّ ببداية اللدغة».

في كل مـرة يـرى بطلتـه إرميون تنهـار في نهاية الفصـل الرابع، كان يتسـاءل فيـما إذا كانـت سـتأتيه الشـجاعة كـي يبني الحـدث في مسرحية جديـدة بشـكل مختلـف، دون أن يرتبك بالخـدع، يصنع من شـخصيتها الرئيسـة عاشـقة تكشـف عن صدرها وتزأر، لا تسـعد حتـى بالانتقام، والمجـد بالنسـبة إليهـا ليس أكثر من ثـوب متهرئ أبلته بطـلات كورنيّ. عـلى كل حـال، قـال جان لنفسـه، حالياً ليس الأمر بهذا السـوء، بسـبب النظـرة الوقـور والمجروحـة لعشـيقته التـي كانـت ترمقـه بها كل مسـاء عنـد خروجها من خشـبة المـسرح، بمثابة حبل لا يلتقطـه، لأنها أدركت تمـام الإدراك أن الـدور العظيم هـو دور إرميون الـذي تلعبه وليس دور أندرومـاك الـذي كانـت تتوقّـع أن يكـون مـن نصيبهـا وفهمـت أنه لن يُعطيهـا إياه.

بعـد مرور شـهر عـلى عـرض المسرحية أمـام البلاط الملكـي، مات الممثّـل الـذي كان يـؤدّي دور أوريسـت على أثـر نوبة قلبيـة. كان رجلاً ضخـم البنيـة وبدينـاً تجاوز عمره السـتين عامـاً. بالتأكيـد كان قد أتعب رئتيـه على خشـبة المسرح منـذ أكثر من ثلاثـين عاماً، ولكـن لم يُحمّله أي كاتـب قـط جنوناً كهـذا. انتـشر الخبر في كل مـكان: أن هياج أوريسـت هـو الـذي قتله. حـزن جان ومشـى مختـالاً. ذهـب لرؤيتهـا، ومن دون مداعبـات أو عواطف، ألقى بنفسـه عليهـا بقوّة جعلتها تشـعر بأنه قادر

على تمزيقها. لم يسمع احتجاجاتها ولا حشرجتها، أتاها من الخلف كي لا يرى وجهها الجميل. فضّل أن يلجها من الخلف، كان عند كل حركة يذهب شأواً أبعد، يميت لحمها كما أماتت قلبه، يبتسم وهو يشتمّ رائحة الدم تلك، وهذه السلطة الوحيدة التي يمتلكها منذ الآن: أن يميت ممثلاً. وأكثر من ذلك، أن يُميت ممثّلة.

استفادت مسرحيته من المأساة. تعاقب عرضها أكثر من ثلاثين مرّة، ما جعل نيكولا يتفاخر في كل مكان أن عام ١٦٨٨م هو عام أندروماك، حتى موليير، لم يُقاوم متعة تمثيلها على مسرحه على شكل مُحاكاة ساخرة يبالغ فيها بتصرّفات شخصياتها وغرامياتهم. جعلهم يتكلّمون بأبيات شعر طنّانة وملتبسة. إنها خصومة شريفة، فكّر جان مُغتاظاً من إشاعة خبر جديد في الجرائد عنه وعن سفسفته. اتّهم بالإكثار من العبارات الغامضة وإعاقة الفهم ونقاء اللغة الفرنسية. واتُّهم نيكولا بأنه يقرأ له أسماء وصل تسبقها أسماء مُبهمة، ونعوت غير أكيدة، وأفعال أسيء صوغها. كان جان يومئ برأسه، يُحاجّ، يرافع لمصلحة علمه بالنحو، يُدافع عن وضوحه وهو العارف أن نيكولا هو الدقّة بذاتها في كلّ ما يتعلّق باللغة.

- أظن أنني أحلم بلغة أكثر نقاء، اعترف جان.

نجاحه الباهر غيّر العشيقة. لم تعد تتركه ينتظر، ولا تلغي أي موعد، صارت تنظر إليه منذ ذلك اليوم دون ذاك التعالي، بل بتصاغر من كان راضياً دائماً. خلال بضعة أسابيع ذاق حلاوة الانسجام التام، وترك ديدون من جديد وحدها في طابقها الثالث. ذات صباح أخبرته دوبارك أنها حامل. انحنى، قبّل بطنها كأنها يد جاءت لتعوّض كل

الإخلاف في الوعود. في المساء وهي نائمة بقربه ، كان يحدّق إلى الظلام بنظرة ذاهلة، ويتساءل إذا كان سيستعيد أبداً ميله إلى الرثاء، ذلك لأن قدميه الآن ترتكزان فوق أرض مستوية، كل شيء فيها ثابت، لا شيء يسري فيها، لا شيء ينزلق. صفحات أوفيد وسوفوكليس لا تغيّر فيها شيئاً. لن يصرّ على ذلك وقرّر كتابة ملهاة. سوف يُزاد إلى صيته كلمة «المرونة» التي يتحدثون بها عن كورنيّ وعن كل الكتّاب الذين لا تخيفهم حدود الأنواع. تجدر بالكاتب الكبير أن يعرف كتابة كل شيء، كما كان عليه أن يظهر لموليير بعد تلك المحاكاة الساخرة الغادرة التي كتبها ضدّه أن بإمكانه اللعب في ملعبه. استعار من أرسطوفان، من المسرح الهزلي، ولكن كان ينتابه أحياناً شعور غريب بعدم الارتياح، كأنه يعمل دون سند ودون خيوط. حينذاك كان يغادر طاولته، يذهب للقياها، يشمّ جلدها، يدفن رأسه في صدرها، ويتغذّى من هذا الكائن الثنائي الحياة. إن أمكن القول، كان بوسعه التوقف عن الكتابة والاكتفاء بالبقاء برجوازياً، رجلاً مثل الآخرين، حتى ذلك اليوم الذي أعلنت فيه خبرها الثاني بعد بضعة أسابيع: لن تحتفظ بالطفل. أمام ما تبدّد مثل وهم، لم يردّ، أذعن راضخاً وطمأنها أنه سيكون إلى جانبها لمساندتها.

انتظر جان في بيته قلقاً يحدّق إلى ملاءات السرير حيث كان يضمّها إليه ملآنة وبيضاء، وسوف يراها من جديد فارغة وملوّثة مثل طير داجن. مرّت الساعات. كانت قد قالت له: إن الأمر قد يطول، وليس عليه أن يأتي قبل أن يُسمح له بذلك. في مساء اليوم التالي، جاء من يخبره أن دوبارك فارقت الحياة. صعدت نار حارقة في ساقيه وأشعلت وركيه وأضلاعه. بلحظة واحدة، أمسى هيكلاً من عظام وحطباً اشتعلت فيه النيران.

صار يحتال على حزنه بالمراوغة، يُقنع نفسه أنه في حلم وسوف يلتقيها قريباً، أو أسوأ من ذلك، أنه على كل حال لم يعرف معها فعلياً إلا أسابيع قليلة من السعادة مقابل أشهر عذاب طويلة. في صباح بعض الأيام، لا يعود وجهه وجهاً إنما جرحاً نازفاً فحسب، يبقى يذرف الدموع حتى المساء. بعد أن يغفو، كان يفتح عينيه كأنه يتقيأ، يستحوذ عليه شعور بأن أيامه لا طعم لها من دونها. من بين أجفانه المنتفخة كانت تتمدد خيوط من نور ساطع مزعج شديد البياض، كان يُبعده كأنه متطفّل ويغلق جفنيه في الحال أو يترك دموعه تنساب. وحده العمل كان ينسيه عذابه، ويشدّ على ذهنه بقوّة ما يكفي كي لا يدعه يتذكّر أو يتحسّر. أمام الآخرين، كان يتماسك ويخفي حزنه، إلا مع نيكولا الذي اعترف له ذات مساء أنه مثل أرض جرداء.

- على الرغم من نجاحك، على الرغم من مجدك؟
- على الرغم من ذلك.

كي يُعزّي جان نفسه، كان يبحث عن مقارنات، يردّد بينه وبين نفسه على سبيل المثال أن هِيام ديدون أكثر عذاباً من عذابه: عندما يخطف الموت من نحب، على الرغم من أنه يخطفه منّا لكنه لا يخطف شيئاً آخر، أما الهجر الصرف والبسيط فينتشل منا كل شيء بلمحة واحدة ويلقي فوق أول عهد بالوفاء نور الكذب الأسود. هذا مثير للشجون، لكنه لم يعثر على شيء آخر: راح يقارن عذابه بعذاب إحدى البطلات، يوازن بين الألمين، يلجأ إلى الخيال كي يحتمل الواقع. لذلك عاد إلى القصيدة رقم أربعة من الإنيادة كأنها معطف قديم يحتمي داخله. آه لو عرف... لو عرف أن شعور الإثارة والخوف في كل مرة كان يفتح فيها الكتاب عندما كان صبيّاً سوف يكون له في يوم من الأيام عزاء، لما شعر بكل ذاك الذنب

أمـام معلّميـه، ولكـن مـاذا كانوا سيقولون عن هـذا الضيـاع دون الله، عـن كل هـذا الشـقاء بسـبب امـرأة آثمـة؟ بالطبـع كان يعـرف. بالطبع كان يشـعر في وقـت مبكـر أن شـكوى ديـدون كانـت تلقـى في داخلـه صـدى يتجـاوب مـع ألمـه كأنهـا توأمه وهـو منحـاز إليهـا بعمـق. كان يقلّـب أفـكاره طـوال النهار، يفـرغ ذهنه وقلبـه، لكن دون جـدوى. لو أنـه أفلـح فقـط في أن يُلبس هـذا العـذاب كلمات مـن عنده، لاستنبط ترياقـه وعـرف كيف يلجـأ إليه في كل مرة يسـتوجب ذلـك، في كل مرة يـأتي الحزن ويرميه بسـهامه الحـادّة، هذا الحـزن أو غيره. ترياقـه وترياق العـالم كلـه. لـو أنـه يكتـب مسرحيـة الحـب المغـدور، شـجن الهجـر وعذاباتـه فقـط، الغصّـة، لا يكتـب غير ذلك، خمسـة فصـول بحالها، لا شيء غـير هـذه الغصّـة، وهكـذا أتفـوّق عـلى ڤيرجيـل، فكّـر جان.

أخـيراً سـمح الملـك بعـرض مسرحيـة «طرطـوف» لموليـير. لا يمكـن لجـان أن يفـوّت حدثـاً كهـذا. «سـواء كنـتَ مكتئبـاً أو لا»، قال لـه نيكـولا. كانـت كل حركـة يقـوم بهـا وهـو يسـتعد للذهـاب، كل شريطـة يعقدهـا تذكّـره بأنهـا لـن تصعـد إلى المسرح وأنـه يتجمّـل من أجـل أخريـات. «هكـذا هـي الحيـاة، قـال جـان لنفسـه: نبكـي طـوال النهـار والليـل ثـم نذهـب إلى المسرح». صـادف هنـاك كـورنيّ وكينو، ابتسـم، قبّـل الأيـادي، اشـتمّ أجسـاداً جديـدة، عطـوراً جديـدة. لا بل وجـد الجـرأة كي يمتـدح موليير. كانت كل هذه المنافسـة تُلهيـه وتُريحه. لـو كان فقـط هـو مركز الحدث، هـو المحتفى به لـكان هناك مـن يُضمّد جروحـه. قـال لـه نيكـولا: إن الأمـر منـوط بك فقـط. لذلـك في اليوم التـالي، راح يبحـث عـن قصّـة رومانية، أرجـأ مشروعه عـن الهجر، بدأ في تحـدٍ بتسـديد ضربة مزدوجـة: الترويح عن نفسـه، وهـزم كورنيّ على أرضـه. لكنـه أعـدّ بما عثـر عليـه مزيجـاً مُكثّفـاً مـن القسـوة والعذاب،

ابتكر عشاقاً يحبّون حدّ البكاء المنسكب غزيراً من مآقيهم. أضاف إلى جنون الحب متعة التحقير. كان ما يزال دون شك مُحتاجاً إلى أن يسند عذابه إلى جدار من الغضب والعتاب، مُحتاجاً إلى أن يراها كما كانت، خائنة، كاذبة، كي يمحق الشوق. ألف مرة شعر بالرغبة في قتلها. هو الابن البارّ للوادي الصغير، المولع بالإغريقية واللاتينية، الذي كان يركع على الأرض ليراقب بواكير الحياة، بدا له كل شيء محقّاً لتحدّي سلطة معلّميه وتسليم أمره إلى العناية الإلهية في معظم الوقت، كان بوسعه أن يخنق هذه المرأة المتقلبة التي لم تبادله كل ما يُغذّي حبهما. «داخل كل رجل هناك وحش»، كان جان يردّد بينه وبين نفسه في كل مرة يستلقي على ظهره. ليس الإيمان هو الذي علّمه ذلك دون أدنى شك بل المسرح، التعرجات الطويلة التي كان يخطّها حول شخصياته، انقلابهم الفجائي، مَكرهم، جنوحهم. القصص الخيالية ليست غواية إذ إننا مصوغون من لغة وفعل ونحتاج إلى الاثنين، وهذا لا يمكن أن يُعجب بور رويال. وإلّا لماذا ألّف البشر القصص منذ البدء؟ هدّأت هذه الفكرة باله وأعطته مبرراً لما يفعله أقلّه مثل مفعول الصلاة.

أنهى مسرحيته في نهاية الخريف مُتلهّفاً كي تُمثّل وتغسل ما بقي فيه من كآبة في بحار المجد. على الرغم من الوسائط ومساعي المقربين منه، لم يحصل هذه المرّة على الإذن كي تُمثّل أمام البلاط. إضافة إلى أنه في يوم عرضها الأول، سرق منه الأضواء تنفيذ حكم إعدام في المدينة. استشاط جان غضباً. كان يصيح هنا وهناك: «ليعطِني أحدكم أقلّه اسمه»، ولكن لم يتمكّن أحد من أن يعطيه اسمه. في كواليس المسرح، بينما كان الممثلون يروحون ويجيئون، كان جان ينظر إليهم بإشفاق وهو موقن أن لا موهبته ولا جهودهم

يمكن أن تجاري أبداً هذا العمل البدائي الذي يجري على مسافة قصيرة: إعدام إنسان في البرد.

من الفصل الأول اهتاج الحضور مثل بحر صاخب تضيع فيه الخطب بكاملها، يُغرقها في ضوضائه بحيث بدت المسرحية وكأنها تمثيلية إيمائية فيها الكثير من المغالاة. ومن فوق الحشد في مقصورة خالية، كان خيال العجوز وحده يراقب من هناك، ينظّم التصفيق، الصفير. جاء كورنيّ ليرى عن كثب كيف تُهاجم روما التي يحتكرها. لم يكن جان ينظر إلى أحد غيره، عبوسه، فمه الذي يلتوي، حاجبيه، الإشارات التي كان يرسلها إلى الفتيان في الصالة كي يضحكوا ضحكاً خافتاً.

منذ اليوم التالي انهالت عليه اللائمات، شهّروا بمفارقته التاريخية، بسذاجة بريتانيكوس الذي لا يمتلك أي صفة من صفات البطل المجيد، عدا عن فقر الحدث مرة أخرى. جان المجروح أرغى وأزبد أمام نيكولا، أشهر حججه، دافع عن نيرون أكثر مما دافع عن بريتانيكوس. ماذا يريدون في النهاية؟ أن يضع رجالاً سكارى على خشبة المسرح؟ أن يجعلهم يصيحون، يقتتلون؟ ما يريده هو أن يصنع مسرحيات مبنية على أحداث بسيطة، دون مفاجآت مسرحية ولا مكر، يريد أن يُبرز هذه البرودة التي تعبر الروح وتوصلها إلى القتل. مسرحيات مأسوية عن لا شيء تقريباً، تُسمع فيها كل خطبة وكأنها الوحيدة، الأخيرة، وأن يكون المرء في مسرحه مثلما يكون في قدّاس أو أمام محكوم بالإعدام، عارياً تحت السماء.

تهاوى جان على أحد الكراسي. كان مُتعباً من كل هذه الأشباح التي تحيط به، مُعلّموه وخالته من جهة، وعشيقته الخائنة والميتة، وأيضاً في كل مكان ومنذ بداياته، كورنيّ هنا، كورنيّ هناك، قبلة

الأنظار المتنقلة، الرجل البدين الذي كان ينتقل من مسرحية إلى أخرى في مبارزة لا تنتهي وتمنع عنه نيل شرف أعظم شاعر في البلاد.

- ولكن هدّئ من روعك، قال له نيكولا، يُقال أيضاً: إن الملك، منذ مسرحيتك بريتانيكوس، قرر ألّا يرقص بعدها في حفلات البلاط.

- لماذا؟

- لا أعرف عن ذلك شيئاً. يتذرّعون بنوبات صداع، لكنني أسمعه يقول لك: أنا ملك وقور ومحارب مثل أولئك الذين ترسمهم؟ كيف بوسعي أن أرقص بعد ذلك؟ زال التغضّن عن جبين جان، ارتخى فكّه المشدود وابتسم.

في الليلة التالية حلم بهامون في الحديقة. كانت كرات شجر الشمشاد إلى جانب الوجه الرمادي النحيل تلمع مثل زهور بريّة. تبادلا النظرات مثل كائنين غريبين لا تجرؤ ذاكرتهما الملحدة على إيقاظ الذكرى الأليفة. ولكن لا أحد كان يزدري الآخر بنظراته. عندما استيقظ جان، لم يكن شديد الاضطراب. راجع الجرائد، دفاتر حساباته، عرف أن معاشه قد ازداد ومُلكه أيضاً، فرح لأن دور إرميون أخذته ممثلة شابة مشهورة جداً.

٢٠

ما إن أُسدل الستار حتى طلب من نيكولا أن يعود إلى المنزل من دونه.

هو يعرف الآن الأوهام التي تنام تحت اسم الحب، لكنه يعرف أيضاً الأحاسيس الرائعة التي تنقلها هذه الأوهام، وأي مظهر تتخذه الحياة في رياح الربيع هذه. كان جان مثل أبطاله مفطوراً على الأزمات، على الحمّى، على التوقيت الدقيق. لم يعد يعرف كيف يعيش الفترات الزمنية الطويلة، تلك الفواصل الزمنية التي لا تحتمل البطء بسبب الحب والمجد، كان يراها كأنها أوقات ميّتة، لكن الأوقات الميّتة غير موجودة، يقول لنفسه، الزمن يسري، يُعيد التشكيل، يحوّل كل شيء: «أحببت امرأة وماتت، سوف أحب امرأة أخرى هنا أمامي وسوف تعيش. انسلّ الزمن إلى داخل روحي دون أن ألحظ ذلك مثل دم عديم اللون ويعيد الحياة». لكن هذا الزمن الذي يمكن أن ينسلّ ليحل محل أي مسعى للإرادة البشرية كان يكدّره. في مسرحيته هذه كان هناك البشر وأهواءهم، وعلى الهامش الزمن الطويل يتلوّى كأفعى، طرف ثالث راسخ ومخلّص. الأربع والعشرون ساعة للمسرحية لحسن الحظ أنقذت كل الغثاثة لدى شخصياته. تقدّم نحو الممثّلة، شقّ طريقه في حشد المعجبين، صرّح لها بأنها مثّلت دور إرميون كما صاغه تماماً.

كانت ماري يافعة، نضرة، بصوتها الذهبي والخشونة الخفيضة التي بالكاد تُسمع، كانت نعمة لم يتوقعها لقصائده. بفضلها بدأ يسمع على نحو أفضل كل تغيير في نبرة الأصوات، في حدّتها، بدأ يجمع من الشارع والملهى مادة جديدة، كل نغمات النفس البشرية، لكي تكرّرها بدورها. سواء من أجل مسرحياته القديمة أو تلك التي بدأها توّاً، كان يفرض إلقاءً مختلفاً يحاذي الأحاسيس مثلما تحاذي أبياته أحياناً النثر. دون تفخيم.

- لاحظت جيداً كيف يمكن للبساطة أن تتحوّل إلى السوقية، شرح نيكولا. مع التفخيم أقلّه تبعد عنك التهديد.
- أريد شيئاً بين الاثنين، نغمة أكثر كتماناً.
- هل تعتقد حقاً أنها موجودة في مسارحنا؟
- عندما أكتبها أسمعها، وهذا هو الدليل على أنها موجودة.

كانت ماري تفهم أسرع من الآخرين. كلّما نظم شعراً، كان يعرض عليها خطبه الطويلة. منذ أن بدأ يعاشر الممثلين، لم يسبق له أن شاهد شيئاً كهذا. كانت تنجح في التشديد على كل مقطع لفظي، حتى سلسلة أحرف العلّة التي يصعب جداً لفظها، *ingrate à vos bontés* (ناكرة الجميل) كانت تقولها أحياناً متّصلة *Ingratavobonté*، مثل شتيمة، لعنة، وتارة أخرى متقطّعة تماماً، مُفصّلة النغمات، كأنها تتباعد فيما بينها بسبب رياح المأساة. كانت ماري سعيدة لأن جان يخالف هكذا القاعدة التي كانت تمنعهم من فعل ذلك. لكن جان لم يكن يقاوم ذاك النفس الذي يتوقف، هذا الانقطاع الذي يُفسد السلاسة النغمية. هذا ما كان يعشقه في اللغة الفرنسية ولا تملكه اللغات الأخرى، هذا السرير من أحرف العلّة العميقة التي يكشف عنها التقاء صوتين متحرّكين في كلمة

واحـدة في أبياته مثلما يكشـف الصيف قـاع الأنهار. كـما أن ماري كانت أفضـل مـن دوبـارك، فهـي تدفـع أبـواب عـالم آخـر، يمـشي فيـه المـرء داخـل أحلامـه ويتحـدّث تحـت تأثـير التنويـم المغناطيسي. كان يتسـلّى أحيانـاً بـأن يقـول لهـا: إنهـا دون البحـر الإسـكندراني. كان يحـب هـذا النـوع مـن البرود الـذي يجتاحهـا ويجعلها تدخـل في بحـر جليدي دون أن تهتـزّ. كان يـدرك وهـو ينظـر إليهـا أنـه إذا كان ينظـم أبيـات الشـعر فذلـك بالتأكيـد ليكـون أعظـم شـاعر في فرنسـا، ولكـي يكشـف أيضاً صـوت ضمـير يُعـبّر عـن نفسـه بصـوت عـالٍ، مـلآن، حـرّ، وجليديّ أحيانـاً. اختـبر جـان أسـلوباً جديـداً في العمـل: لم يكـن يجعلهـا تُعيـد فقـط عـشر مـرّات متتاليـة مـا تجـده صعبـاً، بـل كان يُرغمها أيضـاً على تكـرار مـا كانت تؤدّيـه بسـهولة. ويطرأ حينئـذ شيء جديـد، مثل كائن مسيّر في داخـل جسـم مـاري. ويقول لـه حدسـه إن هـذا الكائن الآلي الـذي يـردّد الجمل سـوف يصـل بـه إلى العفويـة الأكثر طلاقـة، الأكثر إدهاشـاً، الأكثر حقيقية.

- هل شعرتِ بآلة تتحرّك في داخلك؟

- نعم.

- في هذه الحالة، هذا عظيم، لننتقل إلى التالي.

أحيانـاً تكـون مـاري مؤثّرة جـداً بحيـث كان جان يترنّـح، يجلس، لا يعـود يعـرف أيـن هـو ولـو أنها كانـت تقـول أبياتـه. كان ينظـر إليها مذهـولاً، يصفّـق لهـا، وهـو يركّـز على حركـة راحتـي يديهـا، إذ لم تكن تتوقّـف الواحـدة عـن ضـمّ الأخـرى، حركـة تخفّـف مـن حضورهـا، تُبعـد جسـدها، ولا تعـود تظهـره لـه إلا مُجزأً شرائـح، كانـت تتعجّب وتقول مندهشـة:

- أليس هذا ما كنت تريده؟

- بلى، بلى، وأكثر أيضاً.

كانت تبتسم وهي مرتاحة. في الواقع كان جان يعتقد أنها ما تزال تمثّل لأنها تعرف تأثيرها جيداً. حينذاك كان جان المنزعج من كثرة الدلال، يغتاظ ويضاعف سلطته مطلقاً صوتاً راعداً: «لنكمل». كان يسرّ لنيكولا أحياناً أنه ضاق ذرعاً من كل تلك الممثلات اللواتي يراوغنه تحت حجّة أنهن يلقين أبياته بشكل جيد، ولأن عيونهن جميلة.

- في هذه الحالة كفّ عن الخلط بين العمل والحب. جد لنفسك زوجة صغيرة طيبة لا تفقه شيئاً في الشعر.

نظر إليه جان مشدوهاً. ما الذي يمكن أن يفعله مع امرأة كهذه عندما يكون بوسعه أن يأخذ بين ذراعيه آلات موسيقية بضّة وتؤدي أداء رائعاً؟ كيف له أن يقاوم متعة أن يشهد ولادة كائن لا يكون لديه فجأة سوى كلماته كي يتكلّم؟ كيف يقاوم هذه الغبطة التي تصعد في داخله عندما يسمع أبياته ترفرف مثل أشرعة جديدة؟ الزوجة الصغيرة الطيبة يمكن أن تنتظر.

أخبرته ماري أن كورنيّ يكتب في الوقت الحالي قصة تيطس وبيرينيس. لم يتردّد جان لحظة واحدة. ترك ما كان قد باشر به وانكبّ على قراءة سويتون[1]. سوف يعطي نسخته عن القصة للمقارنة المباشرة وينتهي منها. تيطس الذي كان يعشق بيرينيس بولَه و حسب ما يُعتقد، وعدها بالزواج أيضاً، طردها من روما، رغماً عنه ورغماً عنها منذ الأيام الأولى لولايته. لم يقل سويتون هذا بالضبط. جان بسّط، شطب فقرة طويلة كاملة من خطاب الفتى

---

(١) غايوس سويتون: (٧٠م-١٢٢م) كاتب روماني وخطيب، كتاباته مصدر معلومات ثمين عن حياة البلاط في أول إمبراطورية.

الصاحب الذي اعتبر الانفصال عن بيرينيس إصلاحاً لذاته المذنبة. لم يكن جان يريد أي شيء من كل هذا الخليط، من كل ذلك الغطاء الأخلاقي. يريد انفصالاً صرفاً وقاسياً يقطع في جسد الحب الحيّ. بعد أسابيع قليلة، حافظ على حركة مجملة، بطيئة ودائرية. كل شيء يوصل إلى إعلان قرار تيطس، سوف يكون الحدث المُعلن والمؤجّل، قبل ذلك سيكون هناك الانتظار الشاكي، تليه لحظة السعادة الكاملة الخاطفة المتألقة. سراب برّاق في الليل المظلم، «**من تلك الليلة يا فينيس، هل رأيت الروعة**»، صوت بيرينيس الرقيق السعيد الراضي، لحظة طافحة حدّ الكمال إلى درجة أنها سوف تخلط ما بين السعادة والسذاجة، الرِضى والدوار. سيكون في صوتها حلاوة خيط رفيع من العسل، عابر وهشّ، ومن حوله أراضي الهجران الفسيحة والمُقفرة، إلى حد يمكن أن يستنتج من مسرحيته أن الحب لا يمنح أبداً سوى لحظة قصيرة من السعادة، لحظة وامضة وخادعة.

كان يسمع منذ الآن المعجزة التي ستخلقها ماري، هذا الإذعان الذي سيأتي كل شيء ليستثيره ويستفزّه كي تستسلم وتصدّق حب تيطس. ستكون هذه أول ضربة: السعادة المطلقة، يليها على الفور الضربة الثانية: السقوط اللولبي، ذلك لأن العقل البشري لا يتقبّل السوء إلا مواربة، عليه أن يعتاد، أن يصبّ مصيبته في تعرّجات نهر خادع. سوف أروي كل مصاعب الهجران، قال جان لنفسه، الهجران الذي لا يُحتمل والذي يتخيّل، يتوسّل، ثم يقبل ويزأر، قبل أن تغرق الروح في الموت، وقبل أن تقطع كل الخيوط التي ما تزال تربطها، كي تضعها في جمود تام دون أفق، دون تمييز بين الليل والنهار، أو بين الأمس والغد.» **ليبدأ النهار وينتهِ النهار، دون أن يتمكن تيطس من رؤية بيرينيس أبداً**». كتب ملاحظة: لا مع إرميون ولا مع

جوني[1]، لم يذهب إلى هذا الحد، ولكن هذه المرّة كان يريد أن يجرح الكائن في أكثر الأماكن رقة من جسده، هناك حيث يحب ويظن بأنه محبوب ثم يُهجر. يريد أن يُسمع صدى هذا السقوط الذي لا نهاية له، صوت الخلاء الأجشّ يعانقه صوت النداء. سوف تعرف ماري كيف تُصدره.

- أنا متردّد في جعلها تموت، أسرّ إلى نيكولا.
- سيكون ذلك مُحرّكاً للعواطف أكثر، ووقعه أقوى.
- وأقل صدقاً.
- ماذا تقصد؟
- لا يموت المرء من الحب. ما يحدث في أغلب الأوقات هو هذه الصحراء التي ندخل إليها برهة، إنه خبل الهجران. ألن تكون بيرينيس أكثر بطولة إذا انسحبت إلى أراضيها حيث السكون؟ أريد أن يمشي عشّاقي على حافة نهر الانتحار دون أن يرتموا فيه.

فكّر نيكولا مليّاً، لكنه لم يكن يتابع كل الخطوط التي يرسمها جان. كانت تطرأ دائماً لحظة يتعثّر فيها وفاقهما حين لا يتعلّق الأمر بكلام الصحف أو بالملك أو بعلم النحو.

- الرغبة التي لدينا تجاه شخص شيء عنيف، قال جان. ينبت لك مخالب في أطراف أصابعك.
- ليكُنْ أبطالك نسوراً، ولكن بطلاتك...
- لماذا أعفيهن من ذلك؟
- لأنهن نساء.

---

(١) إرميون وجوني: بطلتان في مسرحيات لراسين.

- وأنا أعتقد العكس تماماً.

ابتدأ جان يصوغ الشعر لبطلته بيرينيس وهو في حالة من التصميم لم يعرفها من قبل. كان ينظر إلى فصول مسرحيته كأنها حواشي ثوب عليه أن يخيطها بخيوط ثخينة ومزيّنة وشديدة البساطة تارة وسوقية تارة أخرى، أبيات شعر مسرحية برجوازية. بدأ بالفصل الرابع، فصل الكشف النهائي. ثم تابع بفتور، رجوعاً إلى الوراء حتى بداية المسرحية.

- أنت إمبراطور يا مولاي وتبكي... بدأت ماري، قبل أن تصيح: لا، لا! سوف ينفجر المشاهدون بالضحك.

أقنعها بالعكس، ذكّرها بأوريبيد[1]، شرح لها كيف تسمح التفعيلة اليونانية بالانتقال من النثر إلى الشعر دون انقطاع، دون أن يظهر ذلك بفعل وزن الحركة وحده. إن هذا بالضبط ما يبحث عنه، ما يأتمنها عليه ويضعه بين شفتيها لأنها أعظم ممثلة في فرنسا.

- كما تجدر بالجمهور أن يعرف ذلك، يعرف تفعيلتك اليونانية! لا، لا، هذا ليس له أية أهمية، ما أريده هو أن تنبض في لغتي الفرنسية كل اللغات السابقة، كل أنواع الموسيقا، أن تكون توليفة متكاملة، لغة ممتلئة وفريدة. إذا كنت أسمعها أنا فهذا يعني أن كل هذا موجود فيها. وسوف يسمعها الجمهور. بفضلك، أضاف مُتملّقاً.

- بما أنك تريد لغة لا عيب فيها، أعفِني من الغرائب! بعد شهر، بعد سنة، كيف يتعذّب كلانا يا مولاي، وهناك بحار كثيرة تفصلني عنك؟ أتلعثم في كل مرّة، لا يصلح الأمر هكذا...

---

(١) أوريبيد: (٤٨٠ق.م-٤٠٦ ق.م) أحد أعظم الكتاب المسرحيين الإغريق الثلاثة مع آخيل وسوفوكليس. تنسب إليه ٩٥ مسرحية.

هذا الصباح فهمت أخيراً لماذا، هذا بسبب كلمة وما يلحقها في البيت الثاني حين نتوقّع: **لأن بحاراً كثيرة تفصل بيننا.**

أغرق جان في الضحك.

- كأنه يروقك إدخال الغرائب. ما هذه الـ «كلانا» التي تنظر إلى الاثنين ككائنين غريبين عنها؟

- إنها تتحدّث مثل ملكة وتقول نحن، ثم مثل امرأة عادية وتقول أنا. هي شخصية مزدوجة...

فكّرت ماري، أعادت البيتين وحدها.

- أقول لكَ: هذا لن يُجدي، هذا ليس منطقياً.

- ثقي بوزن أبياتي.

- لا... أريد أن أفهم ما أقول، أعد كتابتها من فضلك... قليلاً فقط.

- بالطبع لا، قال جان بحزم، ولكن سوف أساعدك على إلقائها.

من كثرة التمرينات انتهى المطاف بماري ووجدت بعض السلاسة، ولكن في كل مرّة كان هناك حصى يبطئ خطاها. لم يكن جان يشعر بتلك النفحة المكدّرة لديها فقط، بل كان مسروراً بها، لأنها كانت تستقي من عذاب ملكته، وكان يحب تلك التدرّجات التي تؤخّر الفهم كي تتحرّر الموسيقا. لو كان بوسعه لما كتب إلاّ هكذا... بعكس التيار.

في الفصل الخامس، كان مستعداً ليغفر لها التأخير الذي كانت تسببه أسئلتها المستمرة، فهي ممثّلة بارعة. نجحت في إظهار عزلة بيرينيس داخل العفوية والوقار اللذين وضعها فيهما. كانت الأبيات التي تُلقيها تهتزّ مثل تلك التي تحبسها وكأنها دموع. **أحبّه، أهرب منه، تيطس يحبّني، ويهجرني.** شعر جان أن وراء هذه الكلمات تتزاحم

كلمات أخرى غير قادرة على أقل حركة، كلمات لا تستقرّ على حال، تأتي لتضرب شطور أبياته التي تردّ الضربات بدورها. كانت ماري تجيد لفظ الإضمار والفروق الصامتة، تُظهر كتل الحجارة التي انفطر عليها قلبها.



٢١

تيطس مُشرف على الموت، لن يصمد وقتاً طويلاً، بالكاد بضعة أيام، يهمس اسمك، هل بوسعك أن تكوني بقربه مرة أخيرة...؟

لم تقرأ الرسالة حتى النهاية، محتها على الفور.

- ليمُت.

رمت هاتفها على الأرض، استندت إلى الجدار، أغمضت عينيها، تحت أجفانها المشدودة، كان الوميض مستمراً. هل لمحت عبارة مفخّمة في آخر الرسالة؟ **تعالي قبل أن يموت**. لم تلحظ منها سوى الخطأ اللغوي، تخيّلتهم جميعاً محاطين باليد البارعة التي كتبت الرسالة، جميعهم جهلة على السواء، عالقون بدبق السخافة. أو يا ترى، هل تراءى لها ذلك كي تزدريهم مرة أخرى؟

- ليمُت.

في اليوم الذي هجرها تمنّت طوال الليل أن تلمح في رسالته وميضاً تقرأ فيه: «**هذا مستحيل، أنا عائد إليك، عودي**»، لكن الليل بقي مُظلماً، تحيط به كُتل هواء كثيف تقاوم انبلاج أضواء الفجر. ماذا يتوقّعون بطلبهم حضورها؟ أن تمنعه من أن يموت؟ أن يحمل معه إلى موته ذكرى طيبة؟ أن تشاركهم في الدموع والنحيب؟ بعد أن ضاقت ذرعاً بالتفكير، قالت: ليمُت. قيل لها: عليكِ أن تتطلّعي إلى اليوم الذي لن تحقدي عليه بعدها. أكاد أصل إليه: كيف بوسع المرء أن يحقد على ميّت؟

ليمُت.

بعـد أيام انطلقـت إلى بور رويـال تاركـة هاتفها في البيـت: لا تريد أن يغويهـا الـرد، تجول في الـوادي الصغير، ولا تنقطع سلسـلة أفكارها. كان قـد عاودهـا الألم الذي يكوي القلب، بسـببهم من دون شـك. أثناء سـيرها، كانـت تدوس ذكـرى الرسـالة، تُسـارع الخطى كأنهـا معصوبة العينـين. مـاذا كانـت لتفعل بيرينيـس الأخرى مكانهـا؟ لا شيء، لم تكن لتذهـب إليـه قط. كيـف لي أن أعـرف، لا أحـد يمكنه أن يعـرف إلى أن همـس لهـا أحدهـم: إذا كانـت بيرينيـس قـد نجحـت في أن تطـرح على نفسـها أسئلة كهـذه... حتـى وإن ألّـف راسـين مسرحيـة تافهـة كان بوسـعه أن يصـل إلى هـذا الحـد، أليـس كذلـك؟ تيطـس وهـو يحتـضر يطلـب مـن بيرينيس المجـيء لتكـون إلى جانبـه: هل سـتذهب؟ أو لا؟ قـد تكـون أقلّـه هـذه مسـاعدة معنويـة، لأنهـا منـذ أن هجرهـا تيطـس منـذ مـدة عـام، لم يكـن بوسـعها أن تقـول إذا كان راسـين قد سـاعدها أكثـر من شـغل صوف نمنحـه أيامنا وحزننـا، وحين كانوا يسـألونها إذا كانـت قـد أصبحت مختصـة متعمّقة بالقرن السـابع عشر، كانت تبتسـم وتقـول: لا، وتـشرح إنهـا تمضغ وتمضغ أبيات راسـين كـما تُمضغ أوراق نبـات القـات المُهدئـة، مستسـلمة تسيّرها الأحـداث والتاريـخ الكبير والصغـير. كانـوا يقولـون لهـا: حسـناً تفعلـين، إذا كنت قـد عثرت على وسـيلة دفاعك.

- نوعاً ما، نعم، حتى تلك الليلة.

ازدادت الرسـائل مرسـلة مـن أرقـام عديـدة، كانـت تقـرأ تـارة: **تعـالي قبـل أن يموت**، وتـارة: **تعالي قبـل أن يتوفّ**، اسـتنتجت في النهاية أن هـذا ليـس خطـأ في الكتابـة إنـما كانـت هـذه هـي الطريقـة الوحيدة التـي لديهـم كـي يغيّروا أسـلوب ندائهـم. في كل مـرّة، كانـت تجـد في

أصابعها القوّة نفسها كي تمحوها في الحال خوفاً من أن تضعف في يوم من الأيام. تساءلت إذا كانت روما هي نفسها التي كتبت إحدى هذه الرسائل أو أنها توسّلت إلى أحدهم كي يقوم بذلك عنها. ابتهجت من ذاك الألم الذي يمكن أن يكون قد عصر قلبها. ولكن لا يكفي محو الرسائل كي تنسى إذ إن الوقائع حاضرة. سوف يموت تيطس، تيطس يناديها، تيطس ينتظرها. «لا تعودي إليه»، أمروها، «سوف تغرقين ثانية». راجت حجّة جديدة: «كل الجهود التي بذلتها خلال عام سوف تضيع، سيكون لزاماً عليك أن تبدئي من جديد». صارت تسأل نفسها عن الجهود وعن البدء من جديد، وإذا كان للحزن مكاسب أو إذا كان الأمر يشبه لعبة الذباب، ما إن نفتح قبضتنا، ينتهِ الأمر ويطر كل شيء، لم تعد تعرف ما العمل، تصغي إلى صوت الآخرين. سوف يموت، إنه يناديها، ينتظرها. وبيرينيس التي ما تزال تتحرّق شوقاً إلى تيطس، تستسلم لفكرة أنه لا يجوز إخماد هذه النار. ليمُت إذاً. لذلك، ودون أن تقول شيئاً لأحد، تخيّلت المشهد مستبقة كل حركة، تستعدّ للتنقلات واحدة واحدة. لن تبكي، سوف تظلّ منتصبة تنظر إليهم وهم يفقدونه، تستغلّ تقدّمها عليهم وتزدري ألمهم. لا يعرفون بعد ما معنى أن يفقدوه، أما هي فقد عرفت ذلك منذ زمن طويل، المرّة الثانية لا أهمية لها إلى جانب الأولى. سوف تجلس عند رأسه وتكتشف أن جسده الضخم قد تضاءل، ذاب. لا، ما كانت بيرينيس لتحاول أبداً أن تنتقم بهذا الشكل. أنا لست بيرينيس.

قرعت الجرس. فتحوا لها الباب. إنها هي روما. في النور المنعكس، أعادت تشكيل ملامحها حسب الصور التي شاهدتها لها

في الماضي. امتدّت يداهما بشكل آلي الواحدة نحو الأخرى، ولكن في آخر لحظة، ارتدّت يد روما وعادت لتضعها على وركها. لن تلمس ما لمسه. بيرينيس وروما واقفتان، الواحدة إزاء الأخرى، صامتتان، وجسد تيطس الضخم ممدّد في الطابق العلوي، هل كان حاميهما أو بلواهما؟ ها هو الآن مثل سماء تمتدّ فوق مبارزتهما الساكنة. هل يمكن استمرار الكراهية ودوام العقاب؟

وصل أولاد تيطس الواحد تلو الآخر، وقفوا حول أمهم ليشكّلوا نصف دائرة، عائلة كبيرة، لا تزن شيئاً أمامها. بعد كل تلك السنوات وكل هذه المآسي كان يحدوهم الفضول إلى معرفة ماذا تشبه وزن الريشة هذه. نظروا، قارنوا، لكن كان يصعب معرفة مَن منهما المهيمنة ومَن الخائفة. كانت أسئلتهم الخرساء تبرز وتجلد الهواء مثل سياط تتشابك وتقيّد الواحدة بالأخرى: بيرينيس وروما. أي واحدة منهما يجب على تيطس أن يختار إذاً؟ حتى ابنته الوحيدة لم تعد تعرف، هي التي تصوّرت نفسها ولا شك ألف مرّة مكان الأولى وألف مرة مكان الثانية وحزنت إذ تتوزّع النساء حول الرجال هكذا - مادة خليطة، مرّة زوجة ومرّة عشيقة، أمّ أو ابنة، شقراء أو سمراء، بيرينيس أو روما - ولعنت والدها مراراً. خفضوا أبصارهم. كانوا يتوقّعون أن يشعروا حيالها بحقد خالص لا لبس فيه، لكنهم لم يفعلوا وحقدوا على أنفسهم، لأن روما أمهم وهم يتذكّرون لياليها الباكية وصباحاتها المليئة بالدموع. ضمن هذا الحد، لم يسؤهم أن تجلس الاثنتان قربه، أن يحصل على الاثنتين في ساعة الموت. لا لن يكون الأمر بهذا السوء على كل حال. من بين أجفانه الثقيلة قد يتمكّن تيطس من تمييز قوام بيرينيس الرهيف من قوام روما الأكثر امتلاءً. أو قد يخلط بينهما حينئذ، لكن ذلك لا أهمية له البتة. قد

يتلفّظ باسميهما بصوت مكتوم وخفيض: آه روما، ثم في زفرة أكثر جموحاً: آه بيرينيس. سوف تدنوان من سرير تيطس الكبير، تنظران إليه ثم تنظران الواحدة إلى الأخرى غير مُصدّقتين، ثم تنسلّان إلى داخل سرير تيطس الكبير، مُجبرتين على مراعاة السرعة نفسها كي لا تقعا في العجلة وخسّة هذه التمثيلية الساخرة، كل واحدة من جهة. بيرينيس عن اليمين وروما عن اليسار، تيطس أخيراً مُحاطاً بامرأتيه، محمولاً إلى الموت على محفة حبهما المزدوجة. سوف يأتي أحد الأبناء ويمسك بأيديهما ويجمعهما، مشيراً بهذا إلى نهاية المعركة، «V» إشارة النصر دون منتصرين. ولكن فجأة تحرّكت شفاه روما، قالت شيئاً. لا بيرينيس ولا أحد منهم فهم ما الذي كان يعتلج في هذه الزفرة الحائرة، لكن ذلك لم يشكّل أي فرق. استدارت روما على عقبيها وغادرت مدخل البيت.

دعا صوت بعيد بيرينيس إلى الدخول وشكرها على مجيئها. ابتعد الأولاد، فسحوا لها الطريق كي تمرّ، شمّت عند عبورها روائح شعر وملابس وأنفاساً مُختلطة، أكتاف تتزاحم وراءها كي لا تلامس كتفيها. كتلة من الأجساد تجري فيها الدماء نفسها، الحركات نفسها، الأصوات نفسها. سرب من آكلات اللحم، العائلة مُتّحدة ومستعدّة لالتهام الغريبة. قيل لها إن شخصاً سوف يأخذها بعد قليل إلى غرفته. أومأت برأسها ثم تساءلت عمّن يمكن أن يكون مُكرّساً لإنجاز هذه المهمة. دنت امرأة غريبة واقترحت عليها أن تتبعها، همست لها: كثيراً ما سمعتهم يتحدّثون عنك. مشتا في ممر طويل في نهايته درج. صدرت من تحت قدمها في أول الدرجات طقطقة وراود بيرينيس شعور أنها تدوس عظامها. تعلّقت بالدرابزين، أخذت نفساً عميقاً. استدارت المرأة الأخرى وسألتها فيما إذا كان كل شيء على

ما يرام. «نعم، نعم، أجابت. وروما، أين روما؟» سألت. «ذهبت لشراء المؤن»، أجابت المرأة. بينما كانت روما تشتري الخبز أو الدواء، جاءت بيرينيس لرؤية تيطس لآخر مرّة.

بدا السلّم لا نهاية له، وكي لا ترتقيه دفعة واحدة، فقد لا تحتمل هذا الانحناء الصاعد حتى القمّة، ألقت ذاكرة بيرينيس تحت خطواتها رؤى متبدّلة، متعاقبة. درجة بعد أخرى، كانت قدمها تذكّر بمعجزة الحب، وانكساره، معجزة تارة سوداء وتارة بيضاء. تخيّلت نفسها تترنّح مشدوهة أمام تيطس، ابتسامته العريضة المغتبطة تشدّ جلد وجهه، هذا ليس جسدي الذي يبتسم إنما روحي التي تنفتح، وتصبح أقوى بفعل هذه الابتسامة شبه الصوفية. معجزة الحب هذه كانت دفقة من نور داخل الليل الذي حلّ في المكان نفسه الذي التقى فيه ثغراهما للمرة الأولى. ذراعا تيطس المتحجرتان، ذراعا التمثال الذي تدبّ فيه الحياة، تلينان كي ينهض إليها، يلمسها، يضمّها إليه... ولكن عند الدرجة الثانية، رأت وجهيهما ينكمشان، يتباعدان، يصرخان، يشهران حججهما، يحاول كل منهما أن يدحض حجج الآخر. هناك تيطس وأمامه بيرينيس على حافتين متقابلتين. لا يستطيع تيطس أن يترك روما. لكن بيرينيس كانت مُجبرة على الدفاع عن حبّها، قضية حياتها. في خزعبلاتها التافهة، كانت تخلط الحابل بالنابل وتدافع عن أولوية الرغبة، عن مقدرة الأولاد على الغفران، عن تفاهة التقاليد. تقول لتيطس: لن تحمل زوجتك العجوز معك إلى القبر. ها قد وصلنا، قالت المرأة في أعلى السلّم. كانت بيرينيس تلهث. أمام عينيها على الجدار كانت هناك صورة كبيرة لتيطس وروما والأولاد. تجمّدت في أرضها. ليأخذ الشيطان العائلات وصورها المتفاخرة،

ليأخذ هذه الشمس، هذه الابتسامات، هذا المرح الظافر. أكثر من أي شيء في العالم، تمنّت أن تساوي أكثر من عائلة تيطس، أكثر من ستة أشخاص معاً، أكثر من سنواتهم مجتمعة، أرادت أن تكون هذا الشعار الربّاني الذي يقوّض كل الآخرين في الحال، وباسم هذا الشعار يبيع رجل إمبراطوريته بأرخص الأثمان. «أنا من التقطت هذه الصورة»، قالت المرأة. كانت يدها قد صارت فوق مقبض الباب تشدّ عليه برفق. بينما كان الباب ينشقّ عن كتلة هواء تنهل منها أنفاس تيطس الأخيرة، أحسّت بيرينيس بصدرها قد يبس وانكمش، وقبل أن تختنق صاحت: لا، لا أستطيع، ونزلت السلّم مهرولة.

كانت أنظارها موجّهة إلى الممر المؤدّي إلى المخرج فقط، لكنها لمحت خيال روما التي كانت قد عادت من السوق مُرتاحة، ظافرة، ذلك لأن في حضنها، في حضنها وحدها فقط سوف يموت تيطس. قبل أن تجتاز عتبة الباب، سمعت بيرينيس وراءها هذا الصوت الذي لم تكن تعرفه.

- ولكن، سيدتي...

توقّفت فجأة دون أن تلتفت. تشنّجت أصابعها فوق مقبض الباب. فكّرت بأن حبها لتيطس هو بالتأكيد الذي يجعل أبواب قلبها تصفق بشدّة. «سيدتي»، قالت روما مجدداً. وتفادياً لأي انتظار، راحت عيناها تتوسّلان إليها وترجوانها أن تبقى. ابتسمت بيرينيس مرتبكة فأضافت روما: ابقَيْ. فهي لم تعد تحتمل مشاهدة هذا المكان الشاغر، هذا الكرسي الخالي إلى جانب تيطس. لو كان الأمر بيدها لأمسكت بجسد بيرينيس الهزيل ووضعته فيه قسراً، ولثبّتته هناك كي يملأ أخيراً الفراغ الآثم الذي دمّر زواجها. لكن بيرينيس كانت قد صفقت الباب.

كانت داخل سيارتها تبكي بصوت عالٍ على نحو بشع. يسيل فوق وجهها وشعرها خليط ساخن من دموع ومخاط، حتى تبلّلت أصابعها فوق المقود. بكت كما لم تبكِ منذ زمن طويل، لأن دموعها تجري الآن على طول الجدار الجليدي، كانت تقول أحياناً: «أنتم لا ترون، ولكن في داخلي، أنا أواصل البكاء طوال الوقت». لم يكن تيطس إلا على مسافة أمتار قليلة منها، وراء باب موارب، لكنها رفضت أن تدنو منه، أن تضع يدها عليه. ذلك لأنه، حتى في هذه الظروف التي تتجاوز الحد، الظروف غير المؤاتية، لو أنها وضعت يدها على يده، كانت تخشى أن يتحرّك في الحال جسد الحب الحيّ، أو بالعكس، أن تحسّ تحت يدها المتحجّرة بحبّه المتحجّر، لا شيء أكثر. كانت ترفض تصوّر هذا الاحتمال وقتاً طويلاً جداً.

من العبارات الصفيقة التي سمعتها في نقاهتها ألف مرّة بالتأكيد: لا يُنسى الحب إلا بحب آخر. وافقت، ابتسمت. حتى إنها حاولت في قمة غضبها وحزنها أن تواسي نفسها مع أنتيوخوس، رجل وسيم ومخلص، كانت تبكي على كتفه وهو يعانقها محاولاً أن يُزيل طيف تيطس الثخين الماثل بينهما، ولكن كلما كان يشتدّ العناق، يزداد ظهور جسد تيطس، ينتفخ، يقف بينهما. لأول وهلة، وجدت بيرينيس أنتيوخوس شهماً، ثم تذكّرت أن «أ» يحب «ب» التي تُحب «ج» وليس لـ«أ» أي فضل لأنه يحب «ب». تساءلت مراراً وهي بين ذراعيه، لماذا لا يصل وهم الحب إلى هنا مثل غمامة صغيرة قادرة على إضفاء السحر على أي علاقة. إذا كانت «ب» واهمة في «ج» فلماذا لا تفعل ذلك مع «أ»؟ هل عليها أن تدرك أخيراً أن هذا الوهم يخفي شيئاً صغيراً من الواقع لكنه شيء حاسم بحيث يجعل الإزاحة الكلية مستحيلة: «أ» لن يصبح «ج» أبداً. حينئذ توسلت

بيرينيس إلى أنتيوخوس ألا يتّصل بها بعد الآن وألا يحاول ملاحقتها. «أنتِ تعيدينني إلى صحرائي؟» اعترض بحزن. «نعم، لكل شخص صحراؤه»، أجابته.

تشبّثت بمقودها وهي على يقين أن جسد تيطس هو الجسد المثالي لوالدها ووالدتها مُجتمعين، كتلة من اللحم البدئي، كتلة عليها أن تولد وتموت فيها، وتبكي على الجهد الذي سوف تبذله كي تنفصل عنها. وعلى مرّ الليالي، بينما لا يزال خشب السلّم يطقطق تحت خطواتها، ينفتح الباب على مصراعيه، تدخل وتقترب.

- أتيتِ أخيراً إذاً... كنت أظن أنك سترفضين.
- رفضت.
- ولكنك هنا.
- لا، لست هنا.
- مع كل ما يعطونني من أدوية، ربما تكونين وهماً آخر.

تتحرّك يده فوق الغطاء. شكل الأصابع، استدارة الأظفار، عظم المعصم، كانت تعرفها كلها. تقرّب يدها، تمسك يد تيطس، تشدّ على أصابعه بين أصابعها. تستجيب أصابعه بالقوّة نفسها، لكنه منهك جداً كي يتكلّم. ثم يتلاشى الضغط وترتخي يد تيطس وتغدو بلا حراك. تنقبض يد بيرينيس لكنها لا تلقى استجابة. تنظر من حولها، تحاول أن تفهم، أن تعرف ماذا تفعل بهذه الجائزة الهائلة الحجم، بهذا الخنزير البرّي الميّت الساقط بالقرب منها. هل عليها أن تبكي؟ أن تهرب؟ أن تنادي روما؟ لا، لن تُنذر أحداً، سوف تبقى هنا، تلازم جسد حبيبها الميّت. سوف تُحدّثه وهي تهمس في وجهه همسات لن يسمعها بعد الآن، تروي له قصّتها كلّها وكأنه لا يعرفها، كما يُعاد اختلاق حكاية الصبي الصغير في الغابة للطفل

في كل مساء، وفيّة لطقسها المقدس والبسيط الذي لا يهمّ سواهما، طقس يجري في غرفة صغيرة، بين شخصين، بصوت خافت، آخر النهار وأول الليل. وفي النهاية، سوف تودعه سرّها عن كل تفاصيل الحزن الذي سبّبه لها، سرّاً لا يعترف به كائن حيّ لكائن حيّ آخر لأن عزّة نفسه تمنعه. سيدوم ذلك ساعة، ربما أكثر. سوف تخرج بيرينيس من الغرفة خدرة تماماً، شاحبة مثل شبح.

سوف ترمقها روما بنظرة ملؤها الاحتقار. لن تطردها على عجلة ولكن سوف تدفعها، ثم تركض إلى تيطس وتبكي عند رأسه لتعود وتهيج في البيت دون أن تراها. الأولاد أيضاً سوف يمرّون من أمامها دون أن يروها. سوف يعقب وداعهما الهادئ مطر من الإبر، صرخاتهم، تصادم حركاتهم. الكل سيكرهها لأن تيطس اختارها في ساعة موته. ربما صديقة العائلة وحدها قد توليها بعض احترام واهتمام. سترحل مذعورة وهي تداعب تجويف يدها طويلاً، مرّة جديدة عند يقظتها.

٢٢

عمـر الملـك الآن اثنـان وثلاثـون عامـاً. نجح في جعـل كل عرض مسرحـي شـعاعاً من الشـمس يجسّـده. في كل مـكان يذهب إليـه هناك ملهـاة، مسرحيـة غنائية. السـاعتان اللتـان فرضهما على المؤلفـين أحدثتا توقيتـاً جديـداً في حيـاة النـاس، الوقـت المخصّـص لمسرح الحيـاة. كان جـان يفكّـر أحياناً: سـوف تكون إعادة تشـكيل الزمـن توقيعه وعلامته الفارقـة التـي سـتحفظها الأجيـال القادمـة، مأثرتـه الكبرى أكثـر مما لو خاض الحـروب وتـرأس المجالس.

أوصـل الملـك رغبتـه في أن يواصـل جـان كتابـة التراجيديـا دون أن يؤكـدّوا لـه أن هـذا النـوع هـو المفضّـل لديـه. وعندمـا كانـا يلتقيان - أقـل فأقـل -، كان يلـوح لجـان أنـه كانـت تعـبر مـن بين الرسـميات نظـرة أخـرى آتيـة مـن بعيد، نظـرة لا علاقـة لها بالمناسـبة، مـن بلاد لهما فيهـا السـنّ نفسـه، القيمـة نفسـها، كل واحـد منهـما عـلى رأس قطيعه: هكذا يسـتلهم الشـاعر شـيئاً من البسـالة من القائد بينما يسـتلهم القائد مـن هـذا الذهـب الـذي يتعاطـاه الشـاعر والـذي لا وزن لـه ولا لون. سـاعات قليلـة قبـل العـرض، عـبّر جـان عـن مشـاعره أمـام نيكـولا الـذي لامه عـلى كثرة تخيلاتـه، لكنه انذهـل عندما أعلن الملـك في ذلك المسـاء أنـه يريـد جان في جـواره.

لم يكـن جـان يحتـاج إلى الالتفـات كـي يحسّ ويلتقـط أي تفصيـل كان، أي حركـة، أقـل نأمـة. تفـرّس في حذائـه، في زينتـه، في أبازيمه، في

شرائطه، في نسيج جوربيه الناعم. بدأ بالكاحل حتى الربلة، صعد ببطء، حتى وقع نظره فجأة على فتق تحت الركبة تماماً. تحت وقع الصدمة، كاد يدير وجهه كي يمعن النظر في عيب الجورب. تمالك نفسه، غضّ الطرف عن الفتق وأجبر نفسه على النظر إلى الأمام مباشرة، لكن فتق الجوارب لم يعد يغيب عن ذهنه: الملك ليس أكثر من إنسان فانٍ بسيط خاضع لمخاطر المادّة. أثار حينئذ قرف جان شعور بالكراهية تجاه كل أولئك الذين تركوه يظهر هكذا، يعرض إنسانيته وعيوبه علناً. كانت الأقمشة الثقيلة والأنوار الكثيفة تجعل الهواء أقل داخل المسرح، شعر جان أنه يختنق حين دوّى فجأة صوت أنتيوخوس:

لنتوقّف لحظة.

هدأ روع جان، أغمض عينيه. لن تكون مسرحيتي سوى تنهيدة طويلة من أوّلها إلى آخرها، كان يقول لنيكولا، ونيكولا يجيبه: يحتاج الجمهور إلى حدث. أدار الملك رأسه ناحيته. لم يستطع جان أن يقاوم والتقت نظراتهما. ابتسم الملك وقال: «جريء»، ثم جلس أمام المسرح. كان قلب جان يضطرم. فهم الملك معنى هذه التنهيدة. ذاب قلب جان بين أضلعه مثلما يذوب الشمع السائل.

من البداية وخلال خمسة فصول، لن يتبادلا النظرات ولكن سوف يزداد إصغاؤهما وأسئلتهما: سوف يتساءل جان باستمرار إذا كان الملك قد أدرك أن وراء هذه التراجيديا البسيطة الخالية من الرقص والغناء والمؤثرات المسرحية، كان جان يريد ابتكار لغة نقيّة، وأن يُعطي لحكمه بريق الماس وسط الأحجار المزيّفة والفاسدة. والملك سوف يُدهَش كيف يمكن الموازنة بهذا الانضباط بين السلطة والحب. هناك بالتأكيد شيء من تيطس فيه، وربما شيء

من بيرينيس. كان جان يغلي، لم يعد يتمالك نفسه وكان مُجبراً ألف مرّة، كي يُهدّئ من حماسته، على أن يتلوّى في مقعده: سوف ترسّخ هذه المسرحية المأسوية نوعاً جديداً من الوفاق بينهما، دون كلام أو تعليقات علمية، نوعاً من الوفاق الذي يكشف الجروح من الأعماق، نوعاً من التواطؤ، لا كورنيّ ولا موليير سوف ينالانه أبداً. وكأنه فعل ذلك عمداً، قبل لحظة من النهاية، أدار الملك رأسه تماماً. جان أيضاً: جرت دمعة، تجمّدت، وعادت لتجري قبل أن تختفي في قماش اللباس الثخين. مسح جان خدّه وكأنه هو من بكى، أومأ برأسه ثم عاد ليحدّق إلى المسرح أمامه.

كانت ماري مُدهشة. هنأها، شكرها، عانقها. ولكن في تلك الليلة وهي تنام بالقرب منه، لم يكن يفكّر فيها، كان يفكّر في دوبارك. لاحظ أن الحزن يتبخر تدريجاً مثل ظاهرة كيميائية فيزيولوجية، يجفّ، يغادر أعماق الجسم كي لا يشغل سوى السطح، يتخلّص من الرائحة، من الملمس، لكنه يعلق طويلاً بالصور، مثلما يحدث ويعود وجه دوبارك الجميل ليظهر مرة أخرى دون سابق إنذار. وجه كبير وضاحك، يمتدّ مثل غلالة رقيقة. هذه الرؤية المستديمة، تلك البقعة على شبكيته، هذا ما يذكره منها، بعد أن نسي كل شيء، وفقد اعتياد كل شيء. حتى وإن كان عليه أن يركّز من الآن فصاعداً، أن يحشد ذكرياته كي يعيدها للظهور. وإن كان لا يزال يفعل هذا، فذلك كي لا تتبدّد، كي لا تتركه ويختفي جزء منه معها. هناك مسرحيته بالتأكيد، ولكن كان يحتاج أيضاً إلى أن يعنى بهذا المقدار الضئيل الحميم الغيور، الذي لا يحقّ لأي كائن أن يراه. ذات يوم، بيرنيس أيضاً لن تتذكّر وجه تيطس إلا بإجبار نفسها على التفكير فيه. فكّر: لحسن الحظ تمنعني مسرحياتي من الحديث عن ذلك: عن

قدر الناس كلهم، عن هذه الغثاثة، هذه الغصّة، عذاب الحب. إن كان قد اختار أن يكتب في الأربع والعشرين ساعة، ألم يكن ذلك كي لا يودِع كل شيء قِدر الزمن الواسعة؟ كان يكره الزمن لأنه يستهلك الحب وعذاب الحب.

نظر إلى ماري النائمة. منها أيضاً لن يبقى سوى وجه صغير يمتدّ فوق أفكاره، وقد لا يبقى. عندما كانت دوبارك تهجره، تنساه، تخونه، كان وجهها في كل مرة يتكسّر ولا يترك بين أصابعه سوى بعض الومضات المذعورة. عندما كان ينتابه أدنى شك كان جبينه المسربل بالعار يهبط ثقيلاً فوق عينيه الغائرتين مثل زجاج مُحطّم فوق وجنتيه. كان ينظر إلى نفسه كمن ينظر إلى ميّت برعب وإشفاق في الآن نفسه. وبعد أن فقدها، غابت معها الابتسامة التي كانت ترسمها الرغبة على شفتيه، وكان أثر كل ذلك النسغ المنبعث من داخله، يغمره ويزيد تعلّقه بالحياة، ويجعله مفترساً كالوحش. بقي وجهه خلال أشهر تظهر عليه ما يشبه الثقوب والحسك الحادّ، وقد خفّت قسوتها لتترك له وجهاً ملتئمة ندوبه لكنه بقي متهالكاً، دون حتى أن تترك له أدنى ذكرى لإمكانية استرجاع شيء من الشحم والتورم. كان يكفيه أن يركّز قليلاً كي يحرّك أفكاره كأنها أصابع ماهرة أليفة قادرة على التعرّف إلى خطوط لوحة حزنه، يعيد تشكيلها ويعاين مقدار النكبة.

ابتعد جان في السرير عن ماري مُرهقاً من أفكاره. كان أقلّه قد خلق وهماً رائعاً في أذهان الجمهور: الديمومة الخالدة لوجهين: وجه بيرينيس المحفور أبداً في ذاكرة تيطس، وبالعكس.

بكت كل النساء، قال له نيكولا. إنه نجاح باهر. يردّدن أبياتك

طـوال الوقـت. تراهُن هنـاك يثرثـرن، ويبدأن فجـأة بإلقاء الشـعر بهيئة رزينـة، غريبـة، كأنهـن كاهنـات حقيقيـات في معبـد إغريقـي. أحبـه، أهـرب منـه، تيطـس يحبّني، يهجـرني! وكأنـك نجحـت فعـلاً في شيء مـا... لا أعـرف مـا هـو ولكـن بالتأكيـد في شيء ما...

- لتكن أبياتي من الآن فصاعداً مرجعاً لنساء فرنسا اللواتي يملأن المسارح كي يتحدّثن عن عشقهن... وحدهن، أو أمام الأخريات. أنا مرجع وطني.
- أنت تتكلّم مثل الصحافيين. على الرغم من كل شيء، اعرفْ أنه لا يُقال غير ذلك... أضاف نيكولا.
- وماذا يقولون؟
- إن مسرحيتك المأسوية هي سلسلة من المقاطع الرائعة، ربسودية[١] غزلية.
- أكمل.
- إن بطلك أنتيوخوس لا ينفع بشيء، وإن كلمته الأخيرة «واحسرتاه»، معيبة مثل المنديل الذي أخذه من جيبه عندما بكى.
- ليس هناك منديل على خشبة المسرح.
- يقال إن هذه الـ«واحسرتاه» أخذت مكان المنديل.
- وحين أسمعك، أراك موافقاً على ذلك؟
- ألم أقل لك: إنك حين تكتب عن أشياء تافهة سوف ينتقدونك؟ لماذا كتبت مأساة عن شيء تافه.
- الفراق ليس شيئاً تافهاً.

(١) ربسودية: جزء من قصيدة ملحمية ينشدها الراوي في جلسة واحدة.

- أنت نفسك قلت ذلك في مُقدّمتك.
- هذا صحيح.
- هل هذه نزوة غريبة من أفكار الحداثة؟ استفزاز مؤلّف؟
- لا. حين تدرك كل ما يحدث في إعلان الفراق، تكون في قلب الظرف الإنساني، في رغباته، في وحدته. يمكن أن تشرّح موت الروح دون أن تريق قطرة دماء واحدة.
- لا تبدأ بالحديث عن التشريح مُجدّداً!

هزّ جان رأسه بكبرياء، لكنه كان مقهوراً وتألّم أكثر عندما علم أن بعض أبياته كانت تدور في الصالونات مثل النكات. كانت ماري قد حذّرته. كانوا يتحدّثون عن ملك هزلي وإمبراطورية رخيصة، وأسوأ من ذلك أيضاً، حطّوا من قيمة دوافع بطلته: لو أنها انتحرت، لانتحر تيطس أيضاً، ولم تكن لتسرّ بلقائه مجدّداً في العالم الآخر، لهذا السبب عادت إلى فلسطين.

- معنى ذلك إهمال كل الجهد الذي تكلّفت عناءه كي تنفصل عنه، أجاب وهو يذكّر بمقدّمة المسرحية.

إلّا أن ذلك لم يمنع الهجوم عليه بشدّة، وانتقاد لغته وأفعاله التي صيغت على نحو رديء.

- «ربما قبل حلول الليل، تقوم بيرنيس السعيدة بتحويل اسم الملكة إلى إمبراطورة». كان يجدر بك أن تضع كلمة «بتغيير».
- يُقال: «يتحوّل الخبز إلى جسد سيّدنا يسوع المسيح»، دافع جان عن نفسه.
- لكن مسرحيّتك ليست سرّ القربان المُقدّس. أنت لا تُراعي قواعد اللغة: لساني المعقود، في فمي عشرين مرّة بقي مُتجمّداً. كان يجدر أن تأتي هكذا، بقي مُتجمّداً في فمي عشرين مرّة.

- لكن الوقع لن يكون نفسه.

عمّ يتحدّثون؟ فكّر جان، لمصلحة من هذه الجلبة المقتبسة من المحاكم وسجل القِيم، من القانون والسوق؟ لكنه في النهاية صرف النظر وترك الاعتراضات تحترق وتخمد. هل يظنّون حقاً أنه لم يختر ما كتبه؟ لامَ نيكولا نفسه لأنه لم يدفعه إلى التصحيح أكثر، لكنه كان مُعجباً بجرأة صديقه، بهذه الطريقة بالقبض خفية على اللغة وتشكيلها على هواه، وفي النهاية، وعلى عكس أي منطق، بهذا التبجيل الجديد له حين يصل إلى مكان ما. ربما تكون هيئته الرزينة، ثيابه التي تزداد فخامة أكثر فأكثر. كان يحصي أمامه كل الفرضيات. أولاً: تمكن جان من أن يجعل القلب الذي أدماه الحب يتكلّم - ليست التهكّمات هنا إلا لتُخفي الاعترافات والألم، أوضح. ثانياً: الملك، كانت عيناه تلمعان عندما يتحدّث عنه، رغماً عن موليير، رغماً عن لولّي[1]. ثالثاً: لقد أنزل كورنّي بالتأكيد إلى مرتبة شعراء مسرح العجائز. ابتسم جان، فهو يُحبّ هذا النوع من الإلقاء السريع، المستعجل، الخواتم الحاسمة، العبارات المتراشقة لمصلحته.

كانت أجمل النساء يُرهقنه بمناجاتهن. وقد تكون أحياناً فظّة، مثل تلك التي قالت له: إن الفراق في الحياة أقلّ جلالة بكثير مما هو في مسرحيته، وليس فيه هذا الإيقاع البطيء بل هو صاخب يصمّ الآذان، يثقب طبلة الأذن، الإنسان المهجور هو هيكل عظمي جُرّد من عظامه يئنّ من كل مكان، تمزّقت فيه أرقّ الغضاريف، بلا مراعاة ولا رحمة.

- أليس حرياً بنا القول: قلبنا هو الذي انتُزع منّا؟ اقترح عليها.

---

(١) لولّي: جان بابتيست لولّي، موسيقي بارع إيطالي الأصل اشتهر زمن الملك الشمس.

- لا لا... إنها العظام، أجابت.

فكّر جان: الأبيات مثل السكاكين، تُشحذ على المشاعر الحيّة التي تُعاش.

- شعرت أن شخصيات مسرحيتك «بيرينيس» تحولت إلى كوم من الرماد، همست أخرى.

- نعم، قال جان.

- رماد ينبعث منه الدخان ولكن ليس لوقت طويل، أضافت السيدة بصوتها المخنوق.

- نعم، قال جان أيضاً، مفتوناً باللهاث الناعم الذي لامس أذنه بغتة.

- سوف تطفئ السماء الباردة لهيبها...

وافق جان، ابتسم، أشاد بموهبتها الشعرية عندما انهارت فجأة بالبكاء. ارتبك وراح ينظر من حوله: في الطرف الآخر من الغرفة التقت نظراته نظرة نيكولا الثاقبة وابتسامة ماري، وعندما شعر أن هناك من يشجّعه، مدّ يده نحو جارته، شدّ على أصابعها بين أصابعه، ووعدها بأن يواسيها أرقّ مواساة.

- أنتَ مثلي إذاً، قالت له. كنتَ عاشقاً وتريد أن تكون معشوقاً؟

- نوعاً ما.

فكّرت قليلاً وتابعت:

- لا يسعني التفكير إلا أن أبياتاً رائعة كهذه تأتيك من أعماق روحك.

- ليس للروح عمق، قال جان.

فرح بثقته بنفسه. اتهموه بالمغالاة في اللطف كي لا يذهب به الحال ويتيه بين السيّدات. وكان عليه أن يعترف حقيقة أن مسرحيته

ذهبت إلى أبعد مما عاشه. وضع فيها بالتأكيد ما كان قد بقي فيه من حزن كي يفطر قلب الجمهور ويُلهب الجمر، لكن دمه تضاعف بسائل آخر، بمادة بيضاء، باردة، منيعة على الاحتراق. مهما حصل لي، فكّر جان وهو يعانق المرأة التعيسة، لن أتألم بعد الآن مثل امرأة. بعد لحظة من ذلك، عندما ولجها، كانت الطاقة التي وضعها في حركة وركيه تؤكّد أن الصيّاد لم يعد هو الفريسة.

٢٣

غـزت الآلات جميـع المسـارح، وخصوصـاً مـسرح موليـير. كان المهندسـون يأتـون مـن كل الأصقـاع، الكل يـزاود، والملـك يطالب، إذ كان وجهـه يتهلـل أمـام ألعـاب البكـرات. فوق خشـبة المـسرح، كانت البحار تهيج، والسـماوات تُظلم، الممثّلون يطـيرون، يتدافعون، يغرقون. كان جـان يشـعر بالذعـر مـن كل هـذا الكمّ مـن الوهـم. «يقحمون الله والسـماء في كل الشـؤون، يحسبون أنفسـهم الله»، هكذا كان يقول عندما يسـألونه. لم يذهـب بـه الحـال إلى هذا الحـد قط، ولـن يصل به أبـداً. في إحـدى الليـالي، بعد أن شـاهد مسرحيـة، حلم أنه يحترق في الجحيم، في نـار أكثـر حرارة بستين مرة مـن كل نـيران الأرض، وأن روحـه تتجعّد مثـل قطعـة ورق مُقـوّى وتتلـوّى في اللهيـب. عـلى الرغـم مـن ذعـره، استـيقظ مـسروراً لأنه تصوّر الجحيـم بكل هـذه الدقّـة، ردّد: «نار أكثر حـرارة بسـتين مرّة مـن كل نـيران الأرض». هـذا القياس بـدّد خوفه.

- يجب أن أتحدّث إلى الملك مهما كلّف الأمر، قال لماري، وأقول له: إن موليير يحاول أن يحرّض على الخلاعة. إذا استمرّ الأمر على هذه الحال، فكل مملكة فرنسا سوف تتحوّل إلى آلة غبيّة.
- لو كنت مكانك لتكيّفت مع الوضع، أجابته برقّة لا تخلو من المخاتلة.

ردّ عليـه الملـك أثنـاء مُحادثـة بواسـطة نيكـولا: أنـا بحاجـة إلى أن أروّح عـن نفـسي، وأكثـر مـن ذلـك أيضـاً، أن أروّح عـن نفـس المملكة.

المؤثرات الخاصة تأسر العين والذهن، لكن ذلك لا يلغي المسرحية التراجيدية العظيمة. أحب لغتها، فهي مفيدة للبلاد، للبشرية جمعاء. غضب النساء الاستثنائي، إذعان الرجال، طموحهم، من يقولها مثلها؟ ثم اقترب الملك، وقال بصوت خافت:

- ليُعامل الرجال مرّة مثل السيّدات، أي...

تردّد الملك، خفض رأسه وقال:

- ... مولَجين. ليفهموا حاجة المرأة إلى أن تكون مُمتلَكة، ممتلئة، هذا الشعور بالفراغ والهجر الذي عليها أن تحسّ به في عمق جوفها...

ذُهل جان. أخفى اضطرابه بينما كان الملك يضيّق عليه الخناق أكثر فأكثر.

- ... ولكن على العكس، لتعرف النساء مرّة واحدة هذه الرغبة التي تدفع كي تقذف ، تلقي بذارها، ثم تخسف وتختفي. نحن الرجال نعرف تماماً أن الرغبة لا تدوم، لا تعلق، ومتكرّرة، أليس كذلك؟ نشعر بها في كل مرّة، ولكن هنّ، كيف تريد منهنّ أن يعرفن ذلك؟

ابتعد الملك، استعاذ صوته الطبيعي.

- لو كان الجنسان يعرفان ذلك أحدهما عن الآخر، لو أن كل واحد يضع نفسه مكان الآخر ولو دقيقة واحدة، لما كان هناك كل هذه المآسي والمصائب. ولكن لما كان هناك مسرحيات مأسوية أيضاً، وهذا أمر مُؤسف. ربما تُساهم في إزالة سوء الفهم، فلنأمل ذلك إذاً...

تغضّن جبين جان، خشي مما قد يتبع ذلك.

- أنت تحاول أن تدخل إلى جسد المرأة وهذا أمر رائع، استأنف الملك. ربما تأتي امرأة ذات يوم وتفعل العكس، ولكن تلك التي سيكون لديها الشجاعة لم تولد بعد...

في نهاية المقابلة، نسي جان السبب الذي جاء من أجله. لم يعد هناك أي محظور بينه وبين الملك. كان يفكّر أثناء عودته، وقد أصابه الخبل من خبب أحصنته الأربعة، أن الآلة الوحيدة التي تستحقّ عناء الإبداع على خشبة المسرح يمكن أن تكون صندوقاً سحرياً تدخله امرأة كي تمثّل دور رجل وبالعكس. لتعذّر وجودها، سوف يجب عليه أيضاً البحث في المصادر الموجودة داخله، اللجوء إلى كل الحجج التي تُقدّمها له التراجيديا لينجز المهمّة الفريدة التي كلّفه إياها الملك رسمياً.

لذلك قرر أن يرى من جديد كل النساء التعيسات اللواتي بُحنَ له بأسرارهن، كي يعيد استنطاقهن بالتفصيل. سيؤكّد لهن أنهن سوف يرين أنفسهن في مسرحيته القادمة، ويجدن فيها كلماتهن، وحزنهن. كلّهن تقريباً أذعنّ وقبلن. هيّأ ترتيبات خاصة: أجلسهن في غرفة صغيرة أعدّها خصوصاً كي يتكلّمن. لكنه وضع بينه وبينهن ستارة لمداراة نظرته. بعد أن أعطاهن تعليماته كما يرغب، ابتعد، سحب الستارة، وطلب منهن أن يبدأن بالبوح.

راح يدوّن، يجعلهن يُعدن كلمة هنا وأخرى هناك. استخدمتِ تعبير «شقّ»، لماذا؟ صِفي لي هذا «الهلع»، هل تنتابك الغيرة في النهار أكثر؟ أم في الليل؟ ومتى؟ بالطريقة نفسها التي كان يكتب فيها تعليقاته على سينيك أو كينتليان، وضع تعليقاته على الهامش، بسرعة كبيرة كي لا يضيّع أي تفصيل من اعترافاتهن.

أحياناً كان يبالغ في ترتيباته بأن يضيف إلى ملاحظاته شهادات

طرف ثالث: نساء أخريات يأتين ويروين من وجهة نظرهن ما عاشته المرأة الأولى. كان يوضّح لهنّ قبل أن يبدأن: «أريد أن أعرف كل شيء عنها، تحوّلاتها، شحوبها، نحولها، عنف كلماتها، شتائمها، رغبتها في الموت». كان يدوّن بكل نزاهة روايتهن، يقارن، يقف مراراً بين الروايتين، في وسط الطريق ما بين مداراة الأولى والمتعة التي تستولي على الثانية في وصف مصيبة الأخريات. لكنه لم يكن يبحث من وجهة نظر فوقية. كان يفضّل الرواح والمجيء بين الاثنتين مستكملاً، في غفلة منهنّ، استكشاف ثنايا الروح. وعندما ينتهي، كان يرافقهن إلى الخارج أو يدعوهن إلى غرفته، حسب مزاجه.

ثار سخط ماري واحتدّت من طريقته الجديدة. منذ متى كان المؤلّف يتنازل ويعرّف نساء عاديات مثل كاهن؟ أين شوهد الشعر يستقي من الواقع؟ هل لكبريائه حدود؟ لم يعبأ بذلك كثيراً، كان يخزّن معلومات لا يعرف أين وكيف سيستخدمها فيما بعد، ولكن سوف تخدمه بكل تأكيد في نهاية استجواباته. أحصى الناتج: ثلاثة دفاتر كبيرة من الملاحظات.

رأى نيكولا طريقته سوقية. حضّه على إحراق دفاتره. في الحقيقة لهيب النار يطاردني باستمرار، فكّر جان. وبما أنه اعتاد منذ نعومة أظفاره الإعدامات حرقاً، لهذا لم يبلبله إعدام مدوناته نهائياً. لم ينسَ قط أيّاً من النصوص التي أحرقها.

عادت ماري إلى اتهامه. صار معروفاً عنه أنه يقابل نساء طوال النهار. «إنها مسألة سمعة»، قالت له. انتقاماً منه، استجابت لطوابير المعجبين المتزاحمين، ولمدائح موليير التي كانت تصل حتى إلى بابها. إن أضاعها جان فلن يضيّع روح مسرحياته فحسب إنما أكثر من ذلك، سوف يخسر معركته ضد المؤثّرات. كانت مسرحياته المأسوية

تحتاج إلى نجمة. لذلك كي يكفّر عن ذنبه، وافق على إحراق دفاتره الثلاثة أمام ماري. ولكي يكمل الافتداء بالكامل، قرر منذ اليوم التالي الذهاب إلى من يكلّفه رسم صورة لها بالطول الكامل. رافقها أثناء جلسات الرسم الأولى، راقب وجهها، يديها، طريقتها بتحريك رموشها ببطء شديد. ثم غاص في صمت اللوحة. سمع احتكاك ريش التلوين بمجموعة ألوان الرسام، ثم بالقماش وأغمض عينيه. في المرة القادمة عندما سيجب عليه أن يطلب من أحد الممثّلين أن يُحدث الصمت، هذا ما سيقوله له: صمت يُسمع فيه احتكاك الريشة بالقماش، أو أكثر من ذلك أيضاً، احتكاك الريشة بالورقة. كانت ماري تُدير رأسها أحياناً وترى هيئته الحزينة، تسأله فيدّعي صداعاً ألمّ به، ضيق لا أهمّية له.

- حريّ بك أن تفكّر في شخصياتك التركية! قالت له.
- شخصياتي التركية بأحسن حال، ردّ عليها بجفاء.
- عليهم أن ينتصروا، اجعل الناس تنسى بطلتك المسكينة بيرينيس.

كانت على حقّ. عند النقطة التي وصل إليها، لم يكن أمامه خيار سوى أن يُنجز تراجيديا مليئة بالأحداث. وبئس الأمر إن شعر بالضجر قليلاً وهو يكتبها.

في بعض الأيام، كان يبقى في المرسم وقتاً طويلاً، حتى إنه كان يفتح أحاديث مع الرسّام. كان يستفسره عن طريقته، عن الفرق بين ما يرى وما يرسم. يردّ الرسّام أنه يفعل بالتحديد قدر استطاعته لجعل هذا الفرق أقل ما يمكن. حسده جان لأن لديه شيئاً حقيقياً تحت أنظاره في حين لم يكن لديه سوى حكايات مُكدّسة، ورؤى مُبهمة، متطايرة.

- عندما كنت طفلاً، أردت أن أرسم الأرض باللون الأحمر، الأرض الحمراء وسط العشب الأخضر. كنت أظنّ أنه بالإمكان الكتابة بالطريقة نفسها.

نظر إليه الرسّام ذاهلاً. لامته ماري لأنه يُشغل كل الناس بأهوائه الغريبة.

لم يُحب نيكولا مسرحية «بيازيد»، كما رفضت ماري دور روكسان الذي قالت عنه: همجي وفظّ جداً لمهنتها. أبدت اعتراضها على قولَين: تصريحه التافه جداً في بداية الفصل الثاني: «بيازيد»، اِسمعْ، أشعر أنني أحبّك» وكانت مُجبرة على التراجع عن قولها على الفور بعبارة: «لم أعد أريد شيئاً» الأكثر تفاهة أيضاً. لم يحاول جان أن يُقنعها حين أضافت أنها ترفض تجسيد الحب وكأنه لدغة نُعاقب بها أولئك الذين لا يحبوننا، حتى وإن لم يكن لدينا أسنان، وتركها تلعب دور «أتاليد» الأكثر تفاهة.

بدأ يكتب المسرحيات الواحدة تلو الأخرى تبعاً لطراز العصر ولإيعازات خصومه والقيم الجديدة التي كانت تحفرها في نفسه تلك الإيعازات. كان يعرف أن نيكولا سوف يحبّ بطله ميترياد. كل الناس سوف تحبه، الملك بشكل خاص، إذ إنه كان يوجّه إليه خطباً طويلة كاملة عن ممارسة سلطته وغزواته. أصابته غلواء الحرب التي وضعها في مسرحيته. أكثر من أي وقت مضى، كان يردّ على مهاجميه، يقضي على المتآمرين، يقاتل بقوة مضاعفة مرتين، ثلاث مرات. أصبح في المرتبة الأولى، ملك الصالونات، لم يسبق له أن كان لديه كل هذا العدد من الأصدقاء، كل هذا العدد من الرعايا. كانوا يتوارون أمامه، اتخذ بعض الكتّاب أسماء مُستعارة تفادياً لمخاطر

المواجهة معه. كي يختبر أبياته، بلغ به المطاف حتى الذهاب إلى حديقة تويلوري كي يلقيها هناك بصوت عالٍ كأنه يُشهر سيفه.

- يقال إن عمّال تويلوري ظنّوك هذا الصباح بائساً على وشك أن ترمي بنفسك في بركة المياه، نقل إليه نيكولا. كان عليك الانتباه.

لكن لم يكن أمام جان غير ذلك، أو الأحرى لم يعد يأبه إن بدا مجنوناً، غريب الأطوار يُخشى جانبه، كما في بعض أحلامه حين كان يرى نفسه في لباس الملك الحربيّ، يغمد سيفه في بطن كورنيّ العجوز، ثم في بطن شقيقه الصغير، ليخرج من الحلم غارقاً في دم زيتيّ. وقد تأتيه في الليل أوصاف مؤثّرة وحكايات جامحة مسرنمة تجعله يقول لماري: «إنني قادر على منافسة أكبر الممثلين، حتى أنتِ».

كانت تنبيهات نيكولا تزعجه، لكن كان يكفي أن يقول: لا شيء أكثر عظمة من بداية سِفر التكوين كي يغفر له. «قال الله: ليكن نور، فكان النور. لتكن يابسة فكانت اليابسة». في تلك اللحظات، كان جان يعرف أن في صداقتهما ما هو أكثر من الحساب والمنفعة المتبادلة، شغف باطني واحد بالأسلوب البسيط. حتى إن نيكولا كان يتجاوز حدوده وينبش أبياته دون تحرّج. وعندما لا تكون أبياته، بل أبيات هوميروس أو أوريبيدوس هي التي يقيس دقّتها بصوته الحاد ويقول: هذه الكناية مُفخّمة، أو يقول: هذه الحدّة، تلك السرعة، هذا هو السموّ الحقيقي. على الرغم من أن جان كان يشعر بالضيق، إلا أنه كان يصغي إليه بنهم حتى خيّل إليه أن مسرحيتيه الأخيرتين ناقصتان. تلك الجلالة التي وضعها في بيرنيس، جنون أوريست وإرميون، لم يعد يرى فيهم كل ذلك. فقد جرأته،

بدأ يلجم شخصياته، يلملم يأس مونيم ووحشية روكسان[١]، وقدّم الكثير من التنازلات الفعلية كي تلائم العصر والنصر.

- افعل الأمر نفسه بأبياتي، طلب من نيكولا، قشّرها، جرّد اللحم عن العظم، قل لي في كل مرّة إنها تنتفخ مثل طبل أو تتقعّر مثل حفرة.
- اتكل عليّ، قال له نيكولا. بالمناسبة ثمّة بيت شعر لأوريبيد يجعلني أنتف شعري. ربما بوسعك مساعدتي؟
- بكل سرور، قال جان.

ترجمته هكذا: أي ثعابين فظيعة تنفث في رؤوسهم؟ ما رأيك؟

ابتسم جان، فقد عرف استعارته. الكتّاب يختلسون بعضهم من بعض، هكذا يجري الأمر. وافقه نيكولا الوديع وأضاف: لولا هذه السرقات لكان البعض قد انطمس إلى الأبد. تماماً مثل ذاك الذي كان يترجم له ولا يعرف عنه شيئاً تقريباً وقد ضاعت كل نصوصه الأخرى.

- من هنا وإلى قرون قادمة، هذا ما سنكون عليه نحن أيضاً، قال جان، كاتبان غير معروفين، عند حدود الغفْلة، سوف يضيع كلّ منا في غابة الزمن. كنا على هذه الأرض، لم نكن، في الحقيقة، أي فرق؟ لماذا نُتعب أنفسنا إلى هذا الحدّ؟

شعر نيكولا بالقلق، إذ بدأ جان يرتجف. كي يُهدّئ انفعاله، بذل ما بوسعه كي يصوّب نظره نحو التمثال النصفي الذي سيتّخذ ملامحه وسوف يُعثر عليه في غابة الزمن، متآكلاً لكنه شاهد، في غابة الزمن.

---

(١) مونيم وروكسان: شخصيتان في مسرحيات راسين.

٢٤

جان ينتظر

كان يودّ لو كان هو الوحيد، الوحيد الذي يُحتفى به، لكنه لم يفلح في تغيير أمر الملك. اثنان من الحاصلين على الألقاب سوف يدخلان معه إلى الأكاديمية، ولكن مُراعاة للجميع أجلسوهم في قاعات منفصلة.

كان الريش الذي يزيّن ملبسه وقبّعته يهتزّ جراء الرياح التي تهبّ في داخله، رياح باردة تشدّ أعضاءه وتُجمّد دمه. سوف يأتون بعد قليل ليأخذوه كي يصبح خالداً. لم تُخجله الكلمة قط. على العكس، كانت تُفرحه. إنه لا يحتاج إلى روحه لتعيش من بعده، لغته سوف تتكفّل بالأمر. فكّر في خالته، وفي كل الذين كانوا يكرّرون على مسمعه أنه ما من خلاص. ليتهم يشاهدون الطريق الذي قطعه.

حتى العام المنصرم، لم يكن يُدعى الجمهور إلى جلسات الأكاديمية، لكن كولبير[1] والملك أرادا جعلها أكثر أبهة. كان ذلك من حسن حظ جان الذي دعا أصدقاءه، الماركيز، أبناء عمّه، الجميع، باستثناء ماري، إذ لم يكن يسمح للنساء بالحضور. إنه يوم أعظم من أي يوم آخر، معمودية مجيدة أكثر من كل العمادات. بقي أكثر من شهر يستعد للمناسبة، يعدّ كلمته ويحضّر الاحتفالات.

---

(١) جان بابتيست كولبير: (١٦١٩-١٦٨٣) وزير لدى لويس الرابع عشر، مراقب عام للمالية، أمين عام لقصر الملك.

لم يحتج جان إلى الترشيح سوى مرّة واحدة كي يُنتخب، إذ كان قد أصبح خبيراً بالمتآمرين، ويعرف كيف يقضي عليهم وهم أجنّة، أو يجعلهم ينقلبون لمصلحته. قدّم الملك له دعمه على الفور. من أصل ستة وعشرين ناخباً، لم يصوّت ضده سوى خمسة. بينما وجب على كورنيّ أن يترشّح ثلاث مرّات قبل أن يُنتخب. سيكون خيال العجوز الضخم حاضراً في قاعة مجلس الملك القديمة، الخيال نفسه الذي جاء كي يستثير صيحات الاستهجان في المسرح، سوف يستقبله مثل الآخرين، مدارياً خوفه وغيرته وحقده وراء ابتساماته. لم يعد جان يشعر حياله سوى بشيء من العداء كان يزداد حدّة عندما يقولون له: إن كورنيّ يعمل حالياً على مسرحية يُفترض أنها عظيمة.

جاء الحاجب، تبعه حتى القاعة الكبرى. كان يجلس عند أحد طرفيّ الطاولة أعضاء إدارة الأكاديمية، وعلى الجانبين الأعضاء الآخرون، في الطرف الآخر، كان ثمة كرسي فارغ عليه أن يجلس فيه من بعد الاثنين الآخرين المُحتفى بهما. لا شك أن الملك قد فكّر في إكمال المجموعة بما هو أعظم من عالِم ورئيس دير. إن لم يكن العكس... «لا هذا مستحيل فكّر جان، بما أن الملك لا يمكن أن يفكّر في ذلك عن نفسه فهو لن يفكّر في ذلك عني».

عرض خطابه الذي أعدّه للمناسبة على نيكولا ثم على لافونتين. رأى في أعينهما التماع الغيرة والإخلاص، ما يكنّه المرء تجاه ما يناله الآخرون وكأنه له، حمّى الحسد، الحاجة إلى تحويل الظلم إلى عرفان بالجميل لدى الآخر.

بدأت الخطابات. التقت نظرات جان نظرات الماركيز. ابتسم جان، تذكّر القمر فوق رأسيهما، وتبجّحهما الطفولي عندما كانا صبيين. لم يكن قادراً على فصل شعور السعادة، لأنه جمع كل

المخلصين له، عن شعور الضيق الذي كان يسببه له التفكير بأنهم عرفوه في أسوأ أيام حياته: يتيماً، فقيراً، منفيّاً، وعلى الخصوص الماركيز الذي رآه غير مرّة مطعون الكرامة. لكنه الآن أصبح أكاديمياً لفرنسا، لن يحرق له أحد بعد الآن ما كان يُحبّه. في سيل الأفكار التي كانت تدور في رأسه، حملت له قراءة المادة الرابعة والعشرين من القوانين التي كان يحفظها عن ظهر قلبه شيئاً من الطمأنينة.

الوظيفة الأساسية للأكاديمية، قال المدير، سوف تكون في العمل بكل اهتمام وبأسرع ما يمكن على إعطاء قواعد محدّدة للغتنا وجعلها نقيّة، بليغة وقادرة على احتواء الفنون والعلوم.

فهم جان المهمّة واحترمها. قدّر فيها البعد الانتقائي الجماعي، لكنه ليس فوريتيير[1]، فهو لا يؤلّف القواميس. كان يتمنّى لو أن الحظوة كانت أكبر أيضاً وكان فيها الوحيد، الفريد، القادر على تنقية لغة أعظم ملك في العالم. جاءت العبارة على لسان المُحتفى به ممتنّة، مُتوقّعة، وعلى الرغم من كل شيء أبهجت الجميع. كان يرفع قبّعته في كل مرّة يُلفظ فيها اسم الملك أو يقول «سادتي».

خاف جان أن ينسى آداب اللياقة عندما سيحين دوره. طلب من نيكولا أن ينبهه بإشارة في حال نسي. كان يريد أن يعرف على ماذا يعمل كورنيّ حالياً، والتحدّي الذي يحمله العجوز تجاهه باستمرار. هل كان يكتب عن روما أو عن أثينا؟ سوف يستعلم منذ الغد. سعى جهده كي يثبّت نظره بنظر كورنيّ، أن يحدّق إليه دون فظاظة، دون ضعف، لكن نوبة سعال قوية انتابت كورنيّ غطّت على كلام الخطيب. آه لو يموت في يوم تنصيبي، فكّر جان، أي حدث مسرحيّ

---

(١) أنطوان فوريتيير: (١٦١٩-١٦٨٨) رجل كنيسة، شاعر، كاتب حكايات وروائي ومؤلف معجم.

خارق يمكن أن يكون! نـدّت عنه ابتسامة. فضلاً عن ذلك، يقال إن صحّة موليير تتدهور، وقد تفيض روحه على خشبة المسرح بسبب رئتيه. سيكون عندئذٍ الوحيد... لكن كورنيّ كان قد عاد واعتدل في جلسته واستعاد هدوءه.

يتذكّر جان كل سطر كتبه، تتدحرج الجمل في داخله دون خطأ. بعد بضع دقائق، سوف تخرج موزونة لتهزّ المشاعر، لن يصعب عليها أبداً أن تطغى على عبارات «غالوا»، ذلك لأن الإيقاع هو علامته الفارقة، كل الفرق بين المضخّة المتواصلة وما يفعله هو عندما يُؤلّف: جمل يُسمع فيها عدد مقاطعها الصوتية، أفاع تبدأ حركتها الانسيابية بزوايا ثابتة، ونغمات متقطّعة. لم يعد الملك يحلف إلا بالمسرح الغنائي، ولكن هل هناك ما هو أنقى من غناء دون موسيقا؟ تساءل جان.

صفّقوا للعالِم بحرارة. صفّق جان مع الجمهور. ماذا يمكن أن يفعل غير ذلك؟ التقت نظرته نظرة كولبير الذي جاء خصوصاً ليستمع إلى أكبر مؤلّف مسرحي في المملكة.

بقي دور فليشيه. كان خطابه يهتزّ بشكل مختلف، مندفعاً، يحرّك القلوب. أشرقت الوجوه. كان الخطيب يمتلك الموهبة، ولديه قريحة رائعة، لا يخطئ أبداً ولا ينسى نفسه عندما يتحدّث. فليشيه هو الثبات بعينه، نوع من الألوان الثابتة دائماً، أذهل جان فجأة، ألقى الرعب في قلبه، جعله يفكّر أن خطابه سيبدو فاحشاً بالمقارنة به، عارياً، خلاعياً.

شجّعه نيكولا من بعيد، لكنه لم يكن يرغب سوى في شيء وحيد ، أن يرحل، يهرب، يغادر هذا الحلم المزعج. أن يتجاهل ابتسامة كورنيّ الساخرة المتغطرسة، أن يتجاهل كل أولئك الذين

صوّتوا ضدّه، وربما حتى أولئك الذين صوّتوا له. كالسيل الجارف، لم يتوقّف التصفيق، حمله إلى تيار مخيف هائج، لن ينال شيئاً كهذا أبداً.

جاء دوره.

وقف جان، لم يترنّح. إنه يثق بهذا الثبات الذي توطّد لديه عبر السنين وترسّخ مثل مادة كيميائية. مشى، اتخذ مكانه على الكرسي، ألقى التحيّة. رفع المدير قبّعته. بدأ. قرأ عبارته الأولى كمن يسبح على بطنه في مياه ضحلة.

من العبارة الثالثة وضع نيكولا يده بالقرب من أذنه، ينبّهه كي يرفع صوته. رفع جان صوته لكنه ظلّ خافتاً. أغمض عينيه برهة ثم عاد وفتحهما. وجّه إليه أمين السرّ نظرة مُشجّعة، لكن جان لم يعد يراه، اتخذ هامون مكانه، جاثياً على الأرض، يجب ألّا يسمعهما أحد. إنه الليل في الوادي الصغير، وسط المناسك، يجب ألّا يسمعه أحد. انخفض صوته درجة أيضاً. يكاد يسمع هفيف ريش قبّعته التي كانت تنتصب وتنثني. تعثّرت عباراته، صارت كأس الماء التي أمامه بوسع المحيط. حريّ به أن يصمت عوضاً عن تقطيع هذه الخطبة المتملّقة ويذوب صوته مثل ذهب فاسد. شحب وجه خالته بلمح البصر، سوف يُغمى عليها، يجدر به أن يصمت، أن يبتلع غروره، أن يقوله مثل صلاة ندامة لا أمل فيها. صَمَتَ.

سرت موجة من الهمسات بين الحضور جعلت الأكاديميين يتململون، وفي الحال دوّى التصفيق وعلا مثل اللهب. أصلح قبّعته، عاد وجلس.

من ذاك اليوم، لن يسمع جان أو يرى سوى مزق أوراق أحرقها لدى عودته إلى البيت. قيل له إن خطبته كانت بقوّة خطبة فليشيه،

لكنه لم يُصدّق. عرضوا عليه نشر خطابه، لكنه رفض، وعندما كان أصدقاؤه يريدون التعليق على الحدث كان يُسكتهم، ما عدا الماركيز الذي نصحه بألا يحتفظ منه بأي أثر. للمرة الأولى في حياته سوف يجبر جان ذاكرته على أن تمحو كل شيء.

اختالت ماري مزهوّة. لم تكفّ عن تكرار: أنه حين لا يكتب لها يضعف. ولكن بعد شهر على ذلك مات موليير أخيراً، وصمّم جان على ألاّ يدع للضعف مكاناً في حياته أبداً. بقي هناك «لولّي». لكن لولّي لن يكون فرنسياً كاملاً أبداً. هذه المرّة، المكان كلّه لي، قال لماري.

قرر إعادة نشر مسرحياته الأربع، لطّف المُقدّمات، خصوصاً لمواجهة كورنيّ. أصلح في المقابل شذرات من أندروماك، ضخّم هيجان إرميون. كانت ماري مسرورة برؤية شخصيّتها تتألّق، لكن جان لم يكن يفعل ذلك من أجلها. إرميون بركان لم يُعطه حقّ قدره. من أجل تلك الطبعة الجديدة، طلب من أربعة رسّامين كبار صوراً للصفحة المقابلة لعنوان الكتاب، وعلى الغلاف، قرر بعد تردّد طويل أن تُكتب كلمة «أعمال» عوضاً عن كلمة «مسرح». ربما يخفّف من غضب مُعلّميه وخالته. سخر منه نيكولا على هذا المبرّر الذي يرضي كبرياءه. حتى كورنيّ ما كان ليجرؤ على ذلك.

لم يكن يأتي إلى الأكاديمية لحضور جلسات زملائه إلا فيما ندر. كانوا يعملون بدأب على المؤلّفات الأربعة الواجب كتابتها لإتمام المهمة المكلّفين بها: القاموس، القواعد، علم البلاغة، العروض. المهمة ثقيلة جداً لدرجة أنهم قرروا الاكتفاء بالقاموس، لكن جان لم يكن متحمّساً لما يراه عبارة عن إضافة كلمات تافهة. بقي منزوياً

يراقب شارداً. عندما كانوا يسألونه، كان يجيب بشيء من الحدّة: القواعد أساسية أكثر من مفردات اللغة. قالوا له إن الأكاديمية لا تفكر في غير ذلك، لأنها قررت أن تتبنّى قواعد بور رويال. تعجّب من تساهل الملك، لم يعرف إذا كان عليه أن يغتبط بذلك أو يحزن. كان نظراؤه يرونه متعجرفاً وقليل التعاون، لكنهم لم يهاجموه قط.

أعاد باهتمام قراءة «قواعد» معلّميه. وفقاً لرأيهم، الإضمار هو أعلى درجات التركيب القادر عليه العقل البشري. كان يظن نفسه أنه ابتكر شيئاً مهماً عندما منعوه قبل عشرة أعوام. بالإجمال، لم يفعل شيئاً سوى اتّباعهم. وهكذا في كل الفصول الباقية. كان يعتريه الإحساس بالعار فجأة إذ يتخيّلهم هناك، مُنكبّين على العمل في صوامعهم، فيخجل من ألقابه، من ولائمه، إلى درجة أنه كان أحياناً وهو وسط استقبال مُعدّ على شرفه، يأتي أحد تلك الأطياف ويلتصق بوجهه. كانت تهمس له حينئذ ماري أو نيكولا: استفِد من مجدك، اترك هذا الحزن الغبي. كان يبعد تعليقاتهما بحركة من يده ويشيح بنظره. لكنهما كانا يحاولان استثارته بالحديث عن مسرحية كورنيّ الجديدة التي يقال عنها إنها الأفضل. إنها تحفته الأخيرة، يضيف نيكولا كي يهزّ مشاعره المخبولة، لكن جان كان يبقى عصياً على التأثّر. هل كان ذلك بسبب السحابة السوداء التي ألقاها الوادي فوق حياته التافهة أو بسبب طموحه الذي أصبح منذ الآن خالياً من خصومة على مستواه؟ طموحه الذي يراوح مكانه ويبطئ الخطى، أو بسبب الاثنين معاً؟

٢٥

كان جان يفتقد الملك الذي أمضى توّاً خمسة أشهر بين جيوشه وعاد لحسن الحظ دون أي جرح. لم يكن لدى جان أي فكرة عمّا يمكن أن تكون عليه الحياة في ساحة المعركة. كان يتخيلها موحلة ورطبة، تتردّد فيها صلوات الجنود المبتهلين إلى الله. بينه وبين الملك، توزّعت الأدوار: له الظلال والأوهام، وللملك الجنود والخيول والمدافع.

أثناء آخر حصار له، اتّبع الملك في الحرب نهجاً جديداً بمساعدة مشيره المهندس فوبان[1] الذي كان يوصف بالعبقري. لم يكن جان قد التقاه قط، لكنه في كل مرة كان يسمع اسمه كان يشعر بالغيرة. كان يتخيّله في جوار الملك، على صهوة جواديهما أو يسيران أثناء الغزوات بالذات، يحصيان الموتى والفراسخ، صداقة لن تمنحه إياها أيّ من مسرحياته أبداً. لن يكون لديه أبداً عوض المعارك سوى الحبائل ومؤامرات البعض ضد البعض الآخر، آلات المسرح، الأوبّرا، لحظات الحياة الوحيدة التي تمنح معنى لما يلمسه، حشيّة من تراب تحت ركبته.

منذ أن عاد الملك، أراد أن يحتفل ويجمع، أن يكون عالمه من حوله. لم يعد يريد أن يجول في القصور. فعل ما لم يفعل ملك من قبله، وزّع

(١) الماركيز فوبان: معماري حربي، مهندس جسور وبحيرات، كاتب فرنسي، عيّنه لويس الرابع عشر ماريشالاً.

الشموع والطعام على الجميع ووسّع قصر ڤيرساي. أجبرت الحفلات الأخيرة الكثير من حاشية الملك على النوم في عرباتهم.

طلب بشكل خاص تمثيل مسرحية جان «إيفيجينيا»[١] في أحد الأيام الستة التي سيحتفل فيها بغزواته الأخيرة. أراد أيضاً أن يمثّلوا ملهاة لموليير، ولكن في غياب موليير، أي أهمّية لها؟ لكن جان، على العكس، فرح بالمفارقة التي ستكون لمصلحة مسرحيته، القصيدة الغنائية العظيمة المُهداة إلى ملك عظيم.

على الرغم من حرارة الصيف أو بسببها، فرض الملك أفخم وأبهى احتفال، وجبات طعام خفيفة باذخة، ألعاب، الكثير من المرطبات. على الرغم من أعمال الورش والسقالات في كل مكان تقريباً، لم يرَ جان شيئاً أروع من تلك الجنائن. طلب من ماري المنتشية سروراً المزيد من التحفّظ. أجابته: «إن م. لونوتر[٢] يترأس الاحتفالات في الوقت نفسه في عدة قصور في فرنسا وأوروبا، والكلّ يلحّ في طلبه في كل مكان، هو واحد من أشعة الشمس التي تُجسّد الملك». واحد آخر، فكّر جان الذي كان يحصيهم بأسمائهم كأنه يقطف أوراق زهرة أقحوان.

- لا تخشَ شيئاً بعد الآن يا صديقي، قالت ماري، أنت أيضاً أحد تلك الأشعة. لا تختفي النصوص أكثر من الأشجار.

بينما كانت تبتعد متجهة نحو المسرح فكّر جان أنها سوف تتركه يوماً ما، عندما تخبو شهرته ولا يعود يكتب لها أدواراً كافية، وعندما يمضي شبابه. لن تهجر زوجها، لكنها سوف تهجره بالتأكيد مع أنه غيّر حياتها وتشاطرا معاً أقوى ما يمكن أن يتقاسمه كاتب

---

(١) إيفيجينيا: في الأساطير اليونانية، ابنة أجامنون وشقيقة أوريست.
(٢) لونوتر: حدائقيّ لويس الرابع عشر الذي كلّف تنظيم حدائق ڤيرساي.

وممثّلة. كم من اللحظات سيفتقدان، لحظات كانا يبتعدان فيها عن الآخرين، يغرقان في الخطب الطويلة، يغوصان تحت المقاطع اللفظية، ينبشان الروح ، يتقدّمان معاً حتى يصلا إلى درجة الرضى، إلى درجة الدقّة المطلقة؟ مثلما كان يُجبرها على رفع صوتها ضعف النغمة في الشطر الثاني لأحد الأبيات لأن هذه النغمة يمكن أن تغيّر كل شيء، أن تُظهر الذعر والاضطراب. ارتبك جان لحظة. هذا أغلى من أي عناق، اعترف لنفسه، مادة أكثر صلابة من مجمل التنهّدات العابرة. لم يكن يرى وصول ذاك اليوم كأنه مصيبة.

تم إخراج كل أشجار البرتقال. كان الهواء يعبق بعطر فاكهة خفيف الحلاوة. قيل له إن موسم الإزهار قد مضى منذ بعض الوقت، لو تمّ الاحتفال قبل قرابة الشهر لكانت زُيّنت مسرحيته بأروع الأزهار البيضاء. عبرت خاطره صورة حديقة الوادي، عارية تماماً: أرض غضارية حمراء، عشب أخضر، شجيرات شمشاد كروية، لا وجود للأزهار.

كانت قاعات أشجار البرتقال الباردة تستوعب من الناس بعدد أشجارها في الشتاء، أكثر من ألف تقريباً، ولكن يُقال: إن الملك عازم على توسيعها أكثر. كان جان يسعد في التفكير أن الملك يولي اهتماماً لاحتفالاته بقدر ما يولي لحروبه، وهذا دليل على أن مسرحياته بقوة تلك الرماح التي تُصنع من المعدن.

أُعِدّ المسرح في آخر ممر تحفّه أشجار البرتقال والرمّان ومزهريات عملاقة مليئة بأزهار الزنبق. صُفّت على طول الممر شمعدانات كبيرة متشعّبة من الكريستال، كانت تنشر نوراً أبيض يصل حتى بوابة الرواق الرخامية. لم يكن جان يتخيّل بهرجة كهذه لمسرحيته، تخيّلها في مخيّم عسكري على شاطئ البحر. مع ذلك، اعترف بأنه لولا هذه

البقعة ذات الوميض الفوسفوري في آخر الممرّ، لما شابه الليل النهار إلى هذا الحدّ. له البساطة وللملك ما يحتاج إليه من أبّهة لجعل تلك البساطة تتألق. اعتراه دوار لذيذ في اللحظة التي جلس في مكانه في الصفّ الأوّل.

حالما توقّف التصفيق، وقف الملك، نزل إلى الممر وكل الناس وراءه. كانت العروض المسرحية تتوالى هنا. كيف السبيل لجذب انتباه الملك له وحده؟ تساءل جان. بينما كان يُقنع نفسه بألاّ يبدد آماله في الرغبة في شيء مستحيل، جاء من يُخبره أن الملك يدعوه لقضاء بعض الوقت معه، قبل بدء الألعاب النارية التي كانت ستنطلق فوق القناة الكبرى.

- أردتُ أن تظهر الروعة وسط هذه الاحتفالات وأظن أننا نجحنا في ذلك، أليس كذلك؟ بدأ الملك.

ذابت كلمة «أننا» التي قالها الملك فوق لسان جان مثل قطعة من السكّر.

- أعرف تحفّظك عن البذخ، ولكن على المستوى السياسي لا شيء أكثر جدوى من ذلك. فضلاً عن أن هذه المظاهر تُعجبني.

توقّف الملك، عَدّ على أصابعه وهو يكرّر كل مقطع لفظي في العبارة التي قالها.

- عندما يخرج المرء من مسرحياتك، يكون واقعاً تحت تأثير الوزن الإسكندراني لا محالة، قال.

ابتسم جان. أضاف الملك أن أطياف رجال حاشيته تظهر أثناء عرض المسرحيات مثل ظلال صينية تجلس من حوله. يستفيد كثيراً مما يجري على خشبة المسرح مثلما يستفيد مما يجري بين تلك الصفوف

المطيعة. أقلّه، خلال ساعتين، لا أحد يتحرك من الحاشية أو يدير الدسائس. أومأ جان برأسه وفهم أن انتباه الملك يظلّ مُشتتاً، حتى أثناء تمثيل أبياته، لأنه ملك.

– هيا لنذهب ونتفرّج على ألعابي النارية.

في بداية انطلاق الأضواء، أغمضَ جان عينيه وركّز على هدير المدافع المدوية وأصوات قاذفات النار. أهكذا تُقرع الحرب؟ ثم شاهد الأنوار تعلو وترسم أشكالاً تغطّي السماء بنور من ذهب. عدد لا متناه من النجوم تتلألأ برهة، ثم تعود وتهوي نحو بركة المياه. لم يعد بالإمكان التفريق بين الهواء والماء والنار. هذا اللهو يفوق الأبّهة، فكّر جان، الملك يفوق كل شيء.

نجحت مسرحيته إيفيجيني في باريس. زاد الملك من مهامه بشكل ملحوظ. إضافة إلى التمثال الذي بدأت تظهر ملامحه، شعر جان أن حشية التراب تحت ركبته كانت تغريه بامتلاك قطعة أرض. هو الأكاديمي، أمين خزانة فرنسا، أي ألقاب بقي لينالها؟

دعاه الماركيز الصغير عدّة مرّات إلى صالونه بثقة من عرف الشخصية المهيبة عندما كانت نكرة، ورآها تكبر يوماً بعد يوم وهو ينظر إليها بعين العطف التي نغدقها على النباتات.

– ها أنت راضياً أخيراً، رُفّعت إلى طبقة النبلاء مشرّفاً؟ قال له الماركيز.

أحسّ جان بشيء من التهكم وراء ابتسامته التي تلمّح إلى أنه مهما فعل، مهما اكتسب، لن ينال أبداً شرف النسب في طبقة الملك والماركيز نفسها، أي بعيداً جداً عن الشعب. كان قد سمع أيضاً أن لا شيء يُضحك أصحاب النسب الرفيع مثل تلك المعركة

التي يشاهدونها عند الآخرين، معركة مليئة بالانقلابات المفاجئة والإثباتات والانتقام. لكن جان كان واثق النفس الآن، وأراد أن يُفهم الماركيز أن صالونه قد يفقد مكانته إذا توقّف عن المجيء إليه بشكل نهائي. لم يكن بحاجة إلى القول إنه لا ينوي القيام بذلك بتاتاً، فقد فهمه الماركيز. قال ذلك وهو يتصنّع الانزعاج.

لم يعد جان يجد مُتّسعاً من الوقت كي يؤلّف. تفرّغ لأعماله، لدفع المتآمرين عليه مع نيكولا، ولأعمال الديكور في شققه بتكلفة مادية قليلة. وحدها ماري بين الحين والآخر، كانت تذكّره بأنها تنتظر دورها القادم. كان يكفي أن يقول لها إنه سيأتي.

من العبارة الأولى، ذكرت أنييس الجحيم، السمّ. لم تلفظ اسم ماري قط، لكنها كانت تجرّم الزنى ومعشر أولئك الناس البغيضين الذين لا يستحقون بنظرها تناول القربان المقدّس، حتى على فراش الموت. لم تكن تريد أن يأتي ليراها. على الرغم من أن جان كان معتاداً تقريعها، إلا أنه كان يضطرب كثيراً بحيث كان الاطمئنان الذي كان يشعر به نهاراً، يتلاشى في أحلامه ليلاً. بدأ يسأل نفسه فيمَ إذا كان قد طوّر لديه شيئاً من اعتياد لعنات خالته والشعور الرهيب بالإثم الذي كانت تخلقه لديه.

دنت منه امرأة وقالت له سرّاً إنها تبنّته عندما كان في شهره السادس. هي مثل العذراء تماماً، أمّه بلا دنس. والدليل: كان مريضاً جداً عندما استقبلته، لكن ما إن أصبح في حضنها حتى شفي. قالت له: كان هذا مثل الولادة. كانت تُشبه خالته. من هذه الحكاية الخرافية، لم يظن أنها كانت تهذي. إذا كانت أمه العذراء فهو لا يمكن أن يكون سوى المسيح. بعد بضع ليال عادت المرأة. لم يعد

فيها شيء من العذراء، على العكس تماماً. لو كان بوسع جان أن يلمسها لأحسّ بثخانة جسدها الحيواني الحارّ. قالت له: الرجل في الجانب الآخر من الباب. جاء مرّات عديدة يحدّثني عن حبّه، عن هذا النداء الذي يسمعه في أعمق أعماق روحه، عن هذه المشاركة التي كان عليّ أن أستسلم لها كي أجلّ أمر الله. مرّات عديدة لم تفتح الباب، تضغط يدها على المقبض حتى تبيضّ سلامياتها وتصبح أصابعها صفراء، شفافة، لا تقوى على الضغط كي تفتح الباب. تذكّر جان الرواية الإغريقية بسبب كل هذا الدم المُراق. لم تغب عن ذهنه لأسابيع صورة هذا الشحوب المفاجئ. كان يجهل بأية مُعجزة، كان يلتقي ليلة بعد ليلة هذا القمر ذا الوميض الفوسفوري وكأن الأمر بناء على طلبه. وتشرح له: في الجانب الآخر من الباب، أنفاس الرجل تلهث، تتقطّع، تتضخّم، تعبر الحاجز الخشبي. يفصل بين الاثنين بحر، يُرنّمان نشيد العشق الممنوع.

عندما كان جان يستيقظ، كانت ترميه أوجاع في مفاصل أصابعه، في معصمه، وحتى كتفه، ويبقى متيبّس الذراع طوال النهار، لا حراك فيها. كان يمشي مشية متصلبة، يوقّع فقراته باليد الثانية، يتلقّى أرباحه، ثيابه الجديدة، أصدقاءه كأنه جريح حرب. عندما كانوا يسألونه عن مرضه، كان يكتفي بالقول إنه قام بحركة خاطئة وسوف يكون على ما يرام. لم يقل لأحد إن مسرحيته الجديدة ستحكي عن اللحظة التي ستدير فيها تلك المرأة مقبض الباب أخيراً وتُطلق العنان لرغبتها في الرجل مثل كلب مسعور. هل كان يجدر بها أن تترك الباب مغلقاً؟ هل أحسنت صنعاً بفتحه؟ في الحقيقة، لم يكن يعرف شيئاً عن هذا، كل ما كان يهمّه هو هذا المزيج من الذعر والشفقة، هذه العجينة الثخينة التي يريد أن يعركها

ويستخرج منهـا البـأس، الصراع الذي يشـقّ ويشـطر الكائـن نصفين، الرغبـة التي تسـعى إلى هلاكها. سـتكون مسرحية مأسـاة لا مـكان فيها للحـبّ المتبـادل، أكثر مـرارة من سـابقاتها، مسرحية جامحـة عنيفة، دون غـزل، تسـيل الدمـاء فيهـا مـن كل مكان.

أمـا بطلتـه فسـوف تكـون إغريقيـة. ارتبـاط الإغريقيـات أقـوى بالآلهـة، فضـلاً عـن أن لديهـن مينوتور[1] وفضـاء المتاهة الجنـوني الذي تتيـه فيـه الأرواح وتلتـف عـلى شـياطينها. سـيكون لديها رغبة مشبعة مثـل تلـك البقعـة مـن الضـوء فـوق رخـام ڤيرسـاي الأبيـض، أو مثل حقـول قمـح أوزيـس[2] الشـقراء الصارخـة دون ظـلال. ذاك السـهل المصمـت الوحيـد اللـون، المتلألـئ كأنـه مربـع سـقط مـن السـماء على الأرض. سـوف تتّجـه المسرحية برمّتها إلى شـمس دون أشـعة، شـمس بيضـاء تُحرق آخر نيرانها، أشـدّ سـتين مـرة من النيران الأخـرى، قبل أن تنطفـئ إلى الأبـد. سـوف تكـون إذاً ابنة الشـمس التي سـتذوب تحتها، وتترك رغبتها تسيل مثل شمع يستحيل احتواؤه، يستحيل أن يبرد.

سـوف تتكلّم أكثـر من بقية الشـخصيات، من أصل ألف وسـتمائة بيـت للمأسـاة عـادة، سـوف يعطيها أقلّـه الثلث، وربـما أكثر، يقسّـمها مـا بـين اعترافـات، واستنزال لعنـات توجّهـا إلى نفسـها، وأمنيـات بالمـوت. بـدور كهـذا، كيف يمكـن لـماري أن تهجره؟ سـوف يحتفظ بها في جـواره ويمنعهـا مـن أن تمـرح مـع أصحابهـا الفاسـقين، سيقدّم لها مـا تحلـم به كل النسـاء، يُشـبعها بالمجد والإجلال. سـوف يعطيهـا أقلّه خمسـمائة بيـت. راح يتخيّلهـا منذ الآن مثـل حيوان متعطّـش تلتهم تلك

---

(١) مينوتـور: كائـن أسـطوري مـن الميتولوجيـا الإغريقيـة جـزؤه العلوي ثور والسـفلي إنسـان. سـجنه الملـك مينـوس وسـط متاهـة.

(٢) أوزيس Uzes: مقاطعة في جنوب فرنسا.

الأبيات بشراهة، تنكبّ عليها، تستأنف الإلقاء بعد تعليماته، تمشي مختالة أمام موهبته وتكون مخلوقته من دون علمها. ذلك لأن جان كان يرى ويفهم، كان يكفي أن يشيح بنظره عنها أثناء التدريبات حتى تشعر ماري بالإهمال والهجر. كانت تنهار فجأة وبسرعة بحيث كانت تُجبر على الجلوس قبل أن تقفز على ساقيها عندما يعود ويدنو منها ثانية. لم تكن تعلم ذلك بعد، لكنه سوف يعطيها ذلك الكرسي كي تجلس. سيكون ذلك الكرسي الديكور الوحيد الذي سيضعه في مسرحيته الجديدة. هذه المرة، سوف يصنع منها وحشاً يدخل خشبة المسرح صارخاً: **قلت ما لا يجدر سماعه قط.** ما ستقوله فيما بعد، لا يعرفه الآن، لكنه دوّن هذا الاعتراف الصارخ. حتى خالته من قلب واديها سوف تسمعه وترتعد مقهورة، وتمرض من هذا الإفراط في الهرطقة الذي سيستدعي هامون إلى ملازمتها. في برد صومعتها الخافتة الإضاءة، سوف يتساءلان معاً كيف وصل جان إلى هذا الحد، وسوف يغرقان في الصلوات.

وجب عليه اختيار المكان والزمان والشخصيات، وكذلك العمل بسريّة. كان الكل يراقبه مستعدّاً لينقضّ على القصة نفسها التي يختارها. أمست مسرحياته منذ ذلك الحين أسراراً عسكرية. عندما كانوا يبدؤون باستفساره، كان يضع إصبعه على شفتيه ويبتسم. وتسأله النساء إذا كان فيها أقلّه قصة حب، وكان يجيب: نعم ولكن بطريقة غير عادية.

سوف تسفع الشمس يده. وسوف تكون «فيدر» ابنة مينوس وباسيفايه. ابنة أوريبيد وسينيك. بعد أن اختار ما اختار، كان جان يفاجأ بنفسه مراراً ينظر إلى ماري متسائلاً إذا كانت ستتمكّن من

تمثيل هيجان كهذا أشبه بالجنون. لم يكن قد حدّثها عن شيء بعد. عندما كانت تلتقي نظراتهما كانت تستغرب، لكنه كان يصمت. يقول له نيكولا متعجباً:

– امرأة مرّة أخرى!

– ولكن لم يكن هناك امرأة منذ زمن طويل! يعترض جان.

– هذا صحيح، ولكن هذا أقوى منك، أليس كذلك؟

– سوف تكون هذه أعظم من كل الأخريات، سوف ترى.

شاد جدارين، جدارين مثل سورين يحبسان، يأسران، وعندما ينهاران، تنطلق طوفانات جارفة، رغبات عنيفة جداً تظهر في الاعتراف. سوف يضع مقابل بياض الزبد الرغوي بياض الشمس الحارقة للنفوس والأجساد.

بسط جان مخططه الورقي على الأرض مباشرة إذ لم تعد طاولته تتّسع كفاية. راح يدور من حوله، يركع أمامه، حتى بات لا يشعر بلحم ركبتيه فوق البلاط البارد. ردّاً على المضايقات التي تزعجه، كان يأمر دون استثناء: عودوا لاحقاً.

سوف يبني الحدث كلّه على اعترافين مُثقلين: الأول لصديقتها موضع سرّها والثاني للمحبوب. نعم، اعتراف بعد الآخر، على التعاقب تقريباً. في الموضع نفسه من الفصل الأول والثاني تقريباً: باستثناء اعترافات هيبوليت، في تناظر متكامل. هكذا سوف يوزّع الإثم ويجعله أقلّ وطأة. فضلاً عن ذلك، سوف يكون عنوان مسرحيته: «فيدر وهيبوليت» كي يقفز هذا التناظر إلى الأنظار ولا يلومونه بعد الآن لأنه لا يتكلم إلا عن النساء. لا يريد من بطلته «فيدر» أن تكون صنماً يُحرق، سوف تحتفظ ببراءتها، لن تكون آثمة

بشكل كليّ، بل بريئة ومذنبة، طيبة وشريرة في الوقت نفسه. سوف تمثّل البشرية جمعاء، الممزّقة، المدفونة تحت سلاسل الأجيال، يعتذر منها كل من جاء قبلها، أولئك الذين يرتكبون الشر منذ زمن طويل، منذ الأزل، منذ أن كان العالم عالماً، ڤينوس بلحمها وشحمها. مع كرسي وحيد لبداية المسرحية. سوف يوعز إلى المسؤول عن الديكور أن يضع كرسياً ولا شيء آخر.

ذات مساء وضع في صحن ماري ورقة فيها أول خطاب في دورها. فتحتها بيد مُرتعشة، بدأت تقرأ، ابتهجت، قالت إنها تريد التالي بسرعة. لكن عندما أعطاها ما يلي خطابها تغيّر مزاجها.

- نحتاج إلى تواطؤ كل آلهة الإغريق لتفسير غضب كهذا. أنا أعرف الحب، قالت، أحبّك كما أحببت رجال آخرين...

- وكما ستحبّين أيضاً.

- لم أرغب قط في الموت بسبب الحب.

- لماذا إذاً كتب الأقدمون الكثير عن هذا الداء؟ لماذا أتعب أكبر شعراء العالم أنفسهم في حكاية هذه القصّة؟

- لأنها تصنع أشعاراً جميلة.

- تستقي القصائد الجميلة من نبع حيّ.

- أنت لا تؤمن بما تقول. أنت نفسك. سوف تذهب إلى أوريبيد وتأخذ بيتاً من هنا، ثم إلى سينيك وتأخذ بيتاً من هناك. إليك مثلاً: «أنت الذي سمّيته»، لقد نسختها كلمة كلمة، أليس كذلك؟

- نعم.

- إذاً، لا تحدّثني عن الينبوع الحي. بطلتك فيدر تثير الشفقة. هوى العشق ليس قدراً محتوماً. يمكن للمرء أن يقرر الخروج منه.

- كيف؟
- عندما نقرر ذلك.

كان جان يعرف عنها لسانها اللاذع وفكرها الثاقب، لكنه لم يكن يحتمل هذه النبرة القاطعة التي توزّع بها أحكامها، وطريقتها تلك بصوغ كل شيء على مثالها. لم يشعر بالقلق تجاه فيدر ولم يتوتّر، تركها تتكلّم. حتى مع كلّ تحفّظاتها، سوف تمثّلها ماري على أكمل وجه. بسبب هذه التحفّظات وهذا الإحساس بالوقائع الذي كان يجعلها تتأمل بالدرجة الأولى أهمية النجاح.

أذاع جان سرّه. في الوقت الحالي، عرض أجزاء كاملة من مسرحيته على نيكولا وعلى ناشره، وتوسّل إليهما ألّا يبديا أي تساهل وأن ينبّهاه على كل الأخطاء التي قد يكون ارتكبها تجاه اللغة. كرّر «تجاه» اللغة، عمداً هذه المرّة، كان يطمح إلى نصٍ لا عيب فيه. كان مُتحمّساً، سوف توصله هذه المسرحية إلى أبعد ما أوصلته كل مسرحياته السابقة، يجهل إلى أين ولكن أبعد، كان في طور تأسيس عمل مهيب قادر على احتواء كل صروح أثينا وروما، أوريبيد بكامله وكذلك ڤيرجيل. أعظم صرح من أجل أعظم ملك على وجه الأرض.

- ربما كان يجدر بك أن تختار شيئاً آخر غير زانية المحارم المجنونة هذه؟ اقترح نيكولا.
- لا، هل تذكر أرسطو حين يقول: في قلب التحالفات الأقوى تكون الصراعات أشدّ. عن أي شيء يمكن أن أكتب؟

لم يولِ أحد أهميّة لعذاب بطلته. وأحياناً دون أن يشعر، كان يستغرب أنه هو نفسه يشاركهم في الرأي. «يمكن للمرء أن يقرر

الخروج منه»، يردّد بينه وبين نفسه وهو يسمع التغيير الجميل في نبرات صوت ماري. لم تقرّر أيّ من بطلاته أن تخرج منه قط. عندما كان يتلمّس ويمشي حول تلك الوجوه التي تُلهمه، عندما كان ينبش قصص الأقدمين، لم يكن يعثر على أثر لهذا الاحتمال بتاتاً. تتراجع بطلاته، يجحدن علناً، ولكن ولا واحدة منهن تُقرّر. سوف ينكبّ على هذه القضية فيما بعد. قُدّت ماري من خشب غريب، وعد نفسه أن يقطعه ذات يوم، تلك المادة الجافّة التي لا ترشح فيها القرارات أبداً إلى اللحم، تزول عندها الأزمات بشكل تلقائي بمرور الزمن، لا يمكن لها أن ترغب في الشيء وضدّه. ليس أمامه سوى أن يراها تعيش مع زوجها من جهة ومعه من جهة أخرى، دون أن يتعذّب.

ما إن انتهى من كتابة النصّ حتى اختار ممثّليه. إذا طلب ممثلين صغار السن حصل على ممثلين صغار. لم يعد يريد موسيقا جاهزة، ألّف الموسيقا مثلما ألّف أبياته، ما بين النثر والقصائد الغنائية، على هوى الموسيقا التي كان يسمعها في داخله والقادر على سماعها وحده. لم يكن يحتمل التناقض أو الشكوى. كل شيء حسب طلبه: الديكور، الأضواء، أقلّ تغيير. أراد مُصمّم الديكور أن يضع أريكة على خشبة المسرح، إذ لا يمكن لفيدر أن تكتفي بكرسي بسيط. أصرّ جان، صرخ: كرسي ولا شيء آخر!

مع نجاحه ازدادت الافتراءات. «هذا ليس حبّاً، أنت لم تعوّدنا ذلك»، قالت السيّدات شاكيات. سبّه الرجال: «أنت تُسمّم النفوس». أعقبت مسرحيته مسرحية كينيو التي كانت تعجّ بالأبيات المخلخلة. الشخصيات فيها حمقاء غير مقتدرة، أضاف نيكولا، بينما في كل مرة تموت بطلتك فيدر، النفس البشرية كلّها تحنو.

لم يلحظ أحد أنه حَبَكَ الإثم والبراءة معاً كي يكون لبطلته وهي في قمّة الخطيئة فرصة للخلاص. هذا الشعور الذي لديه بأنه يتسلّق جبلاً دافعاً التضاد حتى النهاية، عندما جعل من بطلته فيدر أشدّ الساذجين مكراً، كان الوحيد الذي يدركه ويشعر به في ذاك الانهيار، هذا التعب الذي يكفّنه. كانوا يتشدّقون بأبياته في كل مكان، لكنهم كانوا يأخذون عليه ميله إلى الرذيلة والفجور والرياء.

هذه المرة. فاض بي الكيل، قال لنيكولا.

٢٦

بـدا له المكان أقـل اتسـاعاً ممـا كان يتخيّلـه، حتى الأشـجار بدت أقـل ارتفاعـاً، والمبـاني أكثـر قتامـة، صـوت الأجـراس أكثر خفوتـاً مما يتذكـره. لم يعـد هنـاك الكثير مـن الأولاد في الأروقة، إنـما أطياف ناحلة محنيّـة مـن كثـرة الندامـة والرطوبـة. بعـد أن رأف الملك بضع سـنوات، يُقـال: إن كراهيتـه للمـكان تجدّدت.

كانـت خالتـه هنـاك في البهـو، كأنـه تركهـا بالأمـس. عـرض مسرحيتـه الأخـيرة، تجـاوز الحـدود، فتـح لـه أبـواب الجحيـم عـلى اتّسـاعها. الـكل لاحـظ أنـه رفـع السـقف أكثـر، أضاف السـمّ بشـكل أقـوى، بغـضّ النظـر عـن أن المـسرح كافر، «لكن هـذا كنـت تعرفه من قبـل. معلّمـوك بانتظـارك». أوضحـت أنبيـس.

أصغـى إليهـا دون اعـتراض، وفكّـر أن السـمّ هـو الاسـم الآخـر للحقيقـة. لاحـظ جلدهـا الـذي جـفّ، التجاعيـد التي غـزت وجهها حتـى وصلـت إلى تينـك الوجنتـين الخشـنتين المجدورتين حـول ذقنها. مـع ذلـك، كان يرغب في وضـع يده عليهـا. كان يراها كـما كانت عندما كان يختلـط شـعرهما وهمـا صغيران. عـلى الرغم مـن السـنين والتوبيخ، حنانـه عليهـا لم يتغيّر قيـد أنملة.

كانـت اللوحـات نفسـها مُعلّقـة عـلى جدران الـرواق، لكـن جان لمـح عـلى الفـور صـورة الملـك التـي لم تكـن موجـودة في المـاضي. كان

معلّموه قد جلسوا على كراسٍ صفّت على شكل دائرة ودعوه إلى الجلوس. راعى أن يكون لباسه بسيطاً على الرغم من المخمل والشرائط والأقمشة الدافئة الباهظة التي تتناقض مع ملابسهم البالية. لم يعد نظر جان يألف النحول وهذه العظام المرئية والبارزة كلها في الوجنات وفي السلاميات.

أعفوه من الكلام الزائد ولم يُظهروا عاطفتهم، لم يدعُهُ أحد «يا بنيّ»، لا أحد مد إليه يده. وحدها نظرة هامون كانت تحمل له شيئاً من الرأفة عندما قال له إنه يُضاعف صلواته من أجل روحه. أعلن آرنو الكبير أنه سينعزل عمّا قريب، لانسلو الذي جاء خصوصاً من بروتانيّ لرؤيته طلب منه أن يتوقّف. لم يكن أحد منهم قادراً على أن يتخيّل لحظة واحدة أن حياته تغيّرت، وأكثر من هذا أيضاً، أعمق أفكاره. لم يكن أحد يجرؤ على التصديق أن تمرّد الصغير جان قد تطوّر إلى هذا الحد وصار يتنكر لما كان يميّزه من الآخرين. لا أحد، حتى بعد عشر مسرحيات. ولهذا السبب، كانت الطاقة التي يصرفها في مكايده، في ديباجاته، في حبكاته، تذوب مثل الثلج تحت أنظارهم الصارمة ومفرداتهم، وهذه الطريقة التي تتداخل فيها عباراتهم بصيغ إغريقية. في كل مكان من المملكة، كانوا يرتابون بمن يتكلّم الإغريقية إلا هنا.

طأطأ جان رأسه.

تجعّد جلد هامون فوق عظام أصابعه الطويلة ومعصميه النحيلين جداً، هو الذي كانت يداه في الماضي كبيرتين وقويّتين. اضمحلت كل مادة كانت تمنحه شكلاً بشرياً. لن يبقى منها عمّا قريب أثر، وبنفخة واحدة سوف تختفي. لم يعد جان يشعر بأي ضغينة حياله، على العكس، تدفّقت عاطفته مثلما يتدفّق الدم داخل

رأس مقلوب. كان يُصغي دون غرور، لا يبرّر لنفسه، لا يرافع. إنه هنا وهذا أهم شيء. هنا.

«لا يمكن الاستمرار في العيش بهذه الطريقة» كانوا يردّدون، وعلى الرغم من كلامهم البارد الشبيه بالطِلبة[1]، أحسّ جان بأنه مرحّب به، مميّز، وسط دائرة من الجمرات كان يستطيب منها الحرارة التي تخترقه ويحتملها بسرور. من كل هذه الأحاسيس القوية، السرور حاضر وسط الألم.

بعد بضعة أيام على عودته، هجر ماري. لن يُرى بعد ذلك أبداً بين ذراعي ممثّلة. كانت هذه جزيته. عادت ماري إلى زوجها، وإلى عشّاقها الآخرين وهي تقول لجان إن معلّميه المتعصّبين لا يزال لهم عليه حقّ، لكنها ستظلّ دائماً ممثّلته «إذا دعت الحاجة». قالت تلك الكلمات الأخيرة ببرود لا يُصدّق.

- لا أرى حقيقة أي دور يمكنك أن تبتكر بعد فيدر.

أراد جان أن يعتبر هذه الملاحظة استياء.

في الأيام الأولى، صحيح أنه كان يفتقد رائحتها وصوتها وحضورها، إلا أنه كان يصارع الحيوان المثير للشفقة في داخله، كما حرّك كل الروافع التي لديه كي يرفع أعلى السدود في وجه الكآبة. من بين هذه الروافع، الملك، حب الملك، سماء مُشرقة إلى جانب الشمس. كان يردّد بلا انقطاع: أنا رجل يمضي حياته في التفكير في الملك.

- أنت تذكّرني بذاك الهرطوقي الهولندي، قال له نيكولا. ذاك

(١) الطِلبة: في القداس المسيحي، صلاة جماعية مؤلفة من سلسلة من الدعوات إلى الله.

الذي أولعت به كونديه وكانت لديه الجرأة ليكتب «dues sive natura»، «الله أو الطبيعة».

- كيف تجرؤ؟ ثار غضب جان وبدأ يرمي بعض الكتب عبر الغرفة.

- «الله أو الملك» أردف نيكولا. لبعض المرادفات فنّ تقليص الكلمات إلى لا شيء، أليس كذلك؟

ردّاً على هذا التهكّم الذي لم يؤثر فيه، أجاب بعد بضعة أيام عن الإشاعة الجديدة التي كانت تسري بخصوصهما.

- يستحق أعظم ملك في العالم أن يكرّس المرء نفسه له تماماً. يجدر أن يكون كل شيء جاهزاً لدى عودة الملك من حملته إلى هولندا.

اقترب نيكولا منزعجاً.

- يريد أن يكون أول من يستخدم الشعراء.
- يريد بشكل خاص أن يُخضعنا، أن يلجم البعبع من خلالنا.
- الملك غيور بقدر الإله الخفيّ الذي يكرهه.
- يريد أن ينشر لغته في بقية العالم.
- أليس الملك شاعراً في الحقيقة؟
- سوف نكون من المغضوب عليهم في يوم من الأيام.

ظلّ جان ونيكولا يتأمّلان طول الليل الأسباب التي تجعل الملك يدفع لهما مرتّبات كي يكتبا تاريخه. كانا يحلّلان الفرضيات بذكاء وحذاقة فكر، بصفاقة تصل إلى حد الوقاحة. أحياناً، كانا يواصلان دون أن يستمع أحدهما إلى الآخر، مرات عديدة كان يزداد ابتهاجهما وتفيض ضحكاتهما بين كلامهما موسومة بالثمالة التي تمنحها ظواهر الأمور، هناك حيث يبلغ الغرور أقصاه، عندما يستغلّ ويستمتع.

- هل ستعنى بنا؟ سأل جان.

- هذا واجبي كأخ كبير، ردّ نيكولا.
- في هذه الحالة، يجب عليّ أن أفكّر في الزواج.

عرّفه ابن عمّه إلى فتاة في الخامسة والعشرين من عمرها، مهرها كبير ومتعلّمة تعليماً جيّداً. لم تقرأ ولم ترَ مسرحياته قط، لا تعرف عنها شيئاً إلّا من خلال أحاديث عابرة، ولكن هذا بالضبط ما كان يريده جان: أن يكونا كأنهما جديدان أحدهما على الآخر ودون ماضٍ. راقت الفتاة جان دون أن يطرح على نفسه مسألة الحب، ثم تزوّجها غداة عودة الملك. عشيّة الزواج، اهتمّ بنزع صورة ماري الكاملة وفكّر في أخذها إليها، لكنه في النهاية وضعها في زاوية أرشيفه، ووجْهُها نحو الحائط.

في أسفل عقد زواجه مع كاترين، سُطّرت أكثر التواقيع بريقاً في المملكة. سُرّ جان عندما فكّر أن بإمكان المرء أن يكون لديه عدة حيوات وهو مدرك تمام الإدراك أن المنعطفات قد تدفع أحياناً إلى الوراء.

عرض الملك مسرحيته «فيدر وإيبوليت» في القصر الملكي. تلقّى جان في اليوم التالي رسالة مديح، وطُلب منه أمدوحة رسمية يقدّمها كشرط أوليّ لامتحان المتسابقين. ستأتي عربة لنقلهم حتى فونتينبلو لتقديم تجاربهم.

على امتداد أيام، لا هو ولا نيكولا، لم يلمسا طعاماً ولا شراباً. كان نيكولا يبدأ ثم يحين دور جان، وهكذا دواليك دون أن يرتجف صوتهما. تدرّبا كثيراً حتى صارت قراءاتهما تتناوب دون أدنى عقبة. كانت رائحة خشب العربة الرطب واخزة بحيث زادت من حدّة انتباههما. سمعهما الملك دون أي انفعال، صفّق ثلاث مرّات ليس أكثر. نظر أحدهما إلى الآخر دون أن يبتسما.

بعد أن غادرا العربة، مشيا بصمت. كانا يسحقان تحت نعالهما، في كل خطوة من خطواتهما، غطاء الطحالب السميك، ومع ذلك، أحسّا كأنهما كانا يسيران على ارتفاع أمتار فوق الأرض. لم يجرؤا على الكلام. ها قد ترك جان توّاً أجزاء كاملة من حياته داخل العربة الملكية. على كل حال، ألم تكن حياته سلسلة من السجون تفصل فيما بينها فسحات في الهواء الطلق، مثله مثل أشجار البرتقال في أصصها التي كانوا يُدخلونها ويُخرجونها حسب الفصول؟ كانت ذكرى تلك الليلة تعاوده وتغمره. كانت هذه البداية، كانت هذه حياتي الأخرى، لم أكن سوى كاتب بين الكتّاب - فكّر - وكنت أنتظر. لا شيء يضاهي هذا الإحساس الشبيه بالعسل الذي يسري داخل جوفه، هذا الانتظار الذي أضحى الآن ملآن. حتى وصل به الحد إلى التساؤل مرات عدة عمّ إذا كان يعنى بذاك الموقف المزدوج، وتلك التنازعات بين الخير والشرّ لمتعة التلذّذ بعدّة حيوات في واحدة، أن يكون هنا ويكون هناك في الوقت نفسه.

أخيراً تبادل الصديقان النظرات. كانت تجري الدموع من عيونهما. «فوق الجميع». العمل الملكي لا نهاية له، لا تنضب فيه لا الأحداث ولا تقديم الطلبات. كل سنة، كل شهر، كل يوم، سوف يقدّم لنا معجزات جديدة، كانا يُردّدان، ولكن هل سننجح في قولها؟

بعد بضعة أيام، أصدر الملك أمراً يمنح بموجبه كلاً منهما ستة آلاف ليرة لقاء الأعمال المختلفة التي سيقومان بها بناء على أوامره. وأعلن على الفور أنه سيستقر في ڤيرساي بشكل نهائي. لم يعد يرغب في التنقّلات والحملات، فكّر جان، يحتاج مجد أعماله إلى وحدة قياس، كالمسرحية.

فيما كانت قدما جان في الوحل، كان يلمح من خلال زفير

الأحصنة الحار، مطر الشمال الجليدي يصفع الوجوه والأجساد. ليبتهج خصومه، لتصلصل آلاته في كل مسارح باريس، لم يعد يعبأ بها. ما المسرح مقارنة بهذه الجيوش من الأجساد الحقيقية الملوّثة؟ كان يستيقظ كل صباح وهو يقول لنفسه: أنا في خدمة الملك، أنا أشارك في معاركه وحروبه، وكل ما تبقى لم يعد يهمّ.

- لن تكتب شيئاً عن هذا، أليس كذلك؟ كانوا يقولون له عندما كانوا يباغتونه ينظر عن كثب إلى أشلاء الأجساد والملابس.
- بالتأكيد لا، كان يُجيب.

إذا كانت الكلمات لا تأتي بسهولة تحت ريشته، فسوف ينتظرها لتنساب على الورقة ويخطّ الارتعاشات والألوان، كل تلك المستجدّات في حياة صيّاد الظلال الذي غداه أخيراً بعد أن تمّ قبوله في عالم الأحياء. هو الذي لم يكن يعرف عن المعارك سوى وصفها المؤثّر، ها هو يشاهدها من الأمام ومن الداخل، ورائحة الروث والدم في منخريه باستمرار.

كي يُنجز مهمّته الجديدة، فعل ما علّموه إياه. أعاد قراءة تاسيت وانكبّ على جغرافيا الأراضي، على الخرائط والمقالات عن الاستراتيجية العسكرية. دوّن عدد الأنهار التي تمّ عبورها، ارتفاع التضاريس، المسافات المقطوعة، الوقت الذي يستغرقه الملك من نقطة إلى أخرى. أولئك الذين سخروا من وظيفته الجديدة كانوا يجهلون إلى أي حدّ يمكنه أن يتحدّى ما يعرفه، وأن يغيّر نهجه ويترك الشعر في سبيل كل حقول المعرفة التي كانت تنفتح أمامه. كان يشعر بهذه الرياح السخيّة الرحبة التي كانت تحمله من الأسفل وتوصله إلى تخوم لم يطف فيها بعد، تخوم كان يخشى احتمال وجودها. عندما

كانت تجري محادثة بشأنه بين أهل الحاشية ويصف أحدهم مُهمّته بهذه العبارات: «لن يحتاج إلى قصة خرافية أو خيالية كي يضع الملك فوق الآخرين، سوف يحتاج فقط إلى أسلوب صادق، نقيّ وواضح»، كان جان يعدَ نفسه أنه سيكون ذلك الشخص. كان يريد أن يعرف كتابة كل شيء، أن يكون الدليل الحيّ على أنه يوجد فن كتابة شامل. وهل هناك ما هو أفضل من ذلك لهذا الغرض، أن يكرّس نفسه لمواضيع لا نهاية لها، لا تنضب: الملك وإنجازاته الخارقة، حياته التي لا يمكن وصفها؟

بسبب صحّة نيكولا التي كانت تضعف يوماً بعد يوم، كان جان هو الذي يرافق الملك في حملاته مُعظم الأوقات. لكن السخريات كانت تنصبّ دائماً على الثنائي الذي كانا يمثّلانه. شاعت صور ورسومات تُظهرهما معاً يقعان عن جواديهما، مُغمياً عليهما من رؤية أول قطرة دم، يصرخان مذعورَين داخل خندق. مع ذلك، باستثناء حملة شاهد فيها جان الدماء تجري خلال قرابة الثمانية أيام، دماء بنّية اللون وكثيفة تمتزج بالوحل، لم يكن يعرف فيما إذا كانت تنبعث من الأجساد أو من أعماق الأرض ما أجبره على الاستفسار من أطبّاء الملك عن عمق الجروح، ومخاطر الغرغرينا حتى انتهره أحدهم قائلاً: «لم يسبق لأي مؤرّخ قبلك أن لفتت أنظاره أشياء كهذه». ألم يكن دوره تحويل الوحل إلى ذهب وليس العكس؟ لم تكن الهجمات التي شنّتها جيوش الملك سوى دخول مظفّر إلى المدن وزيارات لساحات مُحصّنة. لم يكن ذلك ليقلل من إعجاب جان. كان يشاهد تلك التحرّكات وكأنها رقصات على نطاق واسع يقودها الملك بحماسة كبيرة، كمن يسِمَ في كل خطوة من خطواته الأحرف الأولى لاسمه.. كان يجب أن يرى كل حركة، كل كلمة، كل نظرة تتحوّل تحت ناظرَيه إلى احتفال،

إلى رمز. كان الملك يدخل، يدوس، يلمس، يمسّ، ويترك في كل مرّة شيئاً من جوهره الوضّاء اللامتناهي مثلما يوزّع الرجل القديس بركته. على الرغم من كل التدابير التي كان ذهنه قادراً عليها، إلا أن جان لم ينكر أنه رأى، وربما لأنه كان مفتوناً أكثر من الآخرين أيضاً، تلألؤ هذا الغبار البرّاق بكل أبّهة. مثلما حدث في ذاك اليوم عندما تقدّم مع الحاشية باتجاه زوجة الملك القادمة من باڤيير.

عند حدود المملكة، مدفوعاً بحماسة المعمودية انفصل الملك عن الصفوف ومشى وحيداً. مدّ يده نحوها، أحسّ جان في هذا اللقاء بنبض التاريخ الذي يحدث هنا أمام عينيه، قدر كل الأمة، تحت عينيه المليئتين بالدموع والدهشة، لحظة بسيطة تتحوّل إلى حدث تاريخي. وحده نيكولا شاطره انفعاله، وحده نيكولا فهم عندما روى له هذه المعجزة. على كل حال، هذا جلّ ما كان يتمناه: أن يكون هناك شخص واحد يفهمه، كي لا يُسكره هذا الإعجاب، كي يتمكّن من أن يحكي عنه، يسطره في رسائل، يبوح به كما يبوح بسرّ.

لم يكن يحكي لزوجته أي حكاية. كان يعود إلى منزله، يصغي بانتباه إلى ما يقول له أهل البيت، يسأل عن أخبارهم، ويحتفظ في داخله بكل تحفظ وغيرة بكل الأحداث الغريبة التي شهدها. إذ إن حياته كانت منذ الآن مشطورة شطرين بشكل جليّ: هناك في أحد جوانبها تلك الملحمة الكبرى، وفي الجانب الآخر ذاك البنيان الهادئ. لا حاجة له أن يختار ما بين الاثنين. بوسعه أن ينال كل شيء في الوقت نفسه إذا ما رسّخ يوماً بعد يوم الأسوار ما بين عالَميه. عندما كان يعود بعد إقامة طويلة في البلاط، كي يستلذّ هذا الشعور بالرضى، كان جان يحبّ أن يجامع كاترين بعنف، وهذا ما كان يوقعها في كل مرّة في الحيرة، بل يصدمها، لكن طاعتها الورعة فقط كانت تمنعها

من الحديث عن ذلك. كان جان في ذاك الانقضاض الخالي من الحب يكشف عن خلفيته ومكتسباته وحقه الكامل بالذرية: كان يصنع أولاداً مثلما يكتب مسرحياته. وُلد ابنه الأول، لم يسمّه «لويس»، منحه اسم «جان بابتيست»، اسم برجوازي وبسيط.

منذ وصول زوجة الملك، كان ذاك الأخير يُعيد عرض مسرحيات جان، وكان على جان أن يحضرها مكرهاً. كان يفضّل أن يعفى منها، لكن حريّته الوحيدة هي ألّا يطأ بعد الآن الصالونات الباريسية وألّا يسمع تعليقات الزوجة الشابة التي لا تُحصى. كان يشاهد ويسمع مسرحياته كمن يتذكّر محبوباً ببرود. حتى ذاك اليوم الذي دعت فيه الحاشية ماري كي تُمثّل دور بيرينيس.

أثناء الفصل الثاني، اضطرب جان وغادر الصالة بسرعة، فركض نيكولا في إثره.

- الحزن حمّى عنيدة لها مُضاعفاتها، قال نيكولا.
- أي حزن؟ قال جان. أنا رجل سعيد.

لكن شعوره بالغثيان ازداد فجأة مثلما كان يحدث له عندما كان صغيراً. تحت أنظار صديقه المتعاطفة، تقيّأ مادة خليطة لا يمكن معرفة كنهها، وهو يأمل أن يأتي اليوم الذي سيستطيع فيه أن يسمع ويحتمل كل شيء. عندما استعاد وعيه، لاح له أنه يسمع طنيناً في صدغيه، ضوضاء بعيدة وخافتة، ضوضاء بطلاته كلّهن مُجتمعات. يوحّدهن البكاء والغضب. إرميون، أغريبين، بيرينيس، روكسان، مونيم، فيدر... عندما شاهد ماري تُعيد تجسيد واحدة منهن فقط، عُدن كلّهن وظهرن. كل أولئك النساء اللواتي ابتدعهن كي يتناوبن مع نشيد ديدون في تلك الشكوى الكونية المنبوذة، تجمّعن فجأة

أمامـه، أحطنه، يتوسـلن إليـه، مثل شـقيقات يتيهات، عشـيقات هُجرن مرّتين.

- لا نترك من أحببناه دون عقاب أبداً، قال نيكولا.

بعـد بضعة أشـهر حصل جان عـلى أول أملاكـه. كان يجول فيه، ينظـر ويحـسّ بسـعادة جديـدة، سـعادة رؤيـة عائلتـه تكـبر في مـكان خـاص، راسـخ أخـيراً، محميّ، تديـره أمّ ليس لديهـا سـوى حقيقة واحـدة لتنقلهـا. لم يعـد أمـر منزلـه متعلقـاً بعـد الآن لا بالناشريـن ولا بأشـعاره الإسـكندرانية. كان يقـرض المـال، يـوزّع الأعـمال، يفـرّق الصدقـات، أصبـح زعيـم عشـيرة. كان مُبتهجـاً بذلـك، وأسرّ لنيكـولا قائـلاً إنـه نجـح أخـيراً بعـد كل تلك السـنوات في أن يجمـع بـين الرفعـة والأمـان. صحّح لـه نيكولا: هـل تقصـد القول، بـين الأبّهـة والإقطـاع. أيّـاً كانـت الكلـمات التـي يسـتخدمانها، كان ذهناهمـا يريـان في الوقـت نفسـه التناظـر في الازدهـار: الطمـوح والانتشـار، الوصوليـة والعيـش المريح. ألم تكـن حياته بقـوّة صليب يقـف هـو في وسـطه بتـوازن كامـل؟ لو لم يُعد ذكر اسـمه في قصص قديمـة: أبنـاء مـن صلبـه، قصـص تسـميم وشـعوذة. اتُّهم بأنـه كان السـبب في مـوت دوبـارك التـي أحبّهـا حبـاً جمّـاً وأن لديـه منهـا بنتـاً وقـد تـمّ التسـتّر عـلى الفضيحـة. بقـي أيامـاً لم يعـد فيهـا قـادراً على التنفّـس، يختنـق مـن كثـرة الإشـاعات والتلفيقـات، وأكثـر من ذلك أيضـاً، مـن مخاطـر العقـاب. تلـك الحماسـة الرعنـاء التـي لم يكـفّ عـن التشـدّق بهـا، أصبـح موضـع مذمّـة في البـلاد ويسـتحقّ أقـصى العقوبـات. بـدأ يكـره بطلاتـه، يتـبرأ منهـن في كل مـكان. يعـدّد أسـماءهن ويحكـم عليهـن أمـام نيكـولا الـذي كان يتعجّـب مـن

الواقعية التي اتخذتها فجأة، من أطيافهن التي بدأت تتحرّك تحت أنظارهما.

- هل نسيت أنك أنت من اختلقتهن جميعاً؟

- بالضبط، أستشيط غضباً على داخلي الذي أفرزهن مثل...

لكن الملك أنشأ محكمة خاصّة سمّاها «محكمة النار»[١]. تمّت تبرئته بحكم القوانين والعدالة، لكن هذه النار كادت تحرق معها كل شيء لدى عبورها. في المساء نفسه الذي صدر فيه الحكم، حين كان يجلس إلى المائدة مع عائلته وهم يتلون صلاة الطعام، خفض جبينه نحو قلبه، استجمع كل قواه ونذر نذراً بتحريم العشق.

دقّت الأجراس، دوّت المدافع، أحياناً معاً وأحياناً على التوالي. ثلاثون ألف رجل اجتاحوا جسد المدينة منذ الصيف، يختبئون في كل مكان، يستعجلون، على أهبة حرب تُهدّد دون أن تُعلن. لم يبقَ أمام الملك سوى شرف وضع يده على رقبتها، يديرها حول محورها، مثلما تُعاد فقرة إلى موضعها، بحركة سريعة وحاسمة. صكّ ميدالية للاحتفال بالنصر نُقش عليها: **بلاد الغال مُغلقة بوجه الجرمانيين.** بعد أن غضّ النظر عن ستراسبورغ وريناناين[٢] وضع فوزج[٣] نصب عينيه. كان يكفي أن يدخل الكاتدرائية كي تصبح المدينة ملكه.

لم يكتب جان عن الحصار بتفاصيله، تغاضى عن الأعمال الوحشية واكتفى بالكلام عن وحدة الأحداث المتكاملة التي تقودها يد واحدة، معاً دون أدنى خرق. وجب عليه إبراز هذه اللحظة الفريدة، استيعاب الصور والوجوه التي كانت تأتيه بشكل طبيعي

---

(١) محكمة النار chambre ardent: محكمة تحكم المسمّمين بالإعدام حرقاً.

(٢) ريناناين: منطقة في غرب ألمانيا، يعود اسمها لنهر الراين الذي يعبرها.

(٣) فوج: محافظة فرنسية في اللورين.

ويتركها تعبر أولاً كي يقوم فيما بعد بتقليمها، استخراجها، تقليص غليان الكلمات ولا يحتفظ منها سوى بالتواريخ والساعات بترتيب التقويم الصارم. سوف يكون النصر أقوى إن جاء في خاتمة سلسلة أحداث منطقية، متعاقبة، فكّر فيها ملياً ونسّقها بإحكام.

عقد نيكولا حاجبيه أمام صفحات جان. علّق على أسلوبه الجاف، وقسوته الشديدة، لكن جان ردّ بهجوم مُعاكس أظهر فيه عظمة أسلوب منتظم وشامل، واضح وقويم.

- بالتأكيد، قال نيكولا مُقتنعاً، بالتأكيد.
- بقي عليّ أن أصف شيئاً أخيراً.

اجتاز جان الغرفة، أخذ منه صفحاته وقرأ بصوت عالٍ ما كان قد بدأ يدوّن:

طلب جلالته من السيد ڤوبان أن يضع مخطط تحصين استثنائياً. «تحصينات ستراسبورغ الدفاعية العالية يجب أن تجعلها منيعة»، قال بصوته الآمر. أعطاه مهلة عشرة أيام. نفّذ المهندس كما ينبغي. وبعد أن منحه الملك موافقته الكاملة، وضع المخطط قيد التنفيذ. أحضر ثلاثة آلاف رجل لبناء القلعة، وثلاثمائة سفينة من بريزاش[1]. أُلقيت الحجارة. في ٢٣ ديسمبر/ كانون الأول من عام ١٦٨١، استطاع ڤوبان أن يُغادر ستراسبورغ. هل سمعت؟ كل شيء على التسلسل، كل شيء ناجح، إنه عمل مُحكم، قال والسرور بادٍ عليه.

- ستكون مهمّتنا أكثر صعوبة أيضاً حين سيجب علينا أن نروي واقعة الهزائم.
- لن يكون هناك هزيمة البتة.

---

(١) بريزاش: بلدة فرنسية في مقاطعة نهر الراين العالي (الألزاس) صمّمها المهندس ڤوبان على شكل مثمّن.

- أيها الملك العظيم، توقّف عن النصر وإلاّ سأتوقّف عن الكتابة!
قال نيكولا هازئاً.

حار جان، لم يكن لديه مهارة صديقه في الهجاء، الآن أكثر من أي وقت مضى. لم تكفِ السنون كي تُضعف رقاص الساعة الذي يهدّد في كل لحظة بالتوقف ويأخذ كل شيء، أو يترك كل شيء.

مع تقدّم التنقلات، كان جان يمرّن نظره. فهم أن الجيش مكوّن من آلاف الأجساد المُجتمعة. أن عشرة آلاف أو عشرين ألف رجل هم عبارة عن جسد يضاف إليه آخر وآخر... داخل المعارك المجيدة، كان يلمح متشرّدين وبائسين مُجنّدين بالقوّة كي تزداد ضخامة الجيوش. اكتشف أيضاً مخازن وعربات المؤن، كل الابتذال الموجود تحت أي انتصار، تحت أي مأثرة كُبرى من مآثر الملك. كان المُشاة في الحقيقة كثراً وغير مُطيعين، أذلاء وأغبياء، كسالى وجائعين. لم يكن لعمل المجموعة علاقة بالتفاصيل. يكفي أن يضع المرء قدمه داخل حقل المعركة حتى يكتشف أن الحشد معناه الفوضى، الخلط، القذارة، ما لا يمكن أن يراه لا في فرقة مسرحية ولا في فرقة رقص البلاط. القائد الجيّد عليه أن يحافظ على هجومية رجاله بعيداً عن الهمجية.

كل معركة، كل حصار ترك آثاره في الحجارة. كان ڤوبان ينجح في كل مرة في تشييد أسوار تحمي المدن والمقاطعات المستولى عليها. كان ذلك بمثابة الأعجوبة. في المكان الذي تمرّ فيه الجيوش، ترتفع الأسوار التي كانت توهم أن الجنود ما زالوا هناك، متجمّعين، مترصدين، مستعدّين للانقضاض على العدو.

عندما كان الملك متوعّكاً في سريره دعا جان ونيكولا للمكوث

إلى جانبه كي يقرآ له تاريخه. كانا يتناوبان كما يجيدان، ولكن على مرّ الأشهر بحّ صوت نيكولا وخانه، لكن صوت جان غدا أكثر حلاوة وقوة من أي وقت مضى. في فضاء الحجرة الصغيرة أو في غرفة النوم، كان يعيد رسم عظمة المعارك والاحتفالات. كانت زوجته تومئ برأسها مسرورة من هذا الخيار المدهش والمبتكر كليّاً: شاعران أفضل بكثير من كل المؤرّخين. مع ذلك، في ختام جلسة جاء فيها جان بمفرده، قال الملك ما أدهشه:

- كنت لأبدي رضاي عنك أكثر لو أنك لم تمتدحني إلى هذا الحد.

انصرف جان إلى بيت نيكولا وأخبره أن عليهما التسلّح باستراتيجيات جديدة لإخفاء المديح، أي أن يمتدحا بطريقة مختلفة، تشكيل خطابات غير مباشرة دائماً، مُلتوية مثل السواقي والأنهار الكبرى دون إظهار ذلك، مرايا تعكس صورة الملك إلى ما لا نهاية، لكنها لا تُظهره في المقدّمة متصدراً. أضحت قاعة المرايا النموذج الأمثل.

- بالإضافة إلى المرايا، يجب أن تظهر في ثنايا كل شخصية نتحدث عنها صورة الملك، سواء كان مشيراً أو رئيس دير، نحن نتكلّم عن الملك دائماً. أردف نيكولا.

كان ذلك هوساً فوق هوس، شبكة تزداد ارتصاصاً وتعطي معنى للحياة، لكل فكرة ولكل علامة.



٢٧

- ثمة بقعة في هذه الشمس، قالت له على الفور.

استفاق جان عند الفجر كي يزور خالته. وقت الزيارة محدود، ولكن في طراوة ذاك الصباح الصيفي، مشى نحو قاعة الاستقبال دون خوف ولا إبطاء، بخطوات نشيطة.

إنها كلمات كان جان قد قرأها من تحت ريشة أرنو الذي انعزل بعيداً عن الوادي. لم تعد أنييس قلقة بشأن خلاص جان لأنه اختار أخيراً حياة لائقة وتقيّة. أقفل على حياة المسرح والممثّلات والخلاعة. في طريقتها بلفظ كلمة خلاعة، سمع الكراهية والخوف. ذكرت ضربات الملك الصاعقة ضد الدير، التهديد بالخنق، بالاختناق. أخبرته أنه صار يمنع مجيء راهبات جديدات وأن كل الرجال قد رحلوا باستثناء هامون.

- لو أنكَ رأيتَ طالبات الرهبنة كيف خرجن مثل المنبوذات، مثل بائعات الهوى، أثوابهن البيض الناصعة متّسخة بالوحل ولعاب الأحصنة، قالت موضّحة: ظلال هذه الشمس التي تتملّقونها ترسو هنا وتكبر في الوادي.

ارتبك جان وأكّد لها أن لا علاقة للملك بأي شيء، وأن مُستشاريه اليسوعيين أصحاب النيّات السيئة هم الذين يفعلون ذلك، وسوف تمرّ العاصفة مرة أخرى. كشف لها عن منصبه والمساعي التي سيبذلها لإقناع الملك بأن يلين، إذ إن شمساً كهذه لا تحتمل أي بقعة.

- متى ستكفّ إذاً عن أن تكون مُغفّلاً إلى هذه الدرجة؟ سألت خالته بكل هدوء.

أنهى المقابلة وانسحب. ما من ظلال أو بقع إلاّ داخل العقول الغارقة في الظلام. ردّد بينه وبين نفسه، لمح بعيداً في الحديقة ظل هامون. توقّف، اختبأ وراء إحدى الشجيرات ونظر. تساءل لماذا لا تستجيب حركة الأجساد للنبضات البسيطة، لماذا لا يرغب في الذهاب نحو الطبيب العجوز، مثلما كان يفعل في الماضي عندما كان صغيراً. لماذا تستمر المشاعر في داخلنا في الانحراف، وتضع ملايين العصي وسط الدواليب التي تقودنا؟

استأنف طريقه وصعد الدرجات المائة. كانت تلاحقه أسئلة أخرى بحيث صار يمشي بعصبية مسرّعاً خطاه. هل كان ذلك لأن الإله الآخر يبقى مختبئاً على نحوٍ يائس، ولأنه يحرم البشر بلا رحمة من نِعَمه التي يُغدقها على الملك سائغة وضّاءة بأضعاف مضاعفة؟

لم يكن عليه سوى إعادة قراءة صفحات بيليسون مؤرّخ الملك السابق كي يقتنع بذلك.

لم يكن الملك قد بلغ الرابعة والعشرين حين أجبر كل ملوك أوروبا الآخرين على حضور الاعتذار الذي تدين به إسبانيا له لأنها أمرّت عربة سفيرها أمام عربة مملكة فرنسا. لم تكن اعتذارات فحسب إنما حركة من السماء، بركة، تبجيلاً، إذلالاً برضى كل الممالك الأخرى حيال المتقدّم في المسيحية. في قلب القصر، انحنت كل الرؤوس أمام الملك.

بعد أشهر قليلة، ذهب إلى أبعد من ذلك أيضاً: أمام الحشد

المجتمع في ساحة كاروسيل[1]، كان الملك يلبس صدارة من الحرير المُقصّب بالفضّة والذهب. لم تكن هناك الحاشية والباريسيون فقط، إنما الشعب كلّه المتحمّس لفكرة إنشاء دولة ورؤيتها تُحكم بقوة تبهر العالم. كان الملك يمسك بيده ترساً عليه شعار «*ut vidi vici*»، «ما إن ظهرت انتصرت» كان يشكّل مع الترس جسماً واحداً وافتتح أولى الرقصات الرباعية. ما عاد جان يذكر ماذا كان يفعل أثناء هذين اليومين المجيدَين، لكنه حفظ عن ظهر قلب الأسطر التي أملاها الملك على مؤرّخه في ذلك الحين: «من أجل وجه الترس أختار الشمس التي تُمثّل في قواعد هذا الفن أنبله وهي بكل تأكيد أجمل وأعظم صورة لملك عظيم».

(١) كاروسيل: ساحة في قصر اللوفر.

٢٨

غير أنه بعد أيام قليلة عاد إلى الدير. كان طفلاه يمشيان في الحديقة. كاترين تمسك يده بحرارة. بين الحين والحين، كان يقطع الصمت كي يروي إحدى ذكريات طفولته، عن مكان كان يجلس فيه، عن دائرة الرهبان الحبساء التي كانت تثير الرعب في قلبه. مدّ يده عدّة مرّات باتجاهات مختلفة، جثا بالقرب من ابنه البكر ليريه الراهبات بأثوابهن البيض يمشين في البعيد. في إحدى اللحظات كاد يقع، لكنه تعلّق بأكتاف أطفاله الصغيرة. ما هي الحياة؟ سأل نفسه. هل هي مسبحة من المشاهد المبعثرة وليدة المصادفات؟ أم خط متعرّج تقوده إرادة وحيدة معصومة من الخطأ أكثر قوّة من تغييرات المحيط من حولنا؟ لم يكن يعرف ماذا يقول، جلّ ما كان قادراً على إدراكه هو في عناقه لابنه، ثم لابنته، ثم للاثنين معاً قبل أن يمسك يديهما للعودة نحو المَخرج. لكنهما تركا يده وراحا يركضان أمامه لا يتعبان، صغيران بين جذوع الأشجار الضخمة. خاف أن يضيّعهما، أسرع والتقت نظراته نظراتهما الضاحكة والمطمئنة، ورآهما يركضان وهما يبتعدان أكثر فأكثر. في أي عينين كان بوسعه أن يسمّر نظرته هكذا وهو طفل، الزمن اللازم ليدرك أن هناك شخصاً في العالم سوف يغرق في الحزن عند موته؟ لا أحد، باستثناء هامون ربما، بين الحين والحين عندما كان يذكره في صلواته.

- يبدو أنك في الآونة الأخيرة تُشاهد كثيراً هناك، قال الملك.
- أذهب إلى هناك أحياناً، أزور خالتي.
- لا أحب سماع أنك تذهب إلى هناك.
- لا تخشَ شيئاً.
- أنا أخشى.

في حميمية الغرفة الصغيرة التي دعاه إليها الملك، شرح له أن سادة بور رويال يعيشون في هذا العالم كأنهم يعيشون في سجن بعد أن تخلّوا عن كل شيء. لا يمكن أن تُحكم مملكة دون أن تعطي قيمة للأشياء، لا يمكن أن يُغفر لمن يقول: إن أعمال البشر ليست سوى غرور. إنه ليل شديد الظلام ذاك الذي يقدّمونه، ظلمة لا يمكن إلا أن تُحبط أمّة.

- مع ذلك، عقول عظيمة تكلّمت في تلك الظلمة، قال جان.

أشار إليه الملك أن ينسحب دون أن يردّ على حجّته الأخيرة. لكثرة ما خالطه، بدأ جان يشعر، بما لا يقبل الشك، بوجود نقطة عمياء فيما بينهما، نقطة يبقيان فيها ذاهلين إلى حد غريب بسبب إعجابهما المتبادل. بالنسبة إلى جان كان ذلك انبهاراً، بالنسبة إلى الملك خوفاً يتأجّج عندما كان يجدر به أن يبرّر أمام بعض مستشاريه اختياره لمؤرّخ أكاديمي بالتأكيد وشاعر كبير، أحد رجال البلاط الأشدّ إخلاصاً، ولكن مع ذلك، هو جنسينيّ إلى حدّ مريع. أحياناً كان الملك يردّ: لولا هذا السواد الذي يلفّ أبياته لما كانت شديدة الضياء إلى هذا الحد.

مات كورنيّ في شهر تشرين الأول من عام ١٦٨٤م. اختير جان بالقرعة مديراً جديداً للأكاديمية. لم يراوده أي شعور بالحزن بالتأكيد

، لكنه أصبح على يقين أنه في السن التي وصل إليها، كان الموت ينقضّ على من هم في جواره. لا حيوية أولاده ولا عددهم، عوّضاه عن كل تلك الميتات التي بدأت تضرب حوله. طُلب منه في بداية شهر كانون الثاني أن يقدّم المرثاة التي ستستقبل بديل كورنيّ. كانوا يتحدّثون عن أخيه، في حين كان جان يفضّل مرشّحين آخرين، لكن دون جدوى: تم انتخاب توماس كورنيّ. لن أرتاح من هذا الاسم أبداً، قال لنفسه. شجّعه نيكولا على الكتابة بطريقة منهجية ومألوفة ليس أكثر.

كان جان عصبيّ المزاج يرتجف ليل نهار، تستولي عليه ذكرى المنافسة الحادة تارة، وتارة أخرى مرارة لا اسم لها، يشعر معها وعلى نحو غامض أن موت كورنيّ قد أثّر فيه أكثر مما ينبغي. ألا يجدر به أن يمتدح الموت المزدوج؟ موت رجل وموت فن لن يمارسه بعد الآن، فن يلمح فيه ملامحه نفسها؟ الوسيلة الوحيدة للتخفيف من حدّة هذه المرارة هي أن يتصوّر نفسه في السنوات المقبلة عندما سيموت هو وكل من عرفه، حين لن يبقى منه سوى صفحاته المكتوبة، الضائعة، التي سيُعثر عليها مجدداً، بعد أن يمضي الزمن ويمحو كل الأسماء، باستثناء البعض منها: «سوف تنظر إليه الأجيال القادمة كأقوى الشعراء، على قدم المساواة مع أعظم القادة». اتّبع في كلمة التأبين الطريقة المعاكسة، رجع إلى الشعر. «نعم سيّدي ليحطّ الجهل قدر ما يشاء من البلاغة والشعر، وينعت الكتّاب البارعين بالناس غير النافعين في الدول، لن نخشى شيئاً عندما نقول: من أجل مصلحة الأدب وكيان هذا المجلس الشهير الذي أصبحتَ الآن تشكّل جزءاً منه، منذ أن تخطّت الحدود المألوفة منذ زمن بعيد عقول عظيمة، تميّزت، وتخلّدت بروائع أعمالها، مثل أعمال السيد

أخيك. ثمة تفاوت ظالم بينهم وبين أعظم الأبطال تصنعه الأقدار خلال حياتهم، لكنه لا يلبث أن يضمحلّ بعد موتهم». ها هي إذاً قد سُمّيت أخيراً، تلك اللعنة، تلك الكلمة الخسيسة التي تصف كل ما ألّف في كل مرة: «اللا جدوى».

مع هامون، عندما كان ينظر إلى الأشجار والأرض، كانت يدا هامون تتحركان وتعملان، وتبقى يداه معقودتين لا نفع منهما. عندما كان يتعقّب الجرّاحين والأطباء خلال الحملات، يُعجب بالكوندية والكونتية[1] وكل أولئك المحاربين القادرين على قيادة جيوش الغزو، أو المهندس ڤوبان الذي كان يشيّد من التراب مدناً جديدة لا تُقهر، ألم يكن ذلك للتعويض عن ذاك الجناح الذي يفرده على العالم أيضاً؟ مع ذلك، لولا تلك الظلال التي تلفّ الأشياء، لولا الأفاعي التي تجعل المادة تفحّ، أين يمكن أن يكون الشعر؟ أين ستكون الروعة؟ أليس هدف حياته هنا في هذا العالم أن يرى ويقول؟ كانت زوجته تعاتبه أحياناً لأنه لا يؤمن بخلاصه كثيراً، وإلا لما كنتَ كتبت كل ذلك، وإلا لما كنتَ مشغول البال كثيراً بـ... لكن كاترين لم تكن تُكمل عبارتها قط، كانت تضمّ يديها وتبدأ الصلاة.

غير مرة، أحسّ جان أنه وضع في آخر مرثياته مرايا مُدوّخة تشوّش نظره، تمنعه من مواجهة موضوعه والانفصال عنه.

من كان بوسعه أن يفكّر في شيء كهذا؟ أسرّ إلى نيكولا. من يقول: إنني حاربت كل حياتي ضدّه وحتى في لحظة دفنه لم أنتصر. أنا أدفنه بالتأكيد، لكنني أقفز معه إلى القبر.

بعد يومين، طلب منه الملك المجيء ليقرأ له خطابه في حجرته

(١) الكوندية والكونتية: ألقاب نبلاء.

الصغيرة. بدا كل شيء مدفوناً تحت الثلج، الحدائق، القصر. كانت قدماه تغوصان، ينزلق، يعود ويقف في آخر لحظة، كان يرتجف. اجتاز المساحات البيضاء الميتة من شهر كانون الثاني، الأروقة التي زوّدت بالثريّات والمليئة بالقمامة. مشى نحو غرفة الملك الصغيرة ورائحة النتانة في أنفه. دون أن يلتفت، لمح انعكاسات صورته المتتالية في المرايا، متقطّعة، مقصوصة عند أطراف الجدران. صورة واحدة ومتعدّدة، مثل جيش، فكّر، أنا جيش وحدي. قبل الباب الأخير، في اللحظة التي انتظر الأمر الأخير، وبعد أن توقف ساكناً، نظر إلى نفسه وقتاً أطول بعض الشيء ورأى وجهه المُكتنز تحت شعره المستعار قد احمرّ من البرد على نحو مضحك.

- آه، أخيراً، ضجرت من قراءاتك! قال الملك مُتعجّباً عندما دخل.

رُزق جان مزيداً من الأولاد بعضهم وراء بعض. كانت كاترين تسهر على هذا العطاء السماوي، تحيط كل مولود جديد بعناية ذاك الذي سبقه نفسها، كانت تستمهل انفعالات جان التي تجتاحه أحياناً، وتحافظ على نوع من الحرارة بَين بَين ودائمة، إذا ما أبدى أي ضيق يتعلّق بمهمّته، فكانت تتضرّع إلى الله كي يرأف به. وإذا ازداد كآبة فكانت تُظهر له مقدار حظهما بتربية ذرية تتمتّع بصحة ممتازة. كان أي شيء يجد جواباً على فمها، شيئاً يريحه. «إنها نعمة لم أتوقّعها، قال لنيكولا، أن أسمع من يتحدّث عن الله البالغ الكرم، الرؤوف لا محالة، أنا لا أسأم منها أبداً».

خلال السنتين التاليتين، ترسّخت هذه الطيبة في داخله أقوى من كل الحلاوات التي سالت فيه. إنها حلاوة أكثر كثافة. فضلاً

عـن ذلـك، كان جـان يلاحظ بشـكل جليّ، أثنـاء الصلاة أو أثنـاء أعمال الرحمـة، أن هذا الشـعور بالـسرور لم يعد موجوداً في بطنـه بل في الأعلى، في مـكان قلبـه بالـذات، قلبـه الـذي كان يظنـه لا يمكـن أن ينقبـض في صـدره بعـد الآن دون أن يتداعـى، حتـى عندمـا علم بمـوت هامون.

حكـى له أحد الحـرّاس أنـه أثناء سـاعاته الأخيرة، ثبّت نظره على صليـب، وهـو يلفظ بضـع كلمات: «يسـوع، مريـم، الـزوج، الزوجة». أربـع كلـمات مختـصرة، سلسـلة متكاملـة متناظـرة ومغلقـة. ثـم كلمـة خامسـة أقـوى، صمـت. في آخر أيامـه، لم يكن هامون طبيـب الراهبات فقـط، بـل كان يشـغل مناصـب عـدة، كان يتلقّـى اعترافاتهـن في غياب الكاهـن. نـام حتـى نهايـة أيامـه عـلى ألـواح خشـبية، لا طـراوة، ولا راحـة. أثنـى نيكـولا عـلى الرجـل القدّيس في حـين لم يكتب جـان بيت شـعر واحـداً. اكتفـى بـترداد الرباعيـة المنغّمـة التـي نطق بهـا المُحتضر: «يسـوع، مريـم. الـزوج، الزوجـة». وكان يـتراءى لـه في سريرتـه، أنـه يسـمع عوضـاً عنهـا كلـمات أخـرى تـرنّ كالصـدى، تـأتي لتضاعـف العبـارة، تضيـف إليهـا تموّجاتهـا الدنيويـة: «تيطـس، بيرينيـس، رغـماً عنـه، رغـماً عنها».

الحارس نفسـه عهـد إليـه بمخطـوط موضحـاً له أنـه سريّ ومحرّم. بقـي جـان عـدة أيـام قبـل أن يتمكّـن من الدنـو منـه وأياماً أخـرى قبل أن يقلّـب صفحاتـه، لكنـه عندمـا بـدأ، لم يعـد بوسـعه التوقّـف. كان مُجلّـداً مكرّسـاً للعزلـة، أكثـر مـن ثلاثمائـة صفحة يصـارع فيهـا هامون حـب العـالم. دُهـش جـان مـن كل ذاك التركيز، هـو الـذي لم يعرف قط سـوى نظم قصائـد طويلة، والآن تشـتّت في توثيق الأحـداث التاريخية. التقطـت أنظـاره بعض عبـارات هامون، كأنهـا تقطر من ثمـرة فاكهة.» أجـدني أكـرّر نفسي كثيراً... المتغطرسـون حين يتكلّمون يتسـاقطون

ويتقوضون». كانت العبارات تطل على جان من الصومعة حيث لقي العجوز حتفه، من غرفة التمريض التي استقبله فيها مراراً. من تحت أشجار الحور الرجراج، كانت تتكشف له، ليس بقوة الملامة إنما بوضوح المثال. كيف يمكن للمرء أن يكون شديد التواضع؟ تساءل جان وقلبه يعتصر. كلّما تقدّم في قراءته، زاد اقترابه من هامون وازداد التصاقاً بمخطوط معلّمه. عاد ليسمع صوته، حتى طقطقة صنانيره الصوف. لم يزعجه أحد، ولم يجرؤ على تعكير هذا الحديث الأخير. «تضم هذه التفسيرات المتصوّرة عادة الحقيقة وصورة عن الحقيقة. إذ إن الجمع بين الحقيقة وصورتها يجعلها ملموسة وأكثر وضوحاً، ومفهومة أكثر. باستخدام الصور، حين نستوقف الذهن على الحقائق نفسها وقتاً أطول، نزيد من وقعها وتأثيرها وتساعد على استيعابها، وتفيد بشكل من الأشكال كنوع من الذاكرة الاصطناعية».

توقّف جان، حمل الكتاب إلى منضدته، ودوّن. لم يقرأ شيئاً بهذه الروعة منذ زمن طويل. فهم لماذا كان يطارد الصور، لماذا يحتاج إليها كثيراً في مسرحياته، لماذا يمكن لتاريخ الملك أن يكون أكثر عظمة لو توصّل إلى الاستغناء عنها، إذ إن المآثر الملكية في ذاتها لديها ما يكفيها من قوة التأثير، سوف تكون الذاكرة التي سيمنحها إياها طبيعية، ليس أكثر. فهم أيضاً أن بور رويال وحده قادر على منح العقول كل هذا الوضوح والدقّة.

وعد أن يعيد المخطوط، وأن يسافر شخصياً حتى الدير ليضعه بين أيد أمينة. سأل الملك في ذلك اليوم: «أين ذهب مؤرّخي فهو ليس في البلاط ولا في منزله؟». أجابوه بأنهم يجهلون مكانه، لكن الملك كان يعرف، ورأى فوراً ممرات الدروب المظلمة للوادي المناهض.

اتجه جان صوب المقبرة. راح يطوف بين القبور ويتوقّف أمام كل حجر. كانت كل الشواهد هامون. اقترب من الأول، ثم من الثاني، لم يكن يعرف إلى أين ينظر. كانت الشواهد تعصف من حوله مثل رياح معاكسة. لكنه هدأ، بدأ يقرأها بصوت عال. استمتع بعظمة اللاتينية. أقصى إيجاز في المديح الذي، إن صحّ القول، ليس مديحاً. هنا، العالم كتاب، فكّر، لن يمحى فيه أي سطر محفور في الرخام لقرون وقرون. في ذلك اليوم، كي يعود إلى المخرج، تسلّق المائة درجة على ركبتيه، كما كان يرى الراهبات يفعلن. لم يعد بوسعه إمساك دموعه. لعدّة أيام، منعته جروحه من السير.

٢٩

طلب الملك استبدال الكلام المُفخّم المذكور في أسفل لوحات لوبران[1] الهائلة الحجم في القاعة الكبرى. أوصل طلبه إلى مؤرّخي عصره، كان يريد عبارات بسيطة وراقية. «سوف تكون شعاراتنا متواضعة بقدر كبر لوحاتنا»، أكّدوا له. في أسفل اللوحات التي تمثّل الشخصيات الكبرى، أقمشة طويلة مُثناة، سُطّرت فوقها بضع كلمات ساطعة كأنها كتبت بماء الذهب.

«أعطى الملك أوامره للهجوم في الوقت نفسه على أربع ساحات مُحصّنة في هولندا، عام ٢٧٦١م. الاستيلاء على المدينة وقلعة غاند في ستة أيام، عام ٨٧٦١م.»

وقائع، أرقام، تواريخ، لا شيء آخر.

- احترس، قال نيكولا هازئاً، لن نجرؤ بعد الآن على كتابة كلمة واحدة من كثرة الإيجاز.
- سوف نكتب الصمت عندئذ، قال جان.

استؤنفت المجادلات، في الأكاديمية، في خارجها، في كل مكان. كانت المقارنات بين كورنيّ وجان تخرج من تحت الأرض مثل الأعشاب الضارة وأعادت إحياء وحش طفولته، ذاك الذي دفنه منذ عهد قريب. كان هناك انقسامات، صاروا يتحدثون عن عبقرية

---

(١) شارل لوبران: (١٦١٩-١٦٩٠) فنان رسام ومصمم ديكور أول من رسم الملك لويس الرابع عشر.

رجولية وعبقرية أنثوية، أُطلقت الرهانات. أكثر من أي وقت مضى، كانوا يريدون أن يعرفوا أي واحد من الكاتبين سيبقى، من سيجسّد العبقرية الفرنسية وقتاً طويلاً. على الرغم من مرضه، كان نيكولا يستشيط غضباً مثل شيطان، يستعيد قواه تحت أنظار جان الذي كان مقلاً بالكلام، يزيد تركيزه، بالكاد يجيب ببضع كلمات بين الحين والحين. إذ إنه ما إن يتخيّل جثّة كورنيّ حتى يلوح له أنه يلمح جثّته. عمّا قريب سوف تُتّخذ الاجراءات ويحاولون معرفة مَن مِنَ الاثنين سيكون الأطول خلوداً، الأهمّ، الأبقى.

أقفل على نفسه داخل غرفته الصغيرة، باشر بالطبعة الجديدة لمسرحياته العشر وأضاف إليها خطابيه الأخيرين. قرأ من جديد بكل هدوء، أعاد النظر في علامات التنقيط، اهتم بالقواعد أكثر مما اهتمّ بالإلقاء. ولكن في كل مرة كان يسمع في البعيد صوت كاترين أو صوت أولاده، كان يفقد سلسلة أفكاره ويتشوّش. عندما كانت زوجته تسأله عن الساعات التي يقضيها مُغلقاً على نفسه وعن مشاغله الضرورية، لم يكن يذكر سوى الصفحات التي عليه تقديمها للملك أو يقول ثلاث مرّات: لا شيء. ولكن لا شيء كان أكثر كذباً من ذلك. كانت تتغلغل في ساعاته أسئلة تنهكه، تُصيبه باليأس. قرّر مثلاً، بعد تردّد طويل، تغيير عنوان «فيدر وهيبوليت». صار اسمها منذ الآن «فيدر». في ذلك النهار، جلس إلى المائدة مع العائلة بهيئة مختلفة، وديع النظرة وكأنه مرتاح البال. انشغل بال كاترين إذ رأته منهكاً. طمأنها، وذكر لها الارتياح الذي تُحدثه فيه القرارات الصائبة والسليمة. لم تعرف عمّا كان يتكلّم، لكنها وافقته.

عندما ظهرت الطبعة الجديدة، لم يستغرب أحد اختياره. انتظر تعليقاً من مانتنون، لكنه لم يأتِ. لم يبدر عنها سوى هذا الارتجاف

في شفتها العليا وذاك الظل الذي يعبر أسفل وجهها عندما تبدأ بالحديث عن الخطيئة والخلاص. فكّر جان أن كل شيء في هذا الارتجاف الخفيف، في هذا الاندفاع الذي تبديه كي تمخر بحار الماضي. ولا ينسى أبداً أن زوجة أقوى ملوك أوروبا نفوذاً تبقى هذا المخلوق المشطور نصفين، مثله، لن تبرح حتى تجد ما يجعل حياتها متماسكة، نوعاً من الاستمرارية بين مراحلها، تياراً يخفّف من الإحساس بالدنس حتى يذيبه.

عندما دخل جان لأول مرة إلى مدرسة الفتيات الجديدة، على مسافة بضعة أمتار من ڤيرساي، ترنّح، وظن أنه سمع همساً: إذا اختفى الدير عن الوجود، فلن يجد القوة الكافية للعيش.

رافقته مانتنون في كل أنحاء المدرسة. شرحت له كل ما يعلّمون فيها، وعن كل طموح مشروعها. شاهد فتيات صغيرات ويافعات، يبتسمن، يضحكن ضحكات مكتومة، يتسلين، يسلّمن عليه بصوت خافت، وكلما ازداد توغله في جولته، كان يتعرّف أكثر، من خلال تلك المجموعة من الأطياف الهزيلة، إلى الفتيات الصغيرات اللواتي طالما رآهن عند المائة درجة وتبرز الآن خيالاتهن المتزمتة بين بناته الخمس. غير أنه في نهاية الزيارة أحسّ بالضيق وانكمش من كل تلك اللهجات الريفية الشبيهة بزقزقة العصافير.

- سوف أعلّمهن كيف يتحدّثن اللغة الفرنسية الأنقى، قالت مانتنون. وأنا أحتاج إلى أكبر شاعر لهذه المهمة. أريد أن يعرفن كيف يتكلمن وينشدن كلام الرب، أريدك أن تؤلّف لهن... إيه... إيه... نوعاً من القصيدة.
- لكنني مؤرّخ الملك حالياً.
- لست المؤرّخ إلا لأنك شاعر.

- لم أعد أنظم الشعر.
- يبقى المرء شاعراً طوال حياته وإلى بعد الموت، أنت تعرف ذلك. ولكن حذار، لا أريد لفتياتي قصيدة حب، كلام الرب، لا شيء غير كلام الرب.

قدّمت له في النهاية بعضاً من أفضل تلميذاتها، بينهن أولئك اللواتي مثّلن مسرحية «إيفيجيني» وكدن يسقطن لشدّة ما انحنين وهن يسلّمن عليه، في حين لم تكن أي واحدة من بناته تعرف شيئاً عن تلك المسرحية.

في طريق عودته أحسّ جان بالاختناق. لم يكن يؤثر فيه لا الإطراء ولا التكريم. لم يكن عليه العودة إلى الشعر بتكليف فحسب، إنما كان عليه، زيادة على ذلك، الابتعاد عن الملك. عليه أن يتغيّب بعض الوقت عن حفلات عشاء مارلي[1]، المائدة التي يختار الملك فيها كل مدعوّ باسمه، ويتخلّى عن تلك اللحظة الرائعة عندما نطق الملك باسمه واصطفاه مع بقية المختارين. كأنه كان يلقي قصيدة. حذّره نيكولا في رسائله من هذه الضبابية، لكن جان وجد القوة كي يتحصّن وراء حدسه، بحيث أصبح يعرف كيف يُبرز من قلب هذا الضباب نقشاً جديداً لم يسبق له مثيل. على كل حال، هل كان لديه الخيار؟ بعد أيام قليلة، أعادت عليه مانتنون الكرّة. ألم يتعب من كتابة وقائع التاريخ؟ صحيح أنها كانت سلسلة من الأحداث المجيدة، لكن مفخرتها الوحيدة أنها كانت تحدث. كان يكتفي بالابتسام عندما كان يريد الردّ أنه ليس متعباً البتّة، لا، ليس متعباً على الإطلاق، وأنه بالإضافة إلى الشرف

---

(١) حفلات عشاء مارلي: حفلات عشاء باذخة يقدّم فيها الطعام في أطباق من الفضة والكريستال كان يقيمها لويس الرابع عشر.

الـذي تمنحـه إيـاه كتابـة تلـك الوقائـع التاريخيـة، كانت أيضـاً مصدر ارتيـاح لا حـدود لـه. بعـد تسـعة أعـوام، صـار يستمتع يوماً بعـد يوم بالاسـتغراق فيهـا بالسـهولة نفسـها التـي يسـتغرق فـي إدارة شـؤونه العائليـة وأعمـال عقاراتـه.

- لاحظت أنك في السنوات التي كنت تعيد الكتابة بدافع الواجب، قبل وصولك إلى هذا المنصب، لم تذكر أعمالك، استأنفت قائلة. على سبيل المثال، كتبت عن عام ١٦٧٢م، ولم تكتب كلمة واحدة حتى عن مسرحيتك بيازيد! كيف يمكن أن تنسى نفسك إلى هذا الحد؟ أنا أعطيك أقلّه الفرصة كي تتذكّر نفسك!

- سيدتي، أنت تعرفين فضائل النسيان.

مرّة أخرى لاحظ شفتها العليا ترتجف.

اختـار جـان موضوع «أسـتير» بسرعـة كبيرة، لكنـه عندما بدأ رسـم مخطّطـه، فقـد الإحسـاس بالنعاس، صـار يظلّ سـاعات طوالاً مثبّتـاً نظره في الهـواء، يرى ذباباً يتطاير. انتظر مسـاء، مسـائين بصبر، ثـم نهض وأغلق عـلى نفسـه داخـل حجرتـه الصغـيرة. كان يحتـاج إلى كتل مـن الصمت في هـواء الليـل كي يلقي كلماته الأولى ويسـمع وقعها. أعـاد تحريك عضلاته، حـاول اسـتعادة عاداتـه. لم يعد يطيـق صـبراً، ازدادت حميّته، ازداد سـخطاً عـلى كل سـنوات الصـوم تلـك، عـلى تلـك الشـهيّة الملجمـة، المنعزلـة، المدفونـة. عندمـا كان يخـرج مـن حجرتـه، كان يـرى عائلتـه مثـل أكـمات صغـيرة في البعيـد لا يرغـب في الانضـمام إليهـا. حتـى إنـه كان يجيـب عن أسـئلة كاترين بنـوع مـن الانزعاج.

أطلـع مانتنـون عـلى كل مشـهد نظـم أبياتـه، حثّتـه عـلى المزيد من

البساطة. ينبغي لبناتها فهم أبياته من أول قراءة. أعاد كتابتها دون أن يعترض أو يجرؤ على القول إن أبياته لم تُصنع كي تُفهم من أول وهلة. أقرّ لنيكولا: فيها روح الشباب الجديد. كانت المقاطع المغنّاة تتيح له إزالة مقاطع صوتية. لم يجرؤ من قبل قط على صوغ أبيات من سبعة مقاطع أو خمسة أو أربعة. وافقته مانتنون وقالت بحماسة: «كلام الرب إشارات موجزة، خاطفة ودقيقة، لا يحتاج إلى جمل طويلة معقّدة أو إلى شطور طويلة. هو بسيط وسامٍ، ناهيك عن الموسيقا التي ستمنح تلك الأصوات الواهية سموّ الملائكة». على الرغم من حماسة مموّلته، كان الخوف يتملّك جان أحياناً. كان يفضّل أن يمسك بين يديه البنية القديمة لقصيدة المأساة الثقيلة التي اختبرها ألف مرّة أكثر من هذا الجسم الجديد الهجين، هذا الوحش الذي تحاول أن يتمخّض عنه.

في مساء أول عرض للمسرحية، كان الملك يقف عند المدخل يتحقّق بنفسه من هوية المدعوّين، يسدّ الطريق بعصاه. هذا مثير للضحك نوعاً ما، قال جان لنيكولا الذي ردّ عليه قائلاً: إن الجبهات تزداد عدداً في كل مكان من أنحاء المملكة، ربّما تهمّه المسرحية مثل إحدى القلاع. على كل حال، أضاف، كم تبعث على الطمأنينة رؤية أولئك الفتيات اللواتي يحببن ويبكين ويصلين بينما الحرب مشتعلة في كل مكان، وخزائن المال تفرغ.

تجمّد جان، كان يفضّل أن تُنتقد مسرحيته على أن تُنتقد المملكة. مع السنين، صارت المسافة بينه وبين الملك أقلّ، وعندما كان يراه يستقبل جمهور مسرحيته وكأنها مسرحيته، كان يتمنّى ألّا يكون وحده ضحية الارتباك. كان يسمع نفسه يهمس: إن مات الملك فلن أقوى على العيش.

حقّقت «أستير» نجاحاً باهراً. كان الملك يمتدحها أمسية بعد أمسية، ومانتنون تتباهى بها، تنتقي المشاهدين من أهل البلاط، لا تسمح بأي عرض للعموم. جرت كل العروض ضمن أسوار المدرسة، ولم يشاهدها سوى مائتي شخص في حين كان هناك ألف شخص يرغبون في حضورها. قيل له: بالنسبة إلى عودتك إنها عودة مجيدة. مع ذلك لم يستطع أن يتحدث عن مسرحيته «أستير». كل ما كان ينشغل به الآن ينحصر في مهامه ووظيفته الرسمية وأملاكه وعائلته. ألهذا السبب، عندما يُعيد قراءة مسرحيته، كان يجدها تافهة؟ الأبيات مُعبّرة، واضحة، تُفهم فوراً، إنها المياه الصافية... يجب سماعها مع الموسيقا، ردّد بينه وبين نفسه دونما اقتناع.

اجتاحت المهاجع وأيكات الحديقة رياح جنونية. جمحت الفتيات وما عدن يتكلّمن إلا شعراً. خافت مانتنون على فضيلتهن. كانت تخشى أن تتحوّل حماستهن إلى شهوة. في المرة القادمة، تجدر حمايتهن من مخاطر الشعر وخشبة المسرح، من كل تلك الأبخرة المتصاعدة إلى رؤوسهنّ. تظاهر جان بأنه لم يسمع شيئاً، كما أنها أيقنت أنه رأى شفتها ترتعش ولم تجرؤ على نكران ذلك.

خالته أيضاً خافت أن يتحوّل الدير إلى مسرح، وتبدأ الذنوب بالتفتح في أذهان كل أولئك الفتيات اليافعات. عندما كانت تلفظ كلمة «اليافعات»، كان وجهها يتغضّن أمام ما أصبح وهماً ليس أكثر، هي التي لم تعد تعاشر منذ زمن طويل إلا الراهبات العجائز: لم يعد المستقبل بالنسبة إليها سوى رأس دبّوس صغير في كتلة مظلمة، مثل الباقي بالنسبة إليه، فكّر جان. كان يعرف أكثر من أي كائن أن

النفس مصوغة من ثنايا عديدة، يسهل إقحام وحش فيها، أوهام برقّة ورق صقيل سرعان ما تنتفخ وتخنقها. أضاف قائلاً: إن البراءة تتأكسد بأي شيء تافه، وكان يفضّل أن يضع عقول بناته تحت الحماية كي لا يُفسدها أو يُغرّر بها أيّ شيء، وكي لا تُنبت الرغبة فيها أقل أثر للتعاسة أو للشغف، يريدهنّ أن يكنّ كالقديسات. وضعت أنبيس حدّاً لحديثه الآثم هذا، هنّأته لأنه ألّف مسرحية في غاية النظافة تلقي الضوء على الاضطهاد. وللمرة الأولى منذ سنوات لمعت عيناها من السرور.

وإن كان يرى بناته رائعات، إلا أنه كان يشتكي لزوجته أحياناً ويقول: «لم أعد أحتملهن». ثم يتراجع عن شكواه وهو يشعر بالخزي عندما كانت تجيبه كاترين أنهن يتمتّعن بصحة ممتازة. مع أنه، عند أقل مرض كان يصيبهن، خصوصاً عندما يكون في البلاط، كان الخوف يحفر هوّة يغوص فيها وحده، لا يكون فيها له معين سوى الله. وإذا طال المرض أو تفاقم، كانت كوابيسه ترسم له مشاهد: كخطف أحد أولاده منه، أو تقطيع أوصال عائلته التي أصبحت كبيرة. وحين كانت ترسل إليه كاترين أخيراً أخباراً طيبة، كان يردّ حينذاك بفيض من الحنان، كالزبد يعلو وسرعان ما يتبدّد، يسيل كالعسل فوق أصابعه، يجعله يدعو زوجته «يا قلبي» مُقبّلاً يديها ويديّ كل بناتها، ويشكر الله.

أوصته مانتنون على قصيدة أخرى. لا يريد الملك أن يسمع سوى أبياته، قالت له. في الوقت الذي كانت المملكة تحتشد في «سان سير» ولم يعد الملك يذهب للقيام بحملات، بل كان يكتفي بإرسال أبنائه، كان القائد العجوز يلجأ إلى جوار الشاعر العجوز. بعد شهرين على آخر عرض تقريباً، شرع جان في مهمته الجديدة

وهو على اقتناع بأن مسرحية أستير لم تكن سوى نجاح عارض غير مُستحق، نالت الحظوة من كثرة التوصيات.

- لكنها حظوة مُستحقّة، صوّب نيكولا. ألم تشعر أخيراً أنك أعطيت المملكة نوعاً من اللغة؟

كانت هذه أمنيته الأغلى، ولكن لا هذه المسرحية ولا سابقاتها لبّت طموحاته. هو ليس ڤوبان ولا لوڤو[1]، إذ إنه لم يكن يتعامل مع مادة ثابتة مثل الحجر.

عاد إلى تشكيلة الخمسة فصول، والبحر الإسكندراني الطويل، استبعد مقطوعاته الموسيقية الجوفية ذات القفلة[2]. جدّد صلته بفكرته الثابتة، وهي أن الإنشاد يجب ألا يُفسد الإلقاء. أعاد الخوف والشفقة، التحالف والقتل. لم يتردّد في أن ينهل من الإرث الأدبي، ووضع حلماً في مركز الحدث. لن تكون مسرحيته بخاراً متبدّداً، بل علامة فارقة، ذكرى متّقدة، قال لنيكولا. سيكتبها بتفاصيل بسيطة وصور قاسية بحيث لن يكون أمام أنظار الجمهور سوى التقاطها، بعض الأبيات المبهمة داخل كتلة أكثر وضوحاً، نتف من الليل داخل النهار. سيضع فيها ظلالاً، أكداساً من اللحم الحيّ والمجروح، شيئاً من ديدون في بطلته «أتالي».

- لا تنسَ أنك تكتب للأطفال، نبّهه نيكولا.

في كل مرة كانت مانتنون تسأله إذا كانت المسرحية جاهزة، كان يؤجّل، ثم عندما انتهى أخيراً، هي التي تأخّرت في العمل عليها. لم يكن جان يستغرب ذلك، لكنه أصبح على يقين أن المهانة ستبقى دائماً مرتبطة بالشعر. يتوسلون إليه، يرجونه، ثم ينسونه، قال

---

(١) لوڤو: مهندس معماري فرنسي (١٦١٢م-١٦٧٠م) صمم وشاد العديد من القصور.

(٢) القفلة: التزام لفظي في الفواصل المسجوعة للكلام المنثور لتحقق إيقاعاً معيناً.

لنيكولا: أُقسم ألّا أقع في الفخ ثانية. واكتفى بقراءة مسرحياته في صالونات باريس.

خضعت مانتنون لكل أنواع الضغوطات، ذكّرها مستشاروها ببلبلة تلميذات الدير ودويّ التصفيق وبالشباب المختبئين بين أشجار الحديقة. لاموا أبيات جان حتى قبل أن تُقال، رافعوا كي تُمنع، لكن الملك بتّ الأمر: سوف تُمثّل مسرحية أتالي في نطاق خاص، دون صفوف مقاعد ودون ملابس مسرحية. لم يشعر جان بالاستياء من هذا التشديد، بل على العكس.

كانت الفتيات في أجنحة مدرسة مانتنون يلقين وينشدن القصائد دون موسيقا، بالكاد مع معزف قيثاري[1]. ولكن منذ الأمسية الثانية، لاحظ جان غياب المهارات ولهجات الأرياف والأخطاء. كل ما كانت تخفيه الموسيقا برز واضحاً في عينيه. بعد أن خلع عنه حلّة عبقريّ الوطن، ارتدى لباس الكاتب الخيري. بالتأكيد ظلّ يبتسم ويومئ برأسه عند عبارات الإعجاب التي كانت تلقيها مانتنون في الهواء مثل خيوط تربطها بتلك الوجوه الفتية المطيعة، في الوقت الذي بدا وجه جان كهلاً وذليلاً. لماذا لا يستطيع أن يقول لها: إنهن لا يحسنّ التمثيل ولا يفقهن شيئاً من شِعره، وأنهنّ يفسدنه بإلقائهن؟ لماذا لم يكن يجد في داخله القوة القادرة على تحمّل سورة كهذه؟ أن يشحذ غضبه؟ وعندما كانت تعبّر عن مخاوفها على فضيلة تلميذاتها، كانت ابتسامة جان تنفصل عن وجهه مثل مخلوق مستقلّ بذاته، حيوان غريب معلّق في جزيئات الهواء، لا يحاول أن يروّضه ولا حتى أن يطرده.

---

(١) معزف قيثاري: آلة موسيقية وترية لها لوحة مفاتيح واحدة تعتبر الأصل الذي تطور عنه البيانو.

آثـر أن يفكـر في الأيـام التاليـة هكـذا: «لم تُعرض أتـالي». الصمت الـذي حلّ بـين صفوف أهل البلاط والأكاديمية سـاعده على نسـيان أن مانتنـون لـن تجدّد أي طلـب هذه المرة. أعاد مستشـاروها على مسـامعها أن الجنسـينيّ اسـتغل الظـرف كـي يُمِرّ رسـائل مشـفّرة عـن الاضطهاد في بور رويـال مـن خـلال كلامـه عـن عـذاب اليهـود. لهذا، وفي سـبيل اسـتبعاد أي خطر عن مهاجع الفتيات، أُحرقـت الكتب والمخطوطات. لم يُتـحْ للفتيـات سـوى انفعال سريـع الزوال لم يبـقَ منه أثر. شـعر جان حياهـن في البدايـة بتعاطـف لا حد لـه ثم بيـأس واستسـلام. لم يتوقف نيكـولا عـن تذكـيره أنـه تـرك هنـاك أجمـل مسرحياتـه المأسـوية. لكـن جـان كان يـردّ قائـلاً إن أجمـل مسرحياتـه هـي «فيـدر». كان يقـول: «لم تُعـرض أتـالي»، وبناء عـلى أوامر الملـك، عـاد إلى الميدان.

٣٠

عكف على المراقبة وتدوين الوقائع، كان يروي بحماسة عن الرؤوس المقطوعة والتسليات التي ينصرف إليها الضباط تحت خيامهم. كان يكتب قصصه أينما استطاع وحينما يتاح له، في أي زاوية، فوق طاولته، في الريح والضجيج. بدا له فضاء غرفته الصغيرة مميتاً أكثر من أي وقت مضى، إلّا عندما كان ينصح ابنه في رسائله أن يغلق على نفسه فيها ليتابع ترجماته اللاتينية. كان يتحرك آنذاك جزء آخر منه يظنه عائداً إلى الوالد الذي أصبحه بينما كان نابعاً من الصبيّ الذي في داخله.

في آخر العام عُيّن نبيلاً عادياً لبيت الملك. أغلظَ الأيمان لنيكولا أنه لم يلجأ إلى الوسائط، لكن ذاك الأخير، على الرغم من أنه صمت ولم يعلّق، لم يصدق منه كلمة واحدة. حتى أكثر الكتّاب غيرة فرحوا بلقبه الجديد، وكأن جان كان يأخذ بمعيته أصحاب المهنة نفسها، عبقرية بعض الرجال أو حظهم، كأنه قادر على تغيير الطبقات الاجتماعية والأصول. عاد العسل يجري في عروقه مجدداً. في الميدان، صار الآن يجلس في عربات أخرى، ولم يعد بحاجة إلى وسيط كي يتحدّث إلى ڤوبان. «يتحوّل الوحل إلى ذهب»، قال لزوجته. ولهذا السبب بالذات، وخلال حملة الربيع التالية، كان الملك بنفسه في كل مساء يأمر برشق أمطار من الذهب على المخيمات. كان نيكولا يبرّر في رسائله عظمة المملكة هذه باحتمال زوالها. لم يفهم جان عمّا كان

يتحدّث. لم يكن الزوال أكثر بعداً قط في كل ما كان جان يراه كل يوم. إذ كان ينتشر مائة وعشرون ألف رجل في صفوف، بحيث لم تكن ساعتان تكفيان للتجوال بينهم، أكثر مما جمعت روما بتاريخها، وعندما كتب روما، لأنها لم تعد الاسم نفسه، ولا العظمة نفسها البتّة، لم تعد تألّق الرخام والمعابد، بل كتائب جنود المشاة وآلاف الرماح التي كانت تُرمى إلى ما وراء الحدود. لم يكن يكتب شِعراً بل تاريخاً يقارنه بتاريخ أعظم ملك في العالم، ملك يفوق التاريخ، وهو داخل هذا التاريخ، كي يبقى مدوّياً في صمت القرون. شرح لنيكولا: «خنادق ملتوية مثل شوارع باريس، ثريات من الكريستال تتراقص تحت رياح الشمال. إذا كان الوحل قد صار ذهباً إلى هذه الدرجة، فذلك لأن الخطر هو الذي تفاقم وليس الزوال». كانت الحملات صعبة ومميتة. أعيدت السيدات إلى ڤيرساي وخافوا على شخص الملك الذي لم يكن يخفّف من تهوّره. بدر من نيكولا أخيراً شيء من الحسد في حديثه عن وابل الأمطار التي ضربت البلاد وأغرقت الجيوش بالوحل. كان يشيد بكلامه المبطن بقسوة جديرة بملحمة .

بعد حصار نامور[1]، كان الملك منهكاً، أضنته المحن والمرض، في حين لم يسبق لجان أن شعر بمثل هذه القوة من قبل. ارتفعت مرتبته ومعها عائداته لكل حياته. رُزقَ صبيّاً بعد أربعة عشر عاماً من الأول. سوف يتطلب ذلك منه قطعة أرض ثانية لم يكن يملك ثمنها، لكنه سوف يجد الوسيلة. توقفت أخيراً لعنة البنات. كان ينتقل من موقع إلى آخر، وسدّد كل ديونه. بقي وحده في جوار

(١) نامور: مدينة في بلجيكا، عاصمة والوني منذ ١٩٨٦ .

الملك، وعند موت سَلَفه، سُلّم له شخصياً الأرشيف كلّه. عندما غادروا غرفة مكتبه، وقف أمام أكداس الوثائق المودعة لديه كأنه أمام كنز وطني.

أصبح جان في ڤيرساي الآن حاضراً في جوار الملك صباح مساء، مع ثلاثين نبيلاً آخرين اختيروا من بين آلاف النبلاء في الحاشية. ومن بين أولئك الثلاثين، لم يكن يُسمح بعبور الأبواب إلّا لأربعة: طبيب الملك الجرّاح الشخصيّ، مستشارَين عسكريّين وهو. فيما بعد، كانت تمتلئ الغرفة، لكنهما كانا يتقدمان الجميع، الجرّاح وهو: مثلما كان الجرّاح يعنى بصحة الملك ويعاين جسمه، كان جان يعنى بذاك العضو المركزي الذي لا يُدرك باللمس، يسهر على مديحه، وداخل هذا المديح، كان يسهر على لغته. تبعاً للأيام، كان الملك يطرح عليه أسئلة عن اللاتينية أو عن المفردات، يطلب منه أن يقرأ له، خصوصاً عندما كانت تعاوده الآلام ولا يعود يخرج من سريره. كان جان يحب أن يجيب دون أن يرفع صوته، يهمس تقريباً ويحسّ أن كلماته تنعقد مثل ضفائر في هواء الغرفة المحبوس وروائح الليل، رباطاً واهياً بين وجهيهما، لكنه نفيس، قبل أن يفوح أريج بواكير زهر البرتقال. لم يكن هذا الخلط يكدّر عليه في شيء، على العكس. الإعجاب الذي نكنّه للمعبود، حاشا أن ينتكس عندما نراه يزدرد أو يبصق، بل لا يكفّ عن أن تزداد حدته ويرفع من مرتبة المحبوب أعلى فأعلى، وكأنه منوط بعالمين مختلفين يستقيان مما وراء البشر ومما وراء الآلهة، وتزيد مناقبه بسبب اجتماع الضدّين العجيب هذا.

وكما كان يحصل مع أصحاب النسب الرفيع، منح الملك استمرارية مهمة جان إلى ابنه البكر، فجأة، ألفى جان نفسه يحلم بشيء بسيط، بعيداً عن كل الرسميات وعن كل حظوة: حديث على

انفراد دون شهود، دون مانتنون، ودون أي خادم، لا أحد. يرجوه الملك أن يجلس، تلتقي نظراتهما، يتململ جان والملك لا يرفّ له جفن .

- حسناً سيدي؟ يسأله.

ربما لن يجد جان شيئاً ليردّ عليه، إذ إن جلّ ما كان يريده أن يكون هنا، ينظر إلى الملك والملك ينظر إليه، يسمع أنفاسهما على التناوب، ينهلان من الهواء نفسه، يحرّكان ذرات الغبار معاً. وعلى عكس أي انتظار، لن يفقد الملك صبره. سوف يظلان هكذا، أحدهما أمام الآخر، منتصبي القامة، هادئين ومبتسمين. في الحلم، لن يطلب الملك من جان شيئاً، سوف يطيل الانتظار. أو حتى قد يكسر الصمت ويرجوه أن يتلو عليه بعض أبيات بيرينيس.

وقد يوافق جان، فضلاً عن أنه، بعد خمس وعشرين سنة، سيُطلب منه مرة أخرى أن يتنكر لبطلته «الأكثر إثماً بين الجميع» كما يُقال. لكنه لم يستطع. على الرغم من إيمانه، على الرغم من كل ما يمكن أن ينال من سمعته، رفض رفضاً قاطعاً. عرضت عليه مانتنون فرصة لإخماد الفضيحة عندما أوصته على ترنيمة لفتياتها. رأى جان في ذلك العرض فرصة كي ينقضّ ويهاجم أكبر مأزق مسيحيّ: أصل الشر، دون أي حبكة هذه المرة، مثلما ينقضّ على عظمة ويجرّدها من اللحم. أمضى ساعات في تنسيق مقاطعه الشعرية، يبدّل مكان بيت هنا وبيت هناك، يُدرج أحد عشر مقطعاً لفظياً وسط ثمانية، لكن لا شيء كان يبدو له أكثر تفاهة من ذلك. صار ينظم الشعر الآن مثلما يحوك الصوف، تذكّر العجوز هامون، تمنى أن يقايض عمله بلحظة يقضيها مع ابنه أو مع موظفه الكاتب العدل. تحسّر على الخيال والأبهة والعظمة والشخصيات التي استبدلها برموز تافهة،

زيّنها بأحرف كبيرة فبدت كالدمى المضحكة. كتب لنيكولا: «يضفي المسرح على حياتنا طابع المأساة كما لا يمكن أن يفعل أي شيء آخر، وعلى الخصوص الصلاة».

عندما سلّم إلى مانتنون طلبها، فرحت كثيراً. كفّر جان عن ذنبه بإخلاص لا تشوبه شائبة. نُقل إليه أن الزوجين: الملك والملكة، كانا يستريحان مساءً في أغلب الأحيان على أنغام ترنيماته، أما الملك الذي أضناه المرض أكثر فأكثر، فقد كان يستقي منها راحة كبرى، لكن ذلك لم يمنع جان من تشبيه شفة زوجته بأذن وسط وجهها، ترتجف وهي تلفظ بيت الشعر: «أجد رَجُلَين في داخلي».



٣١

أُحضر قلب أرنو إلى بور رويال. كان قد حنّط في بروكسيل ورُحّل داخل قلب من الفضّة. سوف يحقد عليه الملك لو ذهب إلى هناك. كان جان يعرف أن وراء المراعاة وآداب حسن السلوك هناك شعور المرء بالغدر لو لم يتم اختياره، شعور يميت أكثر الأجساد بأساً. سوف يحدث له الأمر عينه لو أن الملك اختار شاعراً آخر، وعلى الرغم من كل شيء، قرّر الذهاب إلى بور رويال.

كانت هذه هي المرة الأولى التي يطأ أرض الكنيسة الصغيرة. نظروا إليه، حدّقوا إلى وجهه، شكروه بإيماءات لطيفة لأنه جاء، لكن نظر جان كان مثبتاً على القلب الجانح تحت الأغطية البيضاء. كان يستشف داخل القلب الفضي المضخات البنفسجية، الكتلة اللامعة غير المنتظمة التي كان يحدّثه عنها هامون في الماضي. كان يقول: «رؤية قلب ينبض هي معجزة خالصة، أقرب ما تكون إلى الحركة التي نفخها الله في المادة، إرادته الوحيدة». لم يكن جان يفهم حينذاك كيف يمكن رؤية قلب وهو ينبض، لكن هذا التناقض كان كافياً لجعل القصة تبدو عجائبية. لم يأسف لمجيئه إلى بور رويال عندما كان هناك، حتى عندما ذهب لزيارة خالته بعد القداس. حدثته عن الموت. لفظت الكلمة دون أن يرفّ لها جفن. بقي جان عند الجدار دون أن يتمكن من قول جوابه المعتاد، الذي سيهمسه كلمة في أذن الملك. عنها بالذات قالت: إن الوقت لم يحن بعد لهمس

أي شيء لأيّ كان، ولكـن آن الأوان للاستعداد لمواجهـة فكـرة الموت، كانـت تقطّـع عباراتهـا عـلى نحو بطـيء وكأنهـا تمنـح جـان الوقت كي تثبُتَ الصـور في عينيـه. أصغـى جـان إليها، لمـح خيالها الهزيل يتشـنّج، هـزّ رأسـه. أحسّـت بالضيـق فصمتـت، عـادت تتنفـس بهـدوء أكثـر، سـألته عـن أخبـار أولاده السبعة. ولكـن في لحظـة رحيله ذكـرت أرنو وموتـه الحزيـن، خلاصـه المحتمل، عـلى الرغم مـن ميله الـذي احتفظ بـه حتـى النهاية.

- أي ميل
- أنت تعرف تماماً، هيا...

أضافـت بعـض الغمـوض إلى كلماتهـا علّهـا تطيـل مـن اللحظات الأخـيرة ولا يتركهـا جـان بسرعـة هكـذا. فكّـر حينئـذ أنـه لا يوجـد في داخلـه رجـلان فقـط، إنـما ثلاثـة، أربعـة، مثلـما كان في داخـل أرنـو الناسـك الحـارّ ومترجـم أوريبيـد الـذي لا يـكلّ. كل كائـن هو حشـد مـن الأشـخاص، فكّر. ماذا هنـاك أمام كل هـذه التعددية؟ أخيراً سـأل رئيسـة الدير عـن مصير قلـب معلّمه. هـل سيُدفن؟ في أي مـكان في العـالم غـير هـذا المـكان يمكـن أن نـرى الأجسـاد تُنبش هكـذا، كـما تـتراءى في حلـم عـن الحـب أو عن الطـب، كما لا يجـرؤ أحد عـلى فعل ذلـك أبـداً؟ مـع ذلـك، كان متعلقـاً بهـذا النـوع مـن البربريـة كـما هـو متعلّـق بأشـجار شمشـاد وحـور الحديقـة. لم يعـد يريد التفكـير في هذه البربريـة. عـاد وارتقـى الدرجـات المائـة، غاصـت قدمـاه في الطحلـب مثلـما غاصـت روحه.

أبـدى الملك استياء عارماً. بلّغـه أنه لم يعد يريد دعوتـه إلى جناحه. ظـنّ جـان أنه لـن يحتمل فقـدان الحظـوة، وقد يمـوت من جـرّاء ذلك،

ولكن على الرغم من أنه كان يقلّب الأسئلة والأفكار ألف مرة في اليوم، لم يمت من جرّاء ذلك. كانت كلمات خالته تتجمّع وتعطي هذا المنعطف لحياته ألوان التعلّق الوفيّ وتستبدل مخاطرة هذه الحظوة بالجذور. لو كان بوسعه فقط أن يُبعد هذه الغيمة من الطنين فوق رأسه، ذاك القفير من النحل مثل النسر الذي يقطّع أيضاً جسد الميت الخالي القلب ويستفيد منه كي يَدين الوادي. لم يرَ مثل هذا قط، انفجار حقد كهذا، شلالات من الكراهية. أوصلته أحلامه إلى جوار ذاك القلب، كأنه أمام لغز على وشك أن ينكشف ويسلّم رمزه السرّي. ولكن عندما استيقظ ، لم يكن أكثر من قلب بارد وصامت. أغلق على نفسه في مكتبه مع ابنه البكر، يقرأ له، يعرض له الترجمات، يدخل في تفاصيل النصوص القديمة. توقع أن يقول له كما كان يُقال له، أن يقرّعه عندما لا يجدّ ويجتهد. عندما سأله ابنه مستغرباً عن قلة الكتب التي ألّفها، ردّ جان: حين يزداد الإنتاج تزداد الضريبة، يا بنيّ. شرح له على الفور أن هذه العبارة لشيشرون، المورد العظيم الذي لا ينضب، وأوضح أن لا علاقة لذلك بالبخل، فالعظمة الحقيقية تأتي من هنا وكلّ أعماله التي ألّفها في حياته بنيت على هذا الأساس.

- أية أعمال؟ سأل الابن، تلك التي لا تحدّثنا عنها أبداً؟

أشاح جان بوجهه وأخبره أن معلّمه نيكولا كان يردّد هذه العبارة بلا انقطاع. تغضّن جبين الولد من كل هذا الغموض.

كان بيير نيكول العجوز مريضاً يعيش في باريس. ذهب جان لزيارته مرة، ثم مرتين، ثم بانتظام. بدأت بينهما أحاديث طويلة كانت تقطعها نوبات سعال، أحاديث لم يعودا خلالها تقريباً إلى اختلاف آرائهما، لكنهما كانا يتذكران مدارس الطفولة، الدراسة،

طموحاتها. كان جان متحمساً باحتكاكه بصاحب الفكر الثاقب الذي لم تخدعه الإغراءات يوماً، معجباً بقلمه الذي يكشف المستور واحداً تلو الآخر، ذهن دقيق، ينقّب، يطوّق الحقيقة بالبأس نفسه منذ ثلاثين عاماً.

بين الزيارات، كان جان يقرأ أعماله بشغف جديد كان قد نسيه، لا أحد مثله وصف قوة الصور، قوة غير محسوسة ترشح في الذهن، تبذر بذورها وتعدّ إلى سنين قادمة لـ «**شلالات الروح**». توقف جان عند «**شلالات الروح**». لغة معلّمه دورية أيضاً، ويظهر فيها أنه عندما تعبر ذاكرته بين الحين والحين صورة ساخرة في غير محلّها، وسط الأفكار المنطقية، فهي تأتي لترسم فروق أو دمامل وتعيد تشكيل اللحم المتفسّخ، دون أن يظهر ذلك، وداخل هذا التناقض لم يكن جان يرى معلّمه، إنما يرى نفسه وهو يؤلّف مسرحياته، عندما كان الوزن الإسكندراني يعطي هذا المظهر، هذه الطريقة بالعبور من الظلمة إلى النور بلمحة، عندما تنساب الصور في الخطب الطويلة دون أن تبتلعها. إلى جانب النثر، حتى أكثر المؤلفات أناقة، مثل «السيدة لافاييت»، كانت أشعاره الإسكندرانية تنهال مثل سكاكين على قلوب البشر. بسبب الصور احتفظ أساتذتي بقوة المشاعل في أفكاري، فكّر جان. وللمرة الأولى يلتفت ناحية ما كتبه دون غضب ولا خجل، بنوع من الطمأنينة. وتلا ذلك نقاش اعترف فيه نيكول أنه على الرغم من التناقضات الحادة التي رآها في مسرحياته، بقي مقتنعاً بأهميتها الكبيرة جداً.

- كنت أودّ لو أنني حضرتها... قال وقد أغمض عينيه بقوة.

كانت هذه العبارة بالنسبة إلى جان غفراناً لكل الذنوب، عناقاً سوف يحمله معه إلى القبر، أرقّ عبارة انتظرها طوال حياته.

تحت نار محادثتهما، كان ينبت مشروع جديد: أن يروي عن الوادي الصغير وعلمه وموهبته. أودع سرّه لدى المعلّم الذي بدا أكثر من مسرور، حتى ذاك اليوم من تشرين الثاني حين ألمّ به المرض. أصاب الهلع جان، ضاعف من عدد جلساته، أطالها، صار يسترق من الوقت المخصّص للملك ولعائلته ولكل ما تبقّى. جرّد قلمه من المديح، وبدأ مجموعة أخباره الجديدة. لعب بخفّة مع الوقائع والتواريخ، عاد إلى الماضي البعيد، وضع تواريخ، روى بالتفصيل العقود التي لم يشهدها. بعد أيام قليلة، وعلى الرغم من الرعاية والعلاج، بدأ نيكول يُحتضر. شعر جان بالذنب لأنه أنهكه. ليلة موته بكى مثل طفل. يوم موت لافونتين لم يذرف دمعة واحدة، لكنه رأى ليل الجحيم يشتعل ويطوف في داخله ذئب الملاهي العجوز وهو يُخفي ثوبه الرهباني. وبعد يومين، كان دور لانسلو. خلال سنة تقوّض القسم الأكبر من عالمه. في السادسة والخمسين، لم يبقَ له أيّ واحد من معلّميه. عندما كان الحزن يهزّ جسده بالنحيب ويضربه حتى العمق مثل فأس، كان ذهنه يشبّ ويبحث عن شيء يعزّيه. كتب حِكَماً، صُكّ منها ميداليات ملكية، استعاد متعة المحاولة والانبعاث التي تذكّره بالوزن الإسكندراني وبشبابه. علاج بالإيقاع ورياضة الذهن، أسرّ لنيكولا، لا يعزيني النثر أبداً مثل الشعر. كان وقع إعجاب أقرانه به مثل شعاع الشمس يسقط فوق المعدن. لم يتخلّص قط من كبريائه التي كانت تعينه على تحمّل كل العذابات، بما فيها عذاب المثول أمام الله.

عندما كان يعود إلى بيته، كان يتفرّغ لكتابه السرّي، يستعيد اللقاء بفتيات بور رويال الصغيرات. كان كلما تقدّم في الكتابة يدخل أكثر

إلى دائرتهن، إلى دمدمة أحاديثهن، استطاع تمييز طباعهن، أساهنّ، طِلباتهن. اهتمّ بالشخصيات، اندفع بشيء من المتعة نحو حدود كتابة الوقائع والرواية. ضمن الاتهام العنيف الملطّف ظهرت صورة الملك، صورة تلك السلطة التي لم تكفّ عن الضغط كي يغوص الوادي الصغير تحت الأرض. لم يحكِ عن معلّميه ولا عن تعليمه، حكى عن التعاسة فقط، عن الإدانة، عن بؤس الراهبات، وجدّد الصلات مع شقاء النساء. راح يكتب من أجل أنييس، من أجل كل الضمانات التي لم يعد بوسعه أن يقدّمها لها، يكتب ضد عجزه، ضد الملك. كأنني أكتب الأبيض في جهة والأسود في الجهة الأخرى، قال لنفسه. تملّق ودلّل الملك على قدر ما خانه. وبعد أن انتهى، وهو على كرسيه، رجع إلى الوراء ونظر إلى الكتابين أمامه كأنهما وحشان وضعهما على مسافة منه.

وكأن ابنته المفضّلة تأثرت بالإنشاد الذي كان يصدر خافتاً من غرفة مكتبه، لذلك طلبت منه ذات صباح الدخول إلى الدير. أقامت هناك فترة أولى، ثم ثانية، ثم فترة أطول، فيما بعد أعلنت أنها تريد أن تفي نذورها. سرّ جان بالخبر. حاكَ الخطط خلال شهر كي يعيد الراهبة المبتدئة إلى صوابها، أراد أن يعيد إحياء الدير من أجلها. صار عندما يذهب إلى هناك يرى أمام عينيه طرفي حياته، طفولته وطفلته. كانت نظرتها محمومة متقدة ونظرة خالته كئيبة جداً لكنها رائقة. كان يرى بين الاثنتين مسار كوكب يدور في مداره، أو طور نضج ثمرة لن يأتي ليقضمها غير حب الله، الحب الوحيد الذي يدوم ولا يجرح. كان يريد هذا الحب لابنته ولكل أخواتها، عكس الحب الذي أعطاه قوتاً لبطلاته، الحب الذي نهشه حتى العظم.

غير أنه في أوقات أخرى كان يحاول أن يثني الصغيرة عن

عزمها، لكن زوجته أقنعته بالعكس. كانت سعيدة جداً لأنها كانت ترى أن تقوى ابنتها هي مسألة دم يجري في الجسد الكبير الوحيد الذي تشكّله مع بناتها. ذكّرها عندئذ بأن الملك لن يحتمل كثيراً أن يرى في جواره من كانت ابنته هناك، كما كان يقول مراراً وتكراراً في حفلات عشاء مارلي وهو يدير رأسه قليلاً بشيء من القرف. كان يجب أن يُشعر جان بالتوتر ويُفهمه أن حضوره على مائدته يكلّف هذا الثمن. لكن كلام كاترين كان يفيض بإسهاب وقوة حتى يستسلم جان ويُخدع على أمل أن بناته سيعملن من أجل خلاصه أفضل منه. على ابنيه أن يخلّدا اسمه وعلى بناته أن يغسلن وينقّين دم والدهن، ويصبح الدم هكذا طاهر الذيل. تذكّر ما كان يقول له هامون خفية في غرفة التمريض، «وحدهن الفتيات يمكن أن ينزفن مثل المسيح».

كانت مساوماته العديدة دون طائل. أمر ابنته بمغادرة الوادي الصغير. كان في هذا الترحيل الإجباري حزن وارتياح، لكن الطفلة لم تتخلَ عن الله، ورآها جان تضعف مع المزيد من الصوم والكفّارة. تشقّقت شفتاها اليابستان من العطش، غزت جلدها لطخات زرقاء مرقّطة بالأسود مثل حشرات صغيرة. لم يكن ينكر أن المحن والتجارب التي تخضع لها كانت مدعاة فخر له، هو الذي لم يعانِ قط إلّا بضعة جروح في ركبتيه. لكن الصغيرة وقعت فريسة المرض الشديد. حكى لها دون تردّد قصة جاكلين كما رواها له في الماضي الماركيز الصغير، وفي نهاية القصة لمح في عينيّ ابنته المذعورتين الغضب نفسه الذي انتابه تحت ضوء القمر. وافقت على الزواج دون أسىً. إنها مثله، تترجّح تارة هنا وتارة هناك.

عليك أن تمحوها من الوجود، همس الملك في أذنه. نحن

الاثنان أحببناها معاً، ولكن نحن اليوم قريبان جداً من الجحيم، ألا يجدر بنا أن نتخلّى عنها نهائياً؟ وبقي صوت الملك معلّقاً. ساعة تدوين تصويباته الأخيرة، سأله ناشره إذا كان متيقناً أنه يريد فعلاً ترحيل بيرينيس عن أول مجلد من مؤلفاته، وإذا كان يفضّل عدم حذفها من هذه الطبعة الجديدة... دوّى صوت جان وهدّد بتغيير دار النشر. لو كان يلزمه إثبات جديد لاحتفظ بها: تحتاج حياته، من كل بدّ، إلى جزءين منفصلين كي يقول ما يريد. أحياناً عندما كان يغمض عينيه، كان يتخيّل ملكته، ملكة فلسطين، تهرول من مجلد إلى آخر، ترجوه ألّا يتركها. ومن فوق الفراغ، تتشبث يدها بيده، ويد الملك تترك يد جان. لن يرى الملك بعد ذلك أبداً، لن يدنو منه، لن يشمّ أريج زهر البرتقال، لن يلتقي نظرة الخدم المبجّلة.

ذات صباح، اخترقه ألم شديد في خاصرته اليمنى. لم يخبر زوجته، لكنه أخبر نيكولا بذلك سرّاً. ردّ عليه نيكولا أنه يبكي في كل مرة يفتح رسائله. لم يعد يفكّر منذ ذاك إلّا في عائلته وفي خلاصه، وفي هذا الخلاص، يفكّر في أحد الوحشين القابعين فوق منضدته: كتابه عن الوادي الصغير. عندما كان يقوى على الكتابة كان يتقدّم ويجري ضد الزمن، لكنه كان يتحاشى أن يفضح سرّه، حتى لأنييس، يتحاشى أن يعطي أقل فرصة للملك كي يضع يده عليه، نظراً لأن إشاعة فقدان حظوته لديه كانت تتضخم بسرعة مثل ورمه. حتى إنه بدأ يحلم بأيكة يختبئ فيها، حيث لا الملك يراه ولا هو يزعج نزهته، يمّحي، يختفي. تشتعل الأيكة، يطقطق الحطب، تتلوّى الأوراق بين اللهب مثل أوراق ملعونة. كل خيط دخان فيها أسود رفيع يربطه بالجحيم.

في ١٠ تشرين الثاني/ نوفمبر من عام ١٦٩٨م، كتب وصيته. بقي ساعات طويلة مغلقاً على نفسه في غرفة مكتبه الصغيرة بينما تزداد آلامه شدّة. فيما يتعلّق بنقل أملاكه، كتب بسرعة ولم يسأل نفسه، لكنه تردّد طويلاً في كتابة أنه يريد أن يُدفن هناك، في جوار هامون. بمجرد كتابتها، ارتاح على الفور، غلّفته وسادة التراب القديمة بالمخمل وزالت الأوجاع. لا بل وجد القوة كي يعطي طبيبه كتابه الأسود الذي لم تسنح له الفرصة لإنهائه وأمره بإحيائه سرّاً. في شهر نيسان/ أبريل من السنة التالية، نُفّذت كل رغباته.

في مقبرة بور رويال، ثمّة قبران صغيران دون شاهدة، حاسرا الرأس في رياح نيسان.

٣٢

مات تيطس.

هـذا مكتـوب في الصحيفة. لم تتلقَّ أي رسـالة، علمت كما كان لا بـدّ لها أن تعلـم، كما أرادت أن تعلـم، إذ إن بيرينيس اعتـادت التدقيق في صفحـة الوفيـات عـلى أمـل أن يظهـر هذا الخـبر أمامهـا ذات يوم، بلـون أسـود فـوق مسـاحة بيضـاء. كان يلزمها ذلـك حقيقـة. ما كان ليكفيهـا خـبر عـادي، مثـل خـبر انتقـال مـن بيـت إلى بيـت، أو حتى مـرض. كان يلزمهـا وقائـع بحجم الثقب الـذي حفـره عندما رحل، وزيـادة عـلى ذلـك، لا تسـمع به بشـكل مبـاشر، بل تقـع عينهـا عليه مصادفـة، لأنهـا لم تكـن تقـرأ الصحيفـة كل يـوم، لأنـه يمكـن أن تمرّ دائـماً بمحـاذاة اسـم داخل عمود الأسـماء. لا شـك أن مصيبـة حلّت بتيطـس عـلى مسـافة بضعـة كيلومـترات منها، لكنهـا لم تسـمع بها إلاّ عـبر ريـاح المصادفة، ريـاح كادت لتغيّـب انتباهها وتقلبـات وجهها، احتـمال عـدم الإحسـاس بهـذه الريـاح ضاعـف مـن ذهولهـا مئـات الأضعـاف. لذلـك، عـلى الرغم من قلـة احتمال حـدوث ذلك، وعلى الرغـم مـن كل ما تعرفه عـن احتضار تيطـس، ها هـي العاصفة تهبّ أخيراً.

مات تيطس.

يجـول نظرهـا داخـل المسـتطيل المخصـص للخـبر في كل الاتجاهـات. رومـا في مقدّمـة الموكب، تسـتند إلى فاصلتهـا «زوجته،»،

ثم يأتي الأولاد. التقطت صورة للصفحة بهاتفها وأرسلتها على الفور إلى إحدى صديقاتها. هذا بالفعل اسمه، هذا اسم تيطس، أليس كذلك؟ سألت. لم تفهم الصديقة سبب مفاجأتها، ردّت عليها، ولكن كنت تتوقعين هذا، أليس كذلك؟ نعم، نعم، بالتأكيد. كانت تريد أن تضيف بتهكّم: ليس هناك ميت، لا شيء سوى شهادة وفاة.

لم يعش تيطس سوى سنتين دون بيرينيس، مثلما حدث في القصة الرومانية. مات الإمبراطور الروماني بسبب ملاريا، معاقباً من الآلهة. اغتبطت مثلما حدث أمام آخر رسالة من روما: «يقول الأطباء إنه يتمنّع عن الموت، يتمسّك بالحياة. حدّثتهم عنكِ، هل تتصورين؟ حتى الأطباء صاروا يعرفونك، يقولون: إن الأمر له علاقة بذلك، لو أنك بقيتِ في آخر مرة لكان قد رحل. كان يجدر بكِ البقاء، في النهاية، لا أعرف... تم قياس آلامه على سلّم من ١ إلى ١٠، بلغت ٩,٥، وأحياناً ٩,٧. لا يمكن أن نعاقب أي شخص بعذاب كهذا حتى ألدّ أعدائنا». بلى، ردت بيرينيس دون أن تنتظر وأضافت: أصلّي كي ترتفع درجة آلامه أيضاً، أن تبلغ ٩,٩، لا بل ١٠، كي يقع داخل ذلك المجهول حيث لا يعود يعرف ماذا يفعل به جسمه، تلك الحمّى التي تبلغ فوق الـ ٤١°، وتحمله مثل نهر هائج. لتكن آلام تيطس الحافز على ابتكار سلّم جديد للآلام. لم تكن تتخيّل قط كل هذه القسوة في داخلها، لكن فجيعة تيطس وروما منشورة هنا أمامها تمنحها شعوراً بالراحة لم تكن تتوقّعه.

على مسافة بضعة أمتار من قبره، وقفت منتصبة القامة وساكنة، ابتهجت. تلاقت النظرات، نظراتها ونظرات روما، نظرات الأولاد إلى أمهم ثم إليها، نظرات الصديقة التي قادتها

إلى أعلى السلّم، وداخل هذه العقدة من النظرات كانت بيرينيس تلعب، كأنها تلعب الميكادو، أشاحت نظرتها دون أن تحرّك الآخرين. وعندما ضاقت ذرعاً بمخالطتهم ، انعزلت وركّزت انتباهها على إكليل الزهر المخفي وسط الأكاليل الأخرى، والذي كتبت عليه عبارة راسين التي لن يعرفها أحد هنا: «للمرة الأخيرة، وداعاً».

بعد الدفن، عادت بيرينيس إلى حيّها على ضوء الشمس الغاربة. أنزلت نافذة السيارة، أخذت نفحة من الهواء والشمس كما كان يفعل تيطس مراراً في الصباح وهو خارج في يوم مشرق وجديد يدعو للتفاؤل، بينما كانت عالقة في خَرسانة حزنها المتحجرة لا تقوى على مغادرة السرير. حان دوره الآن أن يكون سجين كفن من الخشب والتراب. تلعب أشعة الشمس بشعرها وفوق بشرتها. «**يبدو أن الحياة هكذا صيغت، أن أتعذب لأن بحاراً كثيرة تفصلني عنك ودون أن أرى تيطس كل النهار**»، قالت وهي تفتح بابها سعيدة وحزينة في الوقت نفسه، لأنها قادرة على أقصى عذاب. ثم قررت أن ترتب كل كتب راسين. حشرتها بعضها إلى جانب بعض بحيث تشكّل مستطيلاً واحداً داخل مكتبتها، راعت أن تكون حروف الكتب كلها مقروءة وهكذا يُرى اسم راسين ويتكرّر، أو بقايا جسد تيطس مجموعة في صالونها، بحيث لا تعود تعرف من يرقد هناك. سوف يكون هذا مستطيل مأساتها، مرج عشقها، يتلألأ أحياناً ويختفي أحياناً أخرى، تحت الأيام والسنين، ولكن سوف يكفيها أن تلتفت ناحيته كي تومض حافاته وتقول لنفسها: إنه هناك، نعم، لقد حدث ما حدث. ما هو؟ ما الذي

حدث؟ يسألونها. «إن تيطس لم يحب بيرينيس قط، أو أنه أحبها، إن من يريد أن يفهم ما يسمّى «الحب»، كمن يريد أن يمسك بالرياح». في لعبة زهرة المارغريت، يمكن انتزاع أي بتلة من البتلات: يحبني بجنون، يحبني بشغف، لا يحبني أبداً. ها أنتِ قد أحرزت تقدماً...



٣٣

بعد عشر سنوات على موت راسين، قرر الملك إزالة الدير. شتّت الراهبات، ثم خوفاً من أن يصبح الوادي المناهض مكاناً للحجّ، نبش القبور وأخرج الثلاثة آلاف رفات من المقبرة. في عام ١٧١٣م تكفّلت تفجيرات بالبارود بإزالة ما تبقّى.

يمكن لكل واحدة من المشهديات الثلاث أن تكون موضوع لوحة مروّعة في مسرحية لراسين. قد يكون فيها سيل من الأمطار الجارفة، مئات الجنود طريحي الفراش، عشرات النساء المذعورات اللواتي جفّت دموعهن يؤخذن داخل عربات. قد يكون فيها أشخاص قساة، سكارى يستهوون تقطيع الجثث قبل أن يرموها فوق العربات، كلاب تقضم اللحم النتن. قد يكون فيها انفجار البارود، آخر زخّة من الصرخات الممتدة نحو السماء قبل أن يعود ويحلّ الصمت.

يقـال إنـه يلـزم عـام كامـل للشـفاء مـن آلام الحـب، ويقـال أيضاً الكثـير مـن الأشـياء تجعـل الحقيقـة تضمحـلّ في النهايـة.

عندما نتحدث عن الحب في فرنسا، يحضر دائماً اسم الكاتب المسرحي الشهير راسين في غير مناسبة، خصوصاً عندما يتعلق الأمر بالحزن أو الهجر. المذكور راسين وليس كورناي. والناس يلفظون أبياته حتى من دون فهمها، من قبيل التعاطف والمشاعر المشتركة، ولغة تقرّب في ما بينهم. يمثل راسين التراث كله، لكن عندما نستمع إليه، فإنه يبدو، كما أنه سرّ، يلفه الكثير من الغموض. وتحوم ظلال حول هذا الرخام الأبيض والكلاسيكي. أرادت ناتالي أزولاي الذهاب لاستشفاف ما في الأمر عن كثب. وراحت تتصور حباً معاصراً، طيتس وبيرينيس اليوم، حيث تعاني بيرينيس الحزن والهجر وتسعى إلى التخفيف من ألمها بالعودة إلى المصدر، بيرينيس راسين، بل إلى ما بعدها، أي راسين نفسه، حياته، تناقضاته، ولغته

تريد بيرينيس ناتالي أزولاي أن يُفهم كيف أن رجلاً من بيئتها، وعصرها، محصور بين فرساي، وبور رويال، وبين التشدد الجانسيني وأبّهة لويس الرابع عشر، كان قادراً على كتابة أبيات بهذه الصوابية والقوة عن عاطفة الحب، لا سيما من وجهة نظر الإناث. وبإيجاز، كيف استطاع رجل مثله كتابة أشياء مثل هذه. ذلك هو ما قصدته المؤلفة في هذه الرواية مع بعض الحرية وبالدقة التاريخية واعتماداً على سيرة ذاتية مكنتها من أن تروي قصة غير موجودة في أي مكان موثق، إلا في لغة ومخيال تدرك هي وحدها تضاريسهما. لم يتبقَّ من نصوص عن سيرة راسين إلا بعض الرسائل إلى ابنه، وبوالو، ولكن لا شيء من محتواها يفصح عمّا يدور من تنازع في مكنونه. ويقال إنَّ البقية تم إحراقها. من المؤكد أن هذه الرواية تمرّ على الوقائع والتواريخ ولكن هذه ليست سوى أبواب، كما هو الحال في درب متعرجة، نسقط بينها، ونبني تصورات، ثم نكتب وندفع بها من دون أن نخشى أية عقوبة.

المؤلفة:

هذه الرواية الحائزة جائزة ميديسيس ٢٠١٥ وغونكور للثانويين هي سادس عمل لها. ولدت ناتالي أزولاي في ضواحي باريس. تخرجت في دار المعلمين العليا، وحائزة شهادة الأستاذية في الآداب. تعيش وتعمل في باريس.